

إعجابٌ بالصَّمْتِ

عبد الرزاق قرنح

ترجمة: إسكندر حمدان

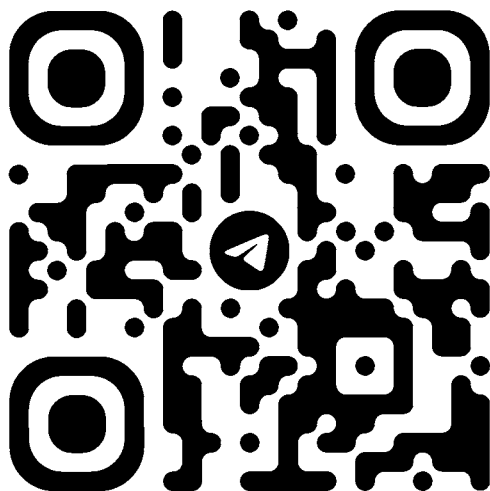
مكتبة



جائزة نوبل 2021

رواية





سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

إعجاب بالضمّت

إعجاب بالصمت (رواية)

عبدالرزاق قرنج

ترجمة: إسكندر حمدان

Admiring Silence by Abdulrazak Gurnah

Copyright © Abdulrazak Gurnah, 1996

Allright Reserved.

الطبعة الأولى 1446 / 2024

رقم الإيداع: 4726 / 1446

ISBN: 978-603-8392-55-3

المملكة العربية السعودية - الدمام

Saudi Arabia - Dammam

www.darathar.net

info@darathar.net



دار أثر للنشر والتوزيع. © 2024.

إعجاب بالضمّت

رواية

عبدالرزاق قرنح

ترجمة: إسكندر حمدان

مكتبة

t.me/soramnqraa



إلى سارة وليلى

الجزء الأول

«هو في الجزيرة معجبٌ آخر بالصّمت، دائم الانشغال به حريص؛ تحت إمرته جواسيس تأتيه بالتقارير اليومية، كان يفضل أن يغني رعاياه على أن يتحدثوا».

روبرت لويس ستيفنسون⁽¹⁾. ملك أيماما.

في بحار الجنوب (1890).

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) روبرت لويس ستيفنسون (1850-1894): كاتب بريطاني، ولد في اسكتلندا، واستقر في سنواته الأخيرة في جزر ساموا، جنوب المحيط الهادئ، حيث وافته المنية. تشمل الأعمال الرئيسية «جزيرة الكنز» (1883)، و«الحالة الغريبة للدكتور جيكيل والسيد هايد» (1886).

«في بحار الجنوب» مجموعة من المقالات كتبها ستيفنسون خلال رحلاته في المحيط الهادئ بين جزر ماركيساس، سوموا وتاهيتي، تسرد تجاربه وتضمّ عدّة صور فوتوغرافية. (المترجم)

وجدتني أضغط بشدة على هذا الألم. في البدء، حاولت إسكاته، ظاناً أنّ بإمكانه أن يختفي ويتركني لحالي في راحتي المضطربة؛ أنّه سيستمرّ لفصل آخر من فصول السنة، كشاهد صارم ومتعنّت على القلق المتربّص الملتوي خلف غلاف نظرتنا للحياة المرّضية للذّات بصلف. لكن بدلاً من أن يختفي، بل وعلى العكس تماماً، صار أوضح، أكثر تحديداً وأكثر واقعيةً، أضحى شيئاً يشغل مساحةً بداخلي، مُحاكياً الصّرصور، قائماً وحميمياً، ينضح بأبخرة ثخينة نتنة فاحت منها الوحدة والرّعب. عندما استيقظتُ في الصّباح، تحسّسته ثمّ تنهّدت بامتنان عندما شعرت به ما يزال يتحرّك بداخلي، حيّاً وبصحة جيّدة. قالت إيما إنّ عسر هضم أو شيءٌ من ذاك القبيل، غير أنّي استطعت أن أرى من خلال القلق المتفاجئ في عينيها أنّها لم تكن تعتقد ذلك. لبضعة أسابيع، أقنعّني بتجريب مجموعة متنوعة من المساحيق وأقراص الأدوية، وراحت تقرأ عن الحِميات الغذائية الخاصّة والحموضة والألياف والفيتامينات. هكذا كان دائماً تصرف إيما حيال المشاكل. تمنحها فائق اهتمامها، على الأقلّ لفترة. لم يتسنّ لنا أبداً تجريب الحِميات الخاصّة، والتي بدا بعضها جيّداً؛ لأنّي ومع كلّ صباح شعرتُ بالوحش يزداد قوّة بداخلي.

ذهبت إذن لزيارة طبيبي في النهاية. آل بي الأمر أن صرتُ خائفاً على حياتي المثيرة للشّفقة، وذهبت لزيارة طبيبي. يمكنك في إنجلترا قول هذا. طبيبي. هنا، لكلّ شخص طبيبٌ له وحدّه؛ يجلس على كرسيّ دوّار خلف مكتب كبير، تطوّقه من الجانبين المراجع الطّبية

وصينية معدّات طبيّة أنيقة. طبيبٌ تضيء مكانَ ممارسته للجراحة، بما في ذلك الزاوية المُحدّدة بالسّتائر التي تخفي طاولةَ الفحص، مصابيحٌ مائلة بزاوية مدروسة بعناية لتجنّب إرهاق عيون المرضى. أشرح هذا من أجل إخواني الأقلّ حظاً وإنّاهم، أخواتهم وأمهاتهم وخالاتهم اللّاتي يتوجّب عليهن كتم أصواتهن، والتّلق بالتّجاهات كي يبدوّن على طبيعتهن، مهمّات بشرف العائلة. أعني الفقراء الذين يعيشون في زوايا العالم الأشدّ ظلمة، أولئك الذين يتوجّب عليهم التّخيم تحت الشّمس والمطر لأيّام، تضرب الأعاصير وعواصف الرّمل بهم، متظرّين عسى أن يُبتر أحدُ أطرافهم الذي نهشته الغرغرينا، أو أن يتلقّوا جرعةً من ترياق سمّ الأفاعي، أو حتّى بعض مراهم المضادّات الحيوية لجروحهم المتقيّحة، أو فقط من أجل علاج حروق شمسٍ طفيفة. تبدو فكرة أن يكون لك طبيبك الخاصّ حلمًا مستحيلًا بالنّسبة لهم.

الأمر مختلف هنا. تُقدّم الرّعاية الصّحية من أوّل يوم في الحياة إلى آخره، باحترام ومراعاة، في عيادات فسيحة مصمّمة خصيصًا لراحة المريض ورفاهيته، وكلّ هذا بالمجان. وإن لم يكن بالمجان تمامًا، فالأكيد أنّ المرء يشعر أنّه كذلك. إنّها رفاهية صغيرة لم تُكتسب دون كفاح، لكنّها رفاهية لا تحرّم إنجلترا نفسها منها بعدَ عصور الكدح وقرون الشّقاء التي استغرقها الأمر لبناء أطلالها الجميلة. قف فقط على ضفاف نهر التايمز، أينما اتفق، بين جسر بلاكفريارز وجسر وستمنستر، وانظرْ نحو الشّمال، ثمّ انظرْ إن لم يمتلئ قلبك بالرّهبة من الجهد الذي بُذل في تشييد ذلك: الأبراج الشّاهقة والمكاتب الرّائعة، والأروقة بأقواسها المعمّدة والأديرة مترامية الأطراف والأجنحة الثّرية

والقصور الرئيسية والجسور المذهبة التي تخترقها الأضواء. بعدها، دع عينك تسرح أبعد من ذلك، وها هي ذي المصانع والمستودعات والمزارع المميكنة والمدن النموذجية والكنائس الصغيرة، والمتاحف الملأى بالغنائم التي نُهبَت من الماضي المُحطَّم لأناس آخرين، والمكتبات مترامية الأطراف بكتب جُمِعت على مدى قرون. لو قارنتَ هذه البقعة بأيٍّ من المستنقعات الآسنة التي تدَّعي صفة المدن في ظلمات العالم، وأمَعتِ النظر في الجهد المُكرس لتشييدها، فلن تبدو حينها رفاهية صغيرة كحصولك على طبيب خاصٍّ إسرافاً مفرطاً.

الأطلال واحدة من عديد الأشياء التي تصنع من إنجلترا أمة، بالإضافة إلى نوع من السَّخرية الواثقة زيادةً عن اللزوم، المنغمسة في المتعة، والتي قد تبدو وكأنها رُقيٌّ وذكاء شوارع. لأنَّ إنجلترا تلك التي نشأت على الأطلال لم تعد الآن موجودة. لا، بل إنجلترا تلك بالتحديد لم تعد الآن موجودة، اسأل أيّاً كان. إنجلترا التي كانت مضيئةً في جنح الظلام، والتي منحت العالم سكك القطارات البخارية وخطَّ غريبتش، والبنسلين، كلَّ تلك الأشياء التي اخترعها اسكتلنديون في المنفى. إنجلترا تلك التي أتت بنا قصصُها عن العالم إلى الوجود. فقد صارت الآن بريطانيا، والمملكة المتحدة، والإمبراطورية الأوروبية المقدَّسة الملوَّحة في الأفق، رغم احتجاجات البعض الصَّاخبة في مستعمرات إنجلترا السابقة، ممَّن يرون في هذا التَّحول الظَّاهري خدعةً سلسلة للإبقاء عليهم في ظلِّ العبودية التاريخية التي استمرت لأجيال. حتَّى أنَّ النَّاس يتردَّدون قليلاً، يثقلهم شعورٌ بالذَّنب عندما يقولون إنجلترا، خائفين من أن يظنَّ آخرون أنَّهم فاشيون صاخبون، قوميون عنصريون. وعندما يوضع تاريخها المظلم، تاريخ القرصنة ذاك، تغفر الأصوات

الأسكتلندية والأيرلندية بهدوء لنفسها أدوارها في تلك المغامرات
المثيرة، وتذكر أيّ مهمّة لسماع تبريرها بالحرمان الذي عانت منه هي
شخصيًا تحت كعب إنجلترا الاستعماري. الأجزاء الوحيدة من إنجلترا
التي يمكن التحدث عنها بضمير مرتاح وليبرالي هي ريفها، أو إحدى
فرقها الرياضية العديدة المتعثرة، والتي دائما ما تُعتبر مصدرًا للاشمئزاز
والاحتقار -رغم أنه يبقى من الممكن لهذا الوضع أن ينقلب إلى غرور
جنوني ومبالغة متناغمة على نبرة موحدة، إذا ما صادف أن انتصرت
يومًا انتصارًا غير متوقّع.

على أي حال، بعد كلّ تلك العصور القاسية من الإجهاد والفتن
والصراعات، وفي اللحظة التي كان فيها الناس المتعبون على أهبة
السكون ومشاهدة تراقص انعكاسات الضوء على العشب والماء،
على إرخاء أحزمة سيوفهم، والاستماع لنغمات أعذب النسائم اللطيفة،
وتذوّق ثمار جهودهم الخصبة، وفي وقت واحد، أثار حشدٌ من
الأغراب لغطًا خارج الأسوار. لكلّ حقبة وكلّ بلدة وكلّ قرية مجانينها
ومجذوموها ومنبوذوها، مفكروها الجوّالة وحكماؤها المنعزلة، لكن
كيف أمكن لحشد مثل هذا أن يصل إلى هنا؟ كيف آل بهم المطاف
جميعًا هنا؟ حسنًا، بالطبع نحن نعرف كيف حصل ذلك. لكن لماذا
لا يقنعون بالمعرفة التي كانت رحلتهم إلى أوروبا ستجلبها لا محالة
لهم، مهما كانت فظيعة الأحداث التي جعلت الرحلة ضرورية؟
الاكتفاء بالمعرفة كغاية في حدّ ذاتها! لماذا لا يمكنهم الإعجاب
بالمثال الأعلى؟ وما الضّير من القليل من الموضوعية واللامبالاة
وبعض الكرامة في مواجهة المصائب والمحن؟ ما الضّير في أن يكونوا
مثل بوكاهونتاس؟

هذا ما قيل عنها. كانت أميرة شعب الألبونكيان، ابنة ملكهم بووهاتان. تتعلّق أحداث قصّتها بعملية غرس - يالها من كلمة لطيفة- المستعمرة الإنجليزية في فرجينيا، في عهد الملكة «بيس» الطيبة وخليفتها «جيمبو ستيوارت». خُطف «جون سميث»، قائد العملية، أثناء حملة استكشافية كان يدرس فيها إمكانات مشروع تطهير عرقيّ صغير دار في ذهنه، وسُلم لبووهاتان. بعد أن تمّ الاحتفاء به وإطعامه لعدّة أيام (خَمَّن السّبب وراء ذلك)، طُلب منه أن يضع رأسه على صخرة، فيما وقف حوله عديد النبلاء ضخام البنية من الألبونكيين حاملين بأيديهم هراوات والثّقوا. رمت بوكاهونتاس بنفسها على الرّجل الإنجليزي، واضعةً رأسها فوق رأسه مُجَنّبة بذلك إيّاه حتفَه. كانت تلك لحظة ستكرّر مرارًا في حكايا المغامرة الإمبراطورية: تُغرم الأميرة الأصلية الجميلة بالفارس الأوروبي بجنون، ثمّ تخاطر بتهوّر بكلّ شيء في سبيل الحب. لكنّ بوكاهونتاس كانت هناك أولاً. سيُشبه الصّدمة اكتشافُ أنّ بوكاهونتاس لم تكن إلّا في الحادية عشرة من عمرها عندما أقدمت على ذلك، مأكرةً صغيرة مبكرة. في الوقت المناسب، انتقلت إلى المستعمرة الإنجليزية (أسرت وهي بسنّ الثامنة عشرة)، وكشفتُ طيّعةً عن الخطط الجريئة الغادرة التي يُعدّها الألبونكيون بشكل يومي لمهاجمة الإنجليز. بعدها بفترة وجيزة، عمّدت باسم ريبيكا، وزوّجت من رجل إنجليزي. ريبيكا: فلتكوني أمًّا لآلاف الملايين، واجعلي نسلك يمتلك بوابةً من يبغضهم. بيد أنّ رحلة أكثر خطورة من ذلك الانتقال الأوّل نحو الحضارة كانت بانتظارها. فقد أخذها زوجها إلى إنجلترا، حيث استُقبلت كشيءٍ أصليّ غريب مثير للفضول، ثمّ ماتت بعدها بفترة وجيزة في غرايفسند،

في مقاطعة كينت، ذلك المستنقع الرّاكد العفن الغائر في أعماق إنجلترا، بعيدًا جدًّا عن فرجينيا، مسقط رأسها. لعلّها أحسنت عملاً لو بقيت في وطنها بدل إقحام نفسها في حكايا الإمبراطورية. رغم أنّ أحدًا لم يتحدّث قطّ عن كونها اشتكت من ذلك.

لكنّ الأمر مخالفٌ مع هذا الحشد الغريب الذي يبدو غير قادر على الحفاظ على هدوئه أو كرامته، أو حتّى التّصرف بغرابة مُحرّرة من العُقد، مُتحمّمة بالذّات. يلوّحون بعقودهم الواهية، وييصقون قصصهم الحزينة، يصرخون بغضب ويصيحون. يريدون تغطية أكبر في الصّحف، يتذمّرون حين لا يقرأ أحدُ كتبهم المبالغة في الطّول، ويطالبون بوقت مُخصّص لهم للظّهور على التّلفزيون. كلّ القصص التي يروون اتهامات! الادّعاءات التي يقدّمون، المطالبات التي يقومون بها، بحقّ السّماء! لا يبدو أنّ بإمكان شيء التّحكّم فيهم أو كبّحهم، والظّاهر أنّ من المستحيل معرفة ما يقصدون. اتّضح أنّ التّاريخ عبارة عن مجموعة من الأكاذيب التي غطّت قرونًا من الشّغب القتال في جميع بقاع الكرة الأرضية - وخمّن من يأتري من المفترض بهم أن يكونوا البرابرة. تُفسّر أكثر القصص لباقةً على أنّها استعاراتٌ خبيثة تحوّلهم إلى وحوش وأشباه بشر، ومخلوقات بائسة وعبيد. حتّى اللّوم على وحشيتهم الجليّة ضدّ بعضهم البعض يُلقي على شيء آخر: العبودية، الاستعمار، المسيحية، التّعليم الأوروبي، كلّ شيء عدا جشعهم المتجاوز لكلّ سيطرة، أو عنفهم غير المكبوح، أو مراوغاتهم الفنيّة للهروب من عبء الاضطراب لفعل أيّ شيء، بخصوص أيّ شيء. القانون ليس لصالحهم، يحقرهم أرباب العمل، كما تعتمد البنوك التّمييز ضدّهم في تعاملاتها معهم. يا له من صراخ مستمرّ!

هكذا أيضًا، يقتحمون عيادات الأطباء، كاشفين عن أورامهم الفظيعة وتقرحاتهم المفتوحة. ولا يبدو على وجوه الأطباء أيُّ تعبير، مهما كان صغيراً، حين يتلمّسون تلك الجراح القديمة، بعض التورّم تحت بشرة سقيمة، بعض المصل المريض النازف المتقطّر. رأيي في الأطباء أنهم كذا: تجريبيون وآليون إلى أقصى حدٍّ؛ يتعاملون مع الجسد الذي يزفر تظلمًا، ثم يكتبون بعدها قصاصةً صغيرة لاستبعاد الألم.

ابتسم طيبي؛ شابٌّ يرتدي قميصًا أبيضًا ناصعًا، شعره بني فاتح وعينه زرقتهما قاتمة، ذلك النوع من الرجال الذي ستجده يُسير العالمَ مهما كانت الزاوية التي نظرتَ منها. تخيلته يصعد بسأم على متن سيارة الرانج-روفر خاصته بعد انتهائه من عمله، ليلقى زوجته الجميلة في منزلهما المريح الواقع في إحدى الضواحي اللطيفة. في اللحظة التي يطفئ فيها المحرك على مساره المليء بالحصى، يغمره حبّ ذريته اللذين يقفزان (فتاةٌ في الحادية عشرة وصبيٌّ في التاسعة، هكذا خمّنت)، وربما كلبٌ أشقر حنون من فصيلة الكولي. لعلّ الزوجة تنتظر طفلًا آخرًا، ثالثٌ متأخّر لتجديد حبّ الشباب الذي رمز إليه الأولان بشكل مكتمل تمامًا.

على أيّ حال، ابتسم ثم تنهّد برضا، ممدّدًا جسده البالغ طوله ستة أقدام في الكرسيّ الدوار المريح. «الآن إذن، كيف لي أن أساعدك؟» قرع على صدري وقرصه، ثم رنا إليه ونظرةً مُستغربة في عينيه تائهة، ثم لم يتمكن من منع نفسه من الضّغط على الإطار الصّغير الذي التفّ حول بطني مؤخرًا. ولست أدري ما كان يتوقّع أن يفرزه ذاك؛ صرير، شتيمة لا تجوز، تدفق من القهيق المتجانس، تقلّصٌ لا إرادي لعضل ضامر، ماذا يا ترى؟ وقفت صامتًا بينما عجن جسدي المستعر، قرص

وعصر، وقرقع عظام أصابعه على عظمي كتفي. ثم أخبرني عابسًا أن قلبي سقيم. كان بإمكانني أنا إخباره بذلك، حقًا. كان هذا بالضبط ما جئت لأخبره به، لكنني جلست في صمتٍ موقرٍ بينما تفقّد أسطره.

لا بدّ وأنّ شيئًا ما في سلوكي أو مظهري جعله يعتقد أنّي خريج المدرسة الحكومية. لم يكن الأمر فقط بسبب البساطة اللفظة الذكورية لهذا السّقيم. سألني عن نوع الأكلات التي أحبّذ، وما إذا كانت لديّ نزواتٌ خارجة عن المعهود. الوحيدون الذين أمكنني تخيلهم يستّمون الطّعام على أنّه ميول ويتحدّثون عن التّجاوزات على أنّها نزوات كانوا قراء الكوميكس، والرّجال الذين تعلّموا في المدارس الحكومية -إلا أنّ هذا يظلّ مجرد تخمين، وتجربة الحياة التي استخلص منها (هذا التّخمين) حتمًا مُقيّدةٌ ومحدودة. أخبرته أنّي أحبّ الموز الأخضر ولحم القروذ المدخّن على الإفطار. بدا مصدومًا لوهلة، فاجأه بلا شكّ كوني لم أواجه أيّ مشاكل في التّموين؛ بعدها أوّماً برأسه موافقًا. لقد تمكّن من إغاضتي. فكّرت في أن أقول أنّي، وكنزوة منّي، غالبًا ما أستمني القردة قبل وضعها على شواية الغاز - لسبب ما، كان ذلك يُحسّن من طراوة لحمها - لكنني خشيت من أن يضربني على الكتف الخطأ ويضعني بين يديّ الجن الذي يحمل ساعة توقيت في يده اليسرى وسيفًا في اليمنى، ذاك الصّاحب الضّخم الملتحي الذي سيقول: بقي لديك سنة واحدة لتعيشها، أمّا بعدها فستصبح حياتك ملكًا لي. كنت بحاجة إلى حسن نيّته. لم أرِد أن أستفزه كي لا يستبصر نبوءات خبيثة. ابتسم لي الطّبيب ابتسامة صامته، ليجعلني أدرك ربّما أنّه على علم بما يدور في ذهني، ثمّ بعبوس وتجهم، ابتعد مجدّدًا. كلّما تحدّث أكثر، جعلني أشعر بعدم الارتياح، كما لو كنت طفلًا

معتوهاً أو عجوزاً مصاباً بالرّعاش فقد السّمع والتّطوق، كما لو أنّي كنت بدائيّاً مأفوناً من السّكان الأصليين يتعذّر عليه الفهم.

أخبرني: «للأفرو-كاريبيين قلوبٌ ضعيفةٌ سهلٌ عليها الوقوع فريسةً للمرض»، قال ذلك مبتسماً ليمنحني بعض الشّجاعة في وقت عصيب كهذا، قبل أن يستطرد مضيئاً: «وهم عرضةٌ للإصابة بارتفاع ضغط الدّم، فرط الضّغط، وفقر الدّم المنجلي، والخرف، وحمى الضّنك، ومرض النّوم، السّكري، فقدان الذاكرة، الصّفراء، البلغم⁽²⁾، الكآبة والهستيريا. فعلاً، لا ينبغي أن تفاجئك هذه الحالة التي وجدت نفسك فيها. كلّ هذه أمراضٌ مستعصية لا يُعرف لها علاج بالطّبع؛ لكن لا داعي للذّعر مهما كان. لا داعي للاستسلام، لو أمكنتني استخدام استعارة مناسبة. الآن، دعنا نرى. متى كانت أوّل مرّة لاقيت فيها مشاكلًا مع قلبك؟ هل هنالك سوابق لقلوب محطّمة في تاريخ عائلتك الطّبي؟ فعلاً، لا ينبغي عليك أن تقلق. لديك فقط مشكلة طفيفة، على ما أظنّ، وليس هذا بالشّيء غير المستبعد تمامًا عند شخصٍ بمثل سنّك ومن عرقك، لكنني سأوجّهك إلى اختصاصي سوف يقوم ببعض الفحوصات التكميلية ليؤكد التشخيص. إن وجدت نفسك تعاني من التوتّر بسبب هذا، تذكر أنّ خدمات استشارية جيّدة جدًّا متوقّرة في المركز الصّحي ستساعدك على التكيّف مع الوضع الرّاهن. هل تدفع بمفردك أم أنّ لك تأمينًا خاصًّا؟ كان بإمكاننا برمجة الفحص بصورة أسرع لو كنت مشتركًا في تأمين خاص. لكن لا داعي للذّعر، هل تفهم؟»

طبعًا، بعد كلّ هذه الدّراما، لم يطاوعني قلبي لأخبره أنّي لستُ أفرو-كاريبيّا، ولا أيّ نوع من أنواع الكاريبيّ، ولا حتّى أيّ شيء يمتّ

(2) نسبة للأخلاق الأربعة (الدّم والصّفراء والسّوداء والبلغم) في مدرسة الطّب اليونانية والرّوماني من بعده.

بصلة للمحيط الأطلنطي -فأنا، حصراً، فتى من المحيط الهندي، مسلم، مسلمٌ سنّيٌ سلفيٌّ تنشئةً، وهابيٌّ بالتّرابط، كنتُ وما أزال عاجزاً عن الهروب من عواقب تلك النّشأة المبكرة. ابتلعتُ كلّ تلك الأمراض التي لا أمل لي من الشّفاء منها برزانة، وبدخلي استهزاءً بجهله المتعجرف. لم يأت على ذكر الإيدز، على سبيل المثال، المرض التي يأتي عادةً في طليعة الهجوم على جهتنا من العالم، على الأرجح لأننا على ما يبدو عاجزون على كبح أنفسنا عن إقامة علاقات مع القردة. أفترض أنّه كان بإمكانني تصحيحه، لكنني شعرت حينها وكأنّي أظهر بذلك نوعاً من التّضامن مع إخواني. لم يتمكّنوا من الخروج من مصائبهم، فلمَ الاستهزاء؟ على أيّ، لو أخبرته لفقدَ الثقة في تشخيصه، أو لعلّه باشر فركه وضربه من جديد، ثمّ طلب إجراء تحاليل دمٍ وعلاجات بالزّبئق أو أيّاً كان ما يقومون به هذه الأيام لاختبار صحّة نظريّاتهم عن الأعراق المتهاكمة. وما ظننت أنّ بإمكانني تحمّل ذلك. فقد شعرتُ جسدي بالكدمات والحمّى بما يكفي في الحالة التي كنت فيها.

هو على أيّ حال لم يكن يقصد الأفارقة-الكاريبيين. بل عني داكني البشرة، الأحباش، العبيد، البونغو-بونغو، قل-ذلك-بصوت-عال-أنّي-أسود-وأنّي-فخور، ضحايا الجوع أولئك، وضحايا الاستبداد والمرض والشّهوات غير المتحكّم فيها، والتّاريخ، وما إلى ذلك. أنت تعرف، كان يقصد عِرقي. أمكنني أن أفهم أنّه رضي عن صمتي الموقر، لأنّه أصدر نصائحه بالمحظورات والتّعليمات بابتسامة، ملوّحاً بإصبعه بين الفينة والأخرى ليحذّرني من الوقوع في فخّ الإغراءات.

لم أعرف ما إذا كنت سأخبر إيماناً بمجرد عودتها إلى المنزل، أم أنني كنت سأنتظر أن يجري الاختصاصي كل فحوصاته ويضع خاتم قبوله على قلبي المتوَعِّك. لكن قد لا يتسنى للأخصائي ما يكفي من الوقت لرؤيتي لأشهرٍ كاملة، أو قد تحدث مشكلة بالبريد عندما سيتمكّن أخيراً المستشفى من تحديد الموعد، أو قد تتعطل آلةُ أثناء الفحص الطَّبي، ممّا سيستدعي زيارةً أخرى. بإمكان أيّ شيء أن يحدث. فعلاً، عرفت أنّ عليّ إخبارها في الحين - لطالما صارحتها بكلّ شيء. وعلى أيّ حال، كيف سأفسّر لها تخليّ عن سجائري الثلاث وكؤوس الروم الثلاثة بعد عودتي إلى البيت من العمل، كما اشترط الطَّبيب؟ تلك عادةٌ أسعدُ ساعةٍ في حياتي، تتكرّر بوفاء كلّ يوم باستثناء بعض الأوقات الكارثية النادرة كالأمسيات العائلية، أو العطل. ثلاثة كؤوس من الروم، وثلاث سجائر، الواحدة تلو الأخرى، حتّى تبدو الحياة وكأنّها لا تدوم إلّا لبضع الدقائق التي تسبق تلك اللّحظة وتليها، ويتحوّل أثناءها كلّ شيء إلى قرقرة مشلولة داخل حفرةٍ سحيقة. كان على إيمان أن تتعلّم تجاهلي خلال ساعتِي، لأنّها لو خاطبَتني لابتعدت... مُتَّجِهاً نحو سلّم النجدة، نحو شرفة الزينة الضيّقة وغير الآمنة، نحو أيّ مكان، فراراً منها. أحياناً، كانت تعجز عن التّحكّم في نفسها وتتبعني بغضّ النّظر عن تجنّبي لها، منفجرةً بقصص تدور حول ما تعرّضتْ له من انتهاكات عانت منها في العمل، أو في مترو الأنفاق. بعد تخلّصها من أعبائها؛ يجعلها استياؤها من هروبي وممّا كانت تسمّيه أنايتي الجبّانة تبدأ بالتّهجّم على المسئول عن جميع مصائبها، وهكذا كانت تُختتم العديد من محادثاتنا. العدل عدل، وربما لم يكن ذلك من فراغ. فقد

تلقيت تعليمًا استعماريًا بما يكفي يجعلني أتفادى غريزيًا الخوض في مسائل كتلك.

ما الذي كان بإمكانني إخبارها به زيادةً على ما كان جليًا لها من أولى أوصاف الألم الذي سكن صدري؟ كنت أعرف أنَّ الحزن سيعلو محيّاها وأنها ستبدو كئيبة، وأنها حتى قد تبكي - ثمّ تبتهج بعدها من خلال التخطيط وبرمجة التغييرات التي ستطرأ على حياتنا كما لو كنّا على أهبة الذهاب في عطلة إلى مكان ما؛ كانت كلّ الترتيبات بين يديها، كما هي عادةً، وحيث أنا سعيدٌ بتركها. بالطبع لم يكن ذاك ما كنت أتوقع منها، أو أمل منها أن تتصرف. تخيلت أنها ستبقى صامتةً ومحطمةً للحظة، بعدها تلقني بالموّدة والدّفء، ثمّ تجرّدنا من ثيابنا وتمارس الحبّ معي بلطف لساعات. قادرةٌ هي على ذلك. أنا أعلم هذا.

لذلك، لم يكن من الممكن فعل شيء غير ذلك. كنت سأخبرها بمجرد دخولها. ما كنت قادرًا على إخفاء شيء مثل التخلي عن ثلاثة كؤوس روم وثلاث سجائر. بالطبع فكّرت في عدم التخلي عنها - وحينها ما كانت لتعلم، وما كان عليّ تقديم أيّ شرح، لكنّ ذلك بدا تصرفًا أنانيًا مشوبًا بالجبن، وخداعًا. أكره الخداع. ضف إلى ذلك، كلّما أخبرتها في وقت مبكر، كان ذلك أفضل بالنسبة لي، إذ سيتسنى لها حينها إخبار أميليا، ابتنا، والانتفاء من هذه المهمة أيضًا. عليّ أن أحدثك عن ابنتي. ليس الأمر كونها خيبة أمل بالنسبة لي، كلّ ما في الأمر أنّي ومنذ أن بلغت الرابعة عشرة، أنا أجسد خيبة أمل بالنسبة لها. يمكنني أن أتخيّل مدى حزنها عندما ستسمع عن قلبي المريض، والحيرة في نظرتها وكأنّ مرضي هذا ما هو إلّا مجرد فشل آخر لي

في تجنّبي للمتاعب. ثمّ ستسألني سؤالاً عملياً تماماً بخصوص شيء ما كان سيخطر ببالي مطلقاً فعله، مبرهنةً لي على مدى ضعف قبضتي على العالم وتحكّمي بالحياة. «هل فكّرت في زيارة مُختصّ؟» ليس تماماً، عزيزتي، لم أفكّر بالأمر بتاتاً. يا لها من فكرة ذكية! يا لك من شابة ذكية عزيزتي! لا يمكن فعلاً الاستغناء عنك هنا. دعيني أفعل هذا في الحين. وبعدها، ستنصرف بنظرة يعلوها الأسى، متممة وقاحةً مشتكية في حقّي. ولهذا كنت أحدثها بتلك الطريقة السّاخرة. إنّهُ دفاعي الوحيد - دفاعٌ ضعيف وغير مُجدٍ، بيد أنّه كلّ ما أملك. ما الذي بوسعي فعله غير ذلك؟ ضربها؟ مخاطبتها بمحبّة وودّ؟ تجاهلها؟ قبل شهرين، ابتعدتُ عنّي هكذا وقالت ملتفتةً: يمكنك أن تتنمّر عليّ قدر ما شئت، لن يمنع ذلك كونك إنساناً فاشلاً. أوّل ردّ فعل لي كان ملاحظتها - لو كنت أكثر هدوءاً، لما فعلت - لكنها كانت في كلّ الحالات أسرع منّي.

«لستُ فاشلاً»، صرختُ على الباب الموصد، «أنا مأساة، هذا العالم بليد المشاعر مليءٌ بالفوضى، وأنا واحد من الضّياع». عبر الباب، سمعتُ صوتَ اختناق وأملتُ أنّها كانت تشنق نفسها من سكّة السّتائر. يُقدّم المراهقون على فعل هذا طوال الوقت، ذلك أنّ المادّية المتفشية جعلتهم يشعرون بالقرف، أو أنّ مظهرهم البشع، أو الإحباط الجنسي جعلهم يقنطون. لم تكن هذه الظّاهرة شيئاً استثنائياً.

كان محتمّاً أن تكون هكذا، على هذه الشّاكلة - هذا ما كانته للأسف. تمنّيت الوضع خلاف ذلك - لا لسبب خاصّ، بصرف النظر عن الطّموح الجنوني الذي نضعه في ذريتنا الممجّدة - لكن لم يبد أنّها أصبحت أفضل حالاً من بقيّتنا، باستثناء كون ما يحفّز مسارها

في الأنانية المشيرة للشفقة هي وقاحةٌ حادةٌ وصاخبةٌ. حسناً، حسناً، لديها أيضاً عديدٌ من الجوانب الأخرى، على الأرجح، لكنها تخصص لي أنا بالتحديد وقاحةً مؤلمةً لا أملك لها أيّ إجابة. تحدّق إيما في أثناء نوبات الغضب هذه وكأنتي أطعمتُ أميليا العصارة الصفراوية وهي رضية، ودرّبتها وأعددتُها طيلة طفولتها التي لا تنتهي، ثم أبعدتها عن واجباتها المدرسية لأعلمها أحدث ما يُقال في الكلام البذيء المتجهّم.

حدّقت إيما في! مطالبةٌ إليّ بأن أتحمل كامل اللوم على حبي الذي لم يؤت أكله لابنة غارقة طوعاً في الثقة بالنفس الشامة في الثقافة التي أنشأتها. شابه الأمر إلقاء اللوم على الثقب في طبقة الأوزون، أو على اختفاء الغابات المطيرة أو على تسرّبات المفاعلات النووية لتسببها في كلّ المشاكل التي يعاني منها عالمنا المتعثّر المضطرب. حسناً، لم أكن أنا المسؤول عن كلّ هذا، كما لم يكن المسؤولون في فرنسا المهاجرين من شمال إفريقيا، أو الفرسان الطّاجيلك الذين يُغيرون كالبرق عبر سهول آسيا الوسطى، أو ويني مانديلا، أو مذنبٌ عابر. كيف يمكن أن يُنقل إليّ تعقّن أميليا وجيلها؟ هل أتخمتهم بالفيتامينات المخصّبة والتدليل وقصص خيال العالم وشعور بأهميّة الذات يفوق إمكانيات استيعابهم؟ هل أنا من ملأ رؤوسهم بالكبرياء العامّة الوحشية التي تصنع الفكر، أو الفنّ أو المبدأ المساوي لأكل الأحشاء النّيئة على الملأ أو الانغماس في المشاعر التّافهة والملذّات والتّمادي فيها؟ ما الدورُ الذي لعبته في إقناعهم بأنّ في الانحطاط والانحراف والفساد شيءٌ ظريف؟

كانت إيما تبتسم ساخرةً عندما أقول هكذا أشياء، ما كنتُ أفعل بين الفينة والأخرى عندما تخترقني نظرات أميليا وانفعالاتها المشحونة.

لم تمتهن السّخرية دائماً، وأحياناً كانت هي من تشنّ الهجوم بنفسها، لكن حدث ذلك في الأيّام الخوالي، ونحن بعد في ريعان الشّباب، ما يمنحنا الحقّ بما يكفي لامتدح أنفسنا بقولنا إنّ عالمنا الصّغير كان بصدد التّغيير، وبأنّه كان لكلّ ما قلناه وفكرناه، وبطريقة مبهمّة، أهميّة في الاتجاه الذي سيحدوه. مكتبة سرّ من قرأ

كانت تقول بعد إحدى نوبات الغضب التي تحلّ بي: «ها نحن ذا نعيد الكرة، وها هي ذي إنجلترا المنحلة داخل قفص الاتّهام». ثمّ تستطرد: «إنجلترا مسؤولة عن فشلنا في تربية طفلتنا هذه المرّة، وكذا عن كلّ شيء آخر في الكون. في الواقع، لست متأكّداً حتّى من أنّ الطّفلة ترتكب خطئاً ما. لا يمكن أبداً أن يكون الأمر خطأك، أو حسناً، خطأنا نحن الاثنان. حسناً، يصادف أنّها ابتكت أيضاً، وهذه مسؤوليّة لن تتمكّن أبداً من التّملص منها من خلال مضايقتي بشأن مدى فسادنا، وباقي الأشياء الأخرى كلّها. لا جدوى من تكرارها! فلقد أصبحنا جميعاً الآن على دراية بها، حتّى أنّي قد أتفق مع واحد أو اثنين منها. لكن بما أنّ كلّ هذا الطّاعون السّائد لم يصبك، أنقذها إذن. علّمها النّبل والمبادئ والتّضحية والضّحك وأيّ شيء آخر لم تعد ثقافتنا المنحطّة قادرة على خلقه وتقديمه. أنجذها». قلّ، من ذا الذي بإمكانه أن يُعيد ذكرى الحياة لرجال تمزّق أملهم؟ كثيراً ما كنت أقتبس لها هذا البيت من شعر ليوبولد سيّدาร์ سنغور أوّل ما تعرّفنا على بعضنا، وأحياناً، كانت تتذكّر الاقتباس وترمي به ضمن روتين حديثها عن إنجلترا المرمية في قفص الاتّهام. كانت هنالك أوقات استمتعت فيها تماماً بهذا المشهد. فقد سمحت لي بأن أزار معبراً عن غضبي من القمع والاضطهاد التّاريخي والثّقافي الذي وجدت نفسي مدفوناً تحته.

من وجهة نظرها، بدا لها الأمر صراخاً؛ غير أنّ هذا هو المصير الدائم والحتمي للتقد الوحشيّ لأوروبا. (قرأتُ هذا في كتاب). المآل العام لهذه المحادثات هو أنّه عادةً ما ينتهي الأمر بوصفي بالمتعصّب غير المتسامح، والجاحد التآكر للجميل، والأصولي، والمجاهد الهائج، خنزير ووغد ونذلٌ لقيط. فقط فكّر في الأمر. بعد هذه التبادلات وعكس كلّ التوقّعات، ينتهي بنا المطاف أحياناً في عريضة ليلية إلى وقت متأخر من الليل الشّغوف من التّسامح والمودة. أقسم أنّ تلك اللّحظات جعلت الصّراخ يبدو جديراً بالاهتمام.

لطالما أحببتُ أن أمعن النظر في الاختلافات - وما زلتُ - لأفكر في الطّريقة التي أفسدت بها الغطرسة مع الجشع الأسس دون تمييز، وكيف أنّ القارّة التي نعيش عليها صارت الآن تنزلق على برك من الوحل والقذارة والفساد والانحطاط، وكيف أنّ الكلية⁽³⁾ والإرهاق يحكمان علينا جميعاً بأن نعيش على الهراء، وكيف يمكن لمن أفرط في إشباعهم أن يسخروا غير مبالين من أولئك الذين هزموهم وسحقوهم. كثيراً ما كانت تصفني إيما بالنرجسي -أو تصف كتجميل ما فعلتُ على أنّه نرجسيّة تركّز على فروق طفيفة. لطالما كانت بارعة في اختيار العبارات، غير أنّها اقتبست هذه الأخيرة من مكان ما. عندما تجد عبارة صغيرة، تصقلها وتفرّكها حتّى تصبح قاسيةً ولا معة؛ ثم تحتفظ بها حالاً ما احتاجت أن تصيني بالعمى بذكائها. لا أعتقد أنّها تفعل ذلك بدافع من القسوة. كلّ ما في الأمر أنّها تحبّ الفوز في مجادلاتها، ولا تفعل دائماً دون لمسة من السّحر.

(3) الكلية: مذهب فلسفي من مبادئه مجارة الطّبيعة وعدم المبالاة بالعرف.

على أيّ حال، اعتقدت أنني كنتُ أُمْنَح هذه الاختلافات أهميّة كبرى، خاصّةً وأنّي كنت في النهاية أحاول فقط أن أقول «لا» للأحداث التي ارتفعت وتضخّمت من حولي على الرغم من رفضي الوهن لها. لن يغيّر سخطي ولا شكواي الطّريقة التي تابعت بها القصة مجراها: ففيها ستظل أمراض ونواقصي في المقدّمة دومًا، ولن تُنقص قسوتي الوقحة من تفاهاتها أو وضاعتها، وعندما ينتهي كلّ شيء، سأظلّ أعيش في فوضى مدنية كلّما أتحت لي أدنى فرصة، وسأجوع نفسي من خلال الافتقار المطلق للبصيرة، وسأحتاج إلى الأبد إلى اليد التوجيهية القويّة للسّيد إذا ما أصبح من الضّروري منعي من أن أشكّل خطرًا على نفسي أو على أيّ شخص آخر. انتظرتني، وعيناها تتقدان ذكاءً. «لأنّه، كما ترى، لا يمكنك تغيير القصة أثناء وجودك فيها، وبالتالي، فالذي يتبع بالتأكيد، دون أدنى مجال للشك، هو أنّك لن تصل إلى أيّ نتيجة بقولك «لا» كجواب عمّا يحدث فيها. القصة موجودة لأنّ عليها أن تكون، وهي تحتاجك أن تكون هذه الأشياء حتّى تتمكن من معرفة من نكون. لذلك فإنّ نفخك ونفثك لا يتعدّى كونه مجرد نوبة غضب، وما تخيلاتك السّاخطة إلّا تخيلات هدامة. نحتاجك بشدّة، ونحتاجك كما أنت». وفي هذا تكمن نرجسيتي على ما أعتقد، في رغبتني في إقحام نفسي في خطاب يُغري الذات ويمدحها، ويشترط أن تكون إنجلترا مذنبه ومنحطة، وبدلاً من ذلك، أودّي دوري بمثل الصّمت الذي أدّت به بوكاهونتاس دورها.

سألّني: «لكن ما الغاية من الإسهاب في التّفكير في هذه الأشياء على أيّ حال؟ أنت فقط تدفع نفسك للشعور بالعجز والقمع، كما لو كنت بطريفة ما الضّحية الوحيدة للتّاريخ. نتحدّث باستمرارٍ عن

الأحداث الفظيعة التي وقعت، لكن لا يبدو أن ذلك يمنع تكرار حدوثها. كل ما في الأمر أننا كنا أول من وصل إلى هناك بفضل المحرك البخاري ومحلج القطن أو أيًا كان ما استعملناه؛ لذلك تعين علينا أن نقوم نحن بالأعمال القذرة».

والتزامنا من الصّفقة هو أن نكون مستعمرين، مُستوعبين، مندمجين، متعلمين، مُغربيين، مدمجين، أن نعاني من الصّدّامات الثقافية، أن نفوز بعلم ونشيد وطنيين، أن يصيبنا الفساد، أن نتصور جوعًا وأن نتذمر من كلّ هذا. إنها صفقة جيّدة، ونؤدّي دورنا بأفضل ما أوتينا من مواهب متواضعة، لكن لا يمكننا تأديته بما يلائم بشكل كافٍ لإرضاء الوطنيين أصحاب الحساسية المفرطة الذين يشعرون بأنّ غرباء هستيريين استوطنوا بشكل خطير داخل البوابات قد نحوهم جانبًا. فازوا بالغنائم بينما غنمنا القلق، لكن لا يُعتبر حتّى هذا جيّدًا بما يكفي بالنسبة لهذه الصّفقة. لذلك، تجدهم يحرضون الوحوش من العوام بحكايات شعبية مثيرة عن مجد الماضي وقذارة الحاضر، كي يتسبّبوا بحادث أو اثنين، وربما بموت محتوم هنا وهناك؛ ثم يعودون بعدها إلى رفوف المكتبة للحصول على المزيد من حكايات الصّمود في مواجهة الظروف العنيدة وإلقاء الخطب الحماسية التي تنتهي دائما بعبارة: انتصار الغرب وتفوّقه. وفي غضون كلّ ذلك، يجد الحُبّشان صعوبة أكبر في مقاومة الإيحاء المغربي والمخزي الذي مفاده أنّهم يعيشون ثقافة تظلم، وأنّهم صاروا معتمدين اعتماداً مطلقاً على راحة جروحهم العفنة، أنّهم لا يجروّون على مواجهة حقيقة محدوديتهم، وأنّهم ليسوا بمستوى ذلك الشّيء، مهما كان، ولا أهلاً لما قد يحرّرهم من أغلال جمودهم التّاريخي.

ابْتَسَمْتُ لِكُلِّ هَذَا، مُعْتَرِفَةً بِسُخْرِيَّاتِي الْمُبَالِغِ فِيهَا، ثُمَّ أَرَدْتُ،
«لَكِنْ فَكَّرْتُ فَقَطْ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَعْطَيْنَاكُمْوَهَا، وَالَّتِي مَا كَانَ
سَيَسْتَنِي لَكُمْ الْحَصُولَ عَلَيْهَا لَوْلَانَا. عَلَى الْأَقْلَى اعْتَرَفْتُ بِذَلِكَ. قَدْ
نَكُونُ أَخَذْنَا الْحَلِيَّةَ الْغَرِيبَةَ لَعَرْضِهَا فِي الْمَتْحَفِ الْبَرِيطَانِي، لَكِنَّا لَمْ
نَأْتِ خَالِيِي الْوَفَاضِ. فَقَدْ مَنَحْنَاكُمْ مَفْهُومَ الْفَرْدِيَّةِ، وَالثَّلَاجَةِ، وَمَفْهُومَ
الزَّوْاجِ الْمَقْدَّسِ...»

«مَقْدَّسٌ!» هَذَا مَا أَحْبَبْتَهُ فِيهَا. أَوَّلَ مَا التَّقِينَا، كُنَّا نَكُنْ كَرَاهِيَّةٍ
بَغِيضَةٍ لِكُلِّ شَيْءٍ شَكَلَ جِزْءًا مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي عَشْنَاهَا. وَكَانَ الزَّوْاجُ
الْمَقْدَّسُ أَحَدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، مَعَ الْعَشَوَائِيَّاتِ، وَالْكَاتَشِبِ، وَالتَّقَانِقِ،
وَالْيَخْنَةِ الْإِيرْلَنْدِيَّةِ، وَفَطِيرَةِ الرَّاعِي. ظَنَّنَا نَفْسِنَا مَرَحِينَ، أَنْارَكِيِّينَ،
نَاقِمِينَ ثَائِرِينَ. لَكِنْ الزَّوْاجُ الْمَقْدَّسُ هَذَا لَمْ يَمَسْ أَيْضًا مُشْكَلَةً طَالَمَا
لَا زَمْتَنِي، رَغْمَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ. وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ عَلَيَّ أَنْ
أَجِدَ سَرِيعًا طَرِيقَةً لِإِخْبَارِهَا بِالْأَمْرِ؛ فَقَدْ أَضْحَى هَذَا الْوَضْعُ سَخِيفًا
بَعْضَ الشَّيْءِ.

كَانَتْ تَقُولُ: «لَوْ لَمْ يَكُنْ بِفَضْلِنَا، لَكُنْتُ الْآنَ بِصَدَدِ التَّحْضِيرِ
لَزِيْجَتِكَ الثَّالِثَةِ، مِنْ طِفْلَةٍ فِي السَّابِعَةِ عَشَرَ مِنْ عُمْرِهَا كَانَ الْأَجْدَرُ
بِهَا التَّفَكِيرِ فِي وَاجِبَاتِهَا الْمَدْرَسِيَّةِ بَدَلًا مِنَ الْقَضِيبِ الْمَتَعَبِ الْمَوْشِكِ
عَلَى تَدْمِيرِ حَيَاتِهَا. هَذَا بِالضَّبْطِ مَا كُنْتُ سَتَقْدِمُ عَلَى فَعْلِهِ فِي هَذِهِ
الْفَتْرَةِ مِنْ حَيَاتِكَ، اعْتَرَفْتُ بِذَلِكَ».

عَاجِلًا أَمْ آجِلًا، سَاجَدْنِي مُضْطَرًّا لِلْعُودَةِ إِلَى الْبَدَايَةِ كَيْ أُسَرِدَ هَذِهِ
الْقِصَّةَ كَمَا يَجِبُ. لَكِنِّي غَيْرُ قَادِرٍ بَعْدُ عَلَى تَحْدِيدِ الْبَدَايَةِ، وَلَا الْفَتْرَةِ
الَّتِي تَصْبَحُ فِيهَا بَدَايَةً بِالْمَعْنَى الصَّحِيحِ لِلْكَلِمَةِ. عِنْدَمَا أَظُنُّ أَنِّي
وَجَدْتُ مَكَانًا مُنَاسِبًا أَبْدَأُ مِنْهُ، يَغْرِينِي اِحْتِمَالُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَبْدُو أَكْثَرَ

وضوحاً إن بدأتُ بالأمر الذي قاد إليه. في ذهني، أتخذ مواقف انطلاقاً مختلفة - بعضها يعود إلى ما قبل ولادتي، وبعضها إلى ما بعد ذلك، بعضها بالأمس، وبعضها الآخر في الحاضر - لكن بعد بضع دقائق من التفكير، أسأم تماماً من كلّ واحد منها. إذ تبدوا كلّها مواقف محسوبة ومفضوحة. ثمّ أظلّ أتعثّر في هذه الغابة الكثيبة، على أمل أن أصطدم بلحظة الانعتاق والتحرّر.

إذن، وعودةً إلى الزواج المقدّس؛ المضحك في الأمر هو أنّي وإيما لم نتزوج قطّ، بل عشنا في خطيئة وسمها النكد على مدار السنوات الأخيرة الطويلة جداً. ما أعنيه أنّ النكد لم يكن صفتها الغالبة، لكن أمكن لحصّة النكد فيها أن تكون معتبرةً في بعض الأحيان، ولست متأكّداً بالمرّة من طريقة وصول الأمور إلى ما آلت إليه. أمّا بالنسبة للزواج المقدّس، فنحن لم ننجرّف ببساطة إلى حالة اللامبالاة هذه، بل أخذناه على محمل التحديّ الصّريح الذي ينظر مباشرة، العين في العين، محتقراً بوقاحة عُرف الطّبقة الوسطى هذا، واخترنا حرّية الإبحار بعيداً عنه. كانت بالأساس فكرة إيما، والتي كوّنت العديد من الأفكار حول عرف الاحترام لدى الطّبقة الوسطى والتي كانت تقصد بها - وذاك ما أخشاه - والديها. تولّد انتقادها للطّبقة على هذا النحو: ازدراءٌ حميم لاحتفالات العائلة بعيد الميلاد على سبيل المثال، أو كرهٌ لأدنى بصيص اهتمام تجاه الأوبرا التي كان والداها يعشقانها، أو ازدراءٌ ساخر لمنظومة الزواج. كانت تحبّ الموسيقى، وقد عزفت البيانو بجديّة كبيرة طوال سنوات دراستها الجامعية؛ وإلى غاية الآن، تبلغ أقصى درجات التأثير إذا ما استمعت لأداءٍ متنوّعٍ للحنها المفضّل. لكن أقصر ومضة من عرضٍ للأوبرا تجعلها تمدّ يدها بسرعة إلى زرّ

الإقفال على جهاز التحكّم، وعلى وجهها تعبيرات الاشمئزاز، تنفّوه بكلمات بذيئة ضدّ المؤسّسة الفاشية وهي تطفئ التّلفاز. كان الأمر مشابهاً فيما تعلّق بموضوع الزّواج. وقد حدوث، كما أفعل في عديد الأمور، حذو إيماء في هذه المسألة. أرادت أن تكون المتمرّدة المناهضة للبرجوازية، ولم أكن أمانع. لم أكن أمانع على أيّ شيء ممّا فعلت.

كانت تمقت النّظافة والنّظام، أو هكذا ادّعت، خاصّةً عند وجود والدتها في الجوار، ما يعني أنّ القيام بكلّ أشغال التّنظيف والتّطهير يقع حينئذ على عاتقي. في حالات غضبها منّي، لاحظت أنّ هوسي بالنّظام كان انعكاساً لطبيعتي الاستبدادية، وتأكيداً لا يمكن إنكاره على أنّي برجوازيٌّ بالفطرة. ولو واثت حوادث الزّمن والمكان، لكان من الوارد أن أجد نفسي تاجر رقيق أقف على رصيف ميناء ليفربول أنظر إلى سفينة العبيد خاصّتي وهي تنطلق إلى ساحل غينيا؛ أو واحداً من مشجعي القوّات أثناء قتلهم للمضربين في مذبحة بيتزلو⁽⁴⁾، أو أن يُقبض عليّ بالجرم المشهود وأنا أهمّ بالانقضااض بنهم ورضاً على كتف ضأن مشويّ بينما كانت مداخن معسكرات الاعتقال تطلق دخانها والرياح تعصف بها. لم تكن تقول هذا إلّا عند غضبها الشّديد منّي، أو انزعاجها من بعض الدّفاع العنيد الذي كنت أواجه به ما بدا بالنّسبة لها واضحاً لا يحتمل الجدل، أو عندما تكون ثملة، أو على الأرجح عند الحالات الثلاث؛ لكنّ الأمر يعطي فكرةً عن رأيها في عُرف احترام الطّبقة الوسطى.

(4) مجزرة جرت أحداثها في سانت بيتر فيلده، بمدينة مانشستر، بتاريخ 16 من أغسطس 1819، هجمت أثناءها قتائد الفرسان على حشود من المتظاهرين بلغ تعدادهم الثمانين ألف شخص، كانوا يطالبون بإصلاحات التّمثيل البرلماني. (المترجم).

دائمًا ما تعلق الأمر بكتف الضأن مشويّ أنغمس فيه بنوع من الرضا واللامبالاة في الوقت الذي تقع أمامي بعض الحوادث الرهيبة. بالنسبة لإيما، كان الطبق البرجوازي النموذجي بامتياز؛ في منزلة ما بين الحساء، سمك الإسمقري المدخن، لحم البقري المسلوق، لحم الخنزير وفطيرة برقوق دامسون، وُجد كتف الضأن، كما لو كان كتلة دهنية من العار والإدانة كالتي يمكن العثور عليها في أي مكان، شعار الأنانية القسرية المتعجرفة بالذات. عندما كان يظهر مقدّم بشع للأخبار على التلفاز، كنت أفكر أحيانًا - ها هو ذا أكل آخر من آكلي كتف الضأن المشوي. وإذا ما رأيت بواذر السأم عند إيما، كنت أصرخ بذلك لأجعلها تبتسم. لا أعتقد أنها رأت يومًا كتفًا من لحم الضأن - يجب عليّ أن أسألها - لكنني لن أتفاجأ إذا تبين أن صورته بالذات هي ما أومضت في ذهنها عندما اتهمتني بمضايقة أميليا في استعراض اعتباراتي للسلطة.

على أي حال، لم نتزوج أبدًا، وتصرفت والدّة إيما حيال الأمر بنحو يسهل التكهّن به بطريقة مسلية، إذ كانت تتطرق للموضوع بقلق جدي مرة في الشهر على الأقل. فيما مضى، كان الأمر يتكرّر بوتيرة أكبر، يتبعه حتمًا شجار وفوضى، ومذبحة تترتب عنه. حسنًا، كلمات قاسية وصمتٌ طويل على أي حال. لكن التقدم في السن، أو الإرهاق، أو الألفة، أشياء خففت من شرارة هذه المجابهات التي سرعان ما قلّصت إلى تلميح من المكر المهدّب من جانب والدّة إيما، ونوع من الوقاحة العرضية من جانب ابنتها. تحولت بعدها إلى مجرد طقوس للوجود، لا تبالي، مثل رقصات التزاوج لدى طيور الخرشفة، بينما كانت قبل ذلك مواجهات حاقدة مريّة تغرق في المرارة والسم.

لا أعتقد أنّ هذه كانت دائماً حال إيما مع والديها. عندما قابلتهما لأول مرة - هل وصلتُ إلى بداية سردي؟ كانت عبارة «عندما قابلتهما لأول مرة» تحاكي تماماً صوت قرع مضرب لعبة الكريكيّت الكرة المطاطية. عندما التقيت السيّد والسيدة ويلوبيي أول مرة إذن، كنت أنا وإيما طالبين جامعيين. كان السيّد ويلوبيي قد تقاعد لتوّه من حياة هادئة كمحامٍ في المدينة تخصصّ في التّعامل مع الشّركات التي تتاجر في زوايا مظلمة من العالم. أمّا السيّد ويلوبيي فقد كانت كما توقّعتُ تماماً، ولسنوات عديدة، مسؤولّة عن حياته. لم أستطع منع نفسي من الضّحك عندما قدّمتني لهما، وذلك بسبب كلّ القصص التي سبق وأن حكّتها إيما عنهما. ربّما كنت متوتراً، في حال ما قالوا أو فعلاً شيئاً قد يجعلني أشعر بالإحراج، شيئاً من شأنه أن يقلّل من قيمتي لن أكون قادراً على التّصرّف حياله بالدرجة المناسبة من اللامبالاة اللّبقة. وتلوّنتُ أوّل مقابلة لي معهما بهذه الطريقة؛ بينما تلوّنت نظرتهما الأولى لي بشكلٍ مختلف تماماً، وأعتقد أنّ مفاجأتها كانت الأكبر. بدا أنّه لم تكن لديهما أدنى فكرة... لذلك وقفتُ أضحك أمامهما فيما أدخلاني إلى البيت. كانت السيّد ويلوبيي أوّل من تعافى من الصّدمة، كعادتها؛ امرأةً طويلة القامة، في أواخر الأربعينيات حينها، متيّسة ومكتنزة لكن بطريقة حسنة -رغم أنّي ما كنتُ لأظنّ ذلك وقتئذ. لاحقاً، رأيت شيئاً من مظهرها ذاك في إيما ووجدته جذاباً.

سألت السيّد ويلوبيي: «ألم يكن الجوّ ساحراً هذه الأيام الأخيرة؟ أمل أن يستمرّ ذلك، رغم أنّي لا أتوقّع أن يحدث. هل تعيش في إنجلترا منذ فترة طويلة؟»

منذ ما يكفي من الوقت لمعرفة كيفية الرد على هذا النوع من الدردشات الحميمة. اهْمِسْ بصوت مسموع، ابْتَسِمْ ابتسامةً عريضة، ولا تنبس ببنت شفة. على العموم، لم يدل لي الأمر وقتئذ فلسفةً حقيرة، وجاءت مناسباتٌ عديدة لمتُّ فيها نفسي لفشلي في العيش وفقًا لها بشتات أكبر. شعرتُ بإيما تراقبني، منتظرةً أن أتعرض للإهانة من أي شيء. وقد كنتُ على أتم الاستعداد لذلك، توقعتُ التعرض للإهانة من شيء قد يقوله والداها أو يلّمحان له، أو يخفيانه تحت قناع شيء عرضي. أحسن السيد ويلوبي التصرف في الحال، بشكل طبيعي يكاد يكون لطفًا، محدقًا بي بشدة، متشوقًا وفضوليًا لسماع رأيي. «أفترض أنه يوجد الآلاف من الزوج في الجامعات هذه الأيام. لم يكن الأمر هكذا في زمني. باستثناء ابن المهرجا الغريب ربّما، أو زعيم شاب. كان البقية منعزلين جدًّا في الخلفية تمامًا، أعتقد. أمّا الآن، فقد صرتُ تراهم في كل مكان».

سمعتُ إيما تنتهد منتصرة. أبي العجوز الطيب، يجب دائمًا الوثوق من أنه سينطق لا محالة قذارته المتوقعة. كانت بُنية السيد ويلوبي معتدلة: متوسط الطول، لا نحيفًا ولا سمينًا، يميل للصّلح قليلًا لكنّه ليس أصلعًا بشكل يلفت النظر. ارتدى سروالًا صوفيًا، كارديجان وربطة عنق؛ وبهذا الزي، بدا وكأنّه يسرق بعض لحظات الراحة هروبًا من التزامات عامة أكثر أهمية. ارتدى نظارة سميكة إطارها نظرت خلف زجاجها عيناه في موضوعها بالقليل جدًّا من روح الفكاهة أو الوعي بالذات. اهْمِسْ بصوت مسموع، ابْتَسِمْ ابتسامة عريضة، ولا تنبس ببنت شفة! جعل همسي عيني السيد ويلوبي تتألقان بإشراق أكبر، وكأنّي قلتُ شيئًا بارعًا. أو لعلّه لم يكن إلّا يتجاوب مع ابتسامتي.

لكنني أستطيع القول من رؤية فاه إيما المفتوح إنها لم تر أي شيء يدعوها للابتسام. بعد هكذا استفزاز متعمّد، أيمكنني أن أفعل شيئاً غير الثرثرة والابتسام المتكلّف؟ لكنّ تلك كانت أولى أيّامنا، وكنا حديثي العهد ببعضنا، وقد أعربت عن اشمئزازها من سلوكي الضعيف وغير اللطيف بنظرات طويلة غير مصدّقة لما يجري أمامها، بدلاً من بعض العبارات المصقولة جيّداً والمتقاة بعناية. عليك أن تتذكّر أنّ ثورة السّود في ذلك الوقت كانت وشيكة، حين كانت الفرصة ستسبح للجميع أن يكونوا ضحايا في نهاية المطاف. كانت إيما قد تجنّدت بالفعل، وفي تصرفها شيءٌ من مناضلي حركة تركيا الفتاة⁽⁵⁾؛ مستعدّة تماماً للتضحية بوالديها في سبيل القضية.

رأيتُ ما يمكنني الآن الجزم أنّها نظرةٌ عقابية تظهر في عينيها، هزّت حاجبيها قليلاً في إيماءة ذلك الذي لا يستوعب ما يجري من حوله. بعدها، وبالرّغم من أنّها ابتسمت قليلاً قبل أن تفعل، تركتني للسيد ويلوبي ووجّهت كامل انتباهها لوالدتها. إذا كنت تحبّه كلّ هذا القدر فيمكنك الاحتفاظ به. بعد فترة بدت وكأنّها نسيت أمري، أو على الأقلّ نسيت خيبة أملها فيّ، وشاهدتها بحسدٍ تتجاذب أطراف الحديث مع والدتها؛ رأيتهما صاحكتين، تتلامسان، توبّخ إحداهما الأخرى على بعض أخطائهما الطّفيفة في حقّ إحداهما للأخرى، واضعتين خططاً مبهمة من أجل الخروج للتّبضع وشراء حاويات تبيل فضية، تتبادلان الوعود بالذهاب إلى سوق بورتوبيلو ذات يوم أحد. غمرني لحظتها حنينٌ وشوق.

(5) حركة تركيا الفتاة أو الشباب الأتراك. (المترجم).

حدّق في السيّد ويلوبي لبضع دقائق، ملقياً بين لحظات تقييم صامت بسؤال أو ملاحظة فيما تمتّمت وابتسمتُ ببطولة. «ماذا تدرس؟ هل ستمكّن من استخدام دراستك في أيّ شيء لاحقاً؟ هل تتحمّل الحكومة البريطانية تكاليف دراستك؟ أفترض أننا منحنا الاستقلال لبلدك. هل تعتقد أنّ الوقت كان مبكراً جداً على ذلك؟ ما هو الوضع السياسي هناك؟» في نهاية المطاف، أخبرته أن الحكومة هناك شرّعت أخيراً أكل لحوم البشر. لا بدّ وأنه اعتقد أنّي قلت الحشيش⁽⁶⁾، لأنّه سألني ما إذا كنتُ أعتقد أنّ من الضروريّ تشريعه هنا أيضاً. فقد بدا الأمر وكأنّ ذلك من رأي الجميع، كما لو أنّه لم يكن هنالك ما يكفي من السلوك المنحرف المستفحل بالفعل. أخبرته أيضاً أن الرّئيس مصابٌ بالزّهري، وأنّ إصابته بالفصام أكيدة؛ وأنّه يوشك أن يكون أعمى كلياً وسكراناً بحلول الثّالثة بعد ظهر كلّ يوم. وقد عرف الجميع ذلك وتجنّبوا الاتّصال به بعد تلك السّاعة لأنّ من الممكن لسلوكه أن يصبح تعسّفيّاً بشكل خطير وهو تحت تأثير الكحول. أخبرته أنّ جميع الأسرّة في منزل والدي مسبوكّة من الذهب الخالص، وأنّ الخدم، وحتىّ بلوغي سنّ السّادسة عشرة، كانوا يحمّونني بالحليب قبل أن يشطفونني بماء جوز الهند كلّ صباح.

ابتسم فجأةً وأخبرني عن السّنة التي قضّاها شابّاً في فرنسا. غير أنّ مكوثه ذاك لم يحسّن من فرنسيّته شيئاً. عاش هناك في الرّيف، حيث أقام عند عائلة فلاّحين واشتغل لدى وكيل عقارات كان صديقاً لوالده. كان الجوّ دافئاً معظم الوقت، غير أنّ الشّتاء مرّ هادئاً وطويلاً. تحدّثنا

(6) أكل لحوم البشر بالإنجليزية هو الكانيباليسم، والحشيش هو الكانابيس، وبين الكلمتين بعض التشابه.

في هذا مطولاً قبل أن يعود للهجوم، بعد أن نظر إليّ بنظرة مشعة قبل أن يتكلّم. «كان ثمة شابٌّ في المدرسة، أسودٌ مثلك. عداءٌ رائع، رغم أنّه كان محمّدي الديانة. لا أستطيع تذكّر موطنه، مكانٌ ما من أشدّ مناطق أفريقيا سواداً. كان أسوداً حالك السّواد، غير أنّه كان عداءً رائعاً. خلُق ليكون رياضياً بالفطرة، رجلٌ من قوى الطّبيعة». لذلك أخبرته أنّي كنت أستيقظ على الرّابعة صباحاً لأحلب الأبقار، وأزيل الأعشاب الضّارة، وأساعد في الحصاد، ثم أعدو مسافة ستّة أميال إلى المدرسة على الرّيق كلّ يوم. إلى أن زار ذات ظهيرة مسؤولٌ أوروبي من وزارة التّعليم مدرستنا، وكان مفتشاً عامّاً. وقف أمام فصلنا وتحدّث لبضع دقائق، ثمّ طرح عليّ فجأة سؤالاً، لكنني كنتُ أضعف من أن أجيب بسبب الجوع.

أراد السّيد ويلوبي أن يعرف، وقد انحنى نحوي باهتمام؛ وجهه يقط، وعينه تتوهّجان انتباه: «ماذا كان السّؤال؟»

أجبت: «أراد أن يعرف من كان أوّل أوروبيّ في التّاريخ يأكل موزة».

أوما السّيد ويلوبي بحركة طفيفة، موافقاً. «سؤالٌ وجيه. من كان يا تُرى؟»

حسنًا، عادةً كنت أعرف الإجابة على هذا السّؤال جيّداً - وفي تلك اللّحظة نظرتُ باهتمام إلى السّيد ويلوبي: هل كان يعرف الإجابة على هذا السّؤال بالغ الأهميّة من المنظور التّاريخي؟ ألم تكن إيماءته موافقةً شديدة البساطة؟ - لكنني لم أملك في ظهيرة ذلك اليوم الطّاقة لقول ذلك بصوت عالٍ. بطريقة ما، بدا أنّ المسؤول الأوروبي عرف

هذا، وفهم الحالة التي كنت فيها، فقرّب أذنه ليلتقط همس ردّي. الإسكندر الأكبر، قلت بصوت أجشّ. بعد هذه الحادثة، تبنّاني وأعطاني وجبات وفيرة لأتناولها كلّ يوم، ودراجةً مستعملةً حتّى لا أضطر للركض ستّة أميال كلّ صباح، كما دَفَع كلّ رسوم المدرسة، والتي بلغت وقتها 32 شلنًا للفصل الدّراسي. فكّر السيّد ويلوبي في الأمر هنيهة، وعندما تحدّث، اغرورقت عيناه بالمشاعر الثّقيلة. «هذا بالضبط ما جعل كلّ شيء يستحقّ العناء». ثمّ سأل: «هل كان من العدل التّخلي عن الإمبراطورية؟ هل كان ذلك عادلاً بالنّسبة لهم؟». عرفتُ من كان يقصد بهم. وأثناء كلّ هذا، تمكّنتُ مسترقّاً النّظر من رؤية إيما ووالدتها تضحكان وترويان القصص لبعضهما، بينما كان عليّ أن أجلس شديد التّيقّظ في حال شنّ عليّ السيّد ويلوبي هجوماً من الجوانب، أو غارةً حرب عصابات متسلّلة.

لم أكن أتخيّل العاطفة العفوية التي رأيتُ بينهما تلك المرة الأولى، لأنّي رأيتها من جديد في مناسبات أخرى. غير أنّ السيّد ويلوبي وفي كلّ الأحوال لم تكن راضيةً بشأني. لم يكن الأمر يتعلّق بي شخصياً، لكنّها أرادت لابنتها ما هو أفضل، علاقةً طبيعيّةً أكثر، ومستقبلاً آمناً. لاحقاً، عندما أخبرتها إيما أنّنا قرّرنا العيش معاً، نظرتُ إلى يديها مطوّلاً في صمت ثمّ قالت: «سأذهب لأعدّ بعض الشاي». عادت بعد بضع دقائق تحمل الشاي والبسكويت، جلست بحذر، وبالنّظرة والصّوت المدروسين لشخص يبذل ما في وسعه ليبقى متعلّقاً، سألت إيما: «ألسّت صغيرةً جدّاً على هذا؟» رأيتُ ما كلّفها هذا من جهدٍ كي لا تنفجر أو تصرخ، ولا تنهض وترميني بإبريق الشاي والماء بداخله يغلي قبل أن تطردني من منزلها وسط اللّعنات والشّتائم والاتّهامات.

«هل تلقيت أخباراً من عائلتك مؤخراً؟» سألتني وهي تقدّم لي كأس شاي. وكما كانت عاداتها معي، لم تنتظر إجابتي، بل تابعت تقول: «أتمنى أن يكون الجميع بخير. هل ستأخذها معك إلى هناك؟ أتمنى ألا تفعل. عليك أن تتأكد من أن كلّ هذا لا يتعارض مع دراستك. ففي الأخير، هذا ما أنت هنا لأجله».

لم تتذبذب ابتسامتها القاسية الممارية ولو لحظة؛ إذا حدث شيء، فذاك أنها أصبحت ابتسامة أكثر تأكيداً بينما زادت ثقتها في دورها الذي لعبته. لم تنطق ولا كلمة بخصوص ما جعلها في الحقيقة غير راضية عن إضافة العضو الجديد (غير الرسمي) للعائلة. ولأنها كانت تنافق، قبلت إيما تحديها وواجهتها في كلّ اعتراضاتها نقطة بنقطة، حتّى تلك التي لم تطرحها. لا، أنا لست صغيرة جداً. كنت قد أصبحت بالفعل أمّاً عندما كنت في مثل سنّي. بالطبع لن يتعارض ذلك مع دراساتها. لم كلّ هذا التّضخيم؟ ألاّ أنه أسود؟ بخصوص هذا السؤال الأخير، بدت السيدة ويلوبي مجروحة في كرامتها، ورفضت حطّ النقاش إلى ذلك المستوى الدّنيء. انظري من سينضمّ للعشاء. كان الضّرر قد حدث بالفعل حينها، ولست متأكّداً من أنّي لعبت الدور الرئيس في التّسبب بوقوعه. على أيّ حال، كانت الأمّ وابنتها في ذلك الوقت قد استقرّتا في روتين استنزاف وكمائن يحدث أن ينفجر أحياناً في شكل حرب معلنة. عندما حملت إيما (حماً لم يُخطّط له)، شنت السيدة ويلوبي هجوماً شاملاً جنّدت في صفوفه السيّد ويلوبي، وعُرف الاحترام لدى الطّبقة الوسطى، والمستقبل، ورفاهية الطّفل الذي لم يولد بعد... باختصار، حصرت الخيار بين الزّواج المقدّس، التّبني أو الإجهاض. أمّا إيما فقد قاومت من جهتها بكلّ سرور وحماسة، صادة هجوماً تلو الآخر بثقة متعطرسة.

طالبت السيدة ويلوبي: «لكن فكري في الطفل. ماذا سيكون رأيه بنفسه؟ لن يكون لا هذا ولا ذاك. ثم فكري فيما سيكون عليه الوضع أن يولد لثنائي غير متزوجين».

«أنا أفكر في الطفل! هذا بالضبط ما أفعله». صرّحت إيما. «لا أريدها أن تشعر بالاضطهاد من كل هواجسك عن الطبقة والقبل والقال والأجانب».

ما حدث كان فظيلاً. راقبني السيد ويلوبي بعينين قلقتين، وهو يلقي ناحيتي بنظرة خاطفة بين الحين والآخر مندهشاً عند وقوع إحدى الفظائع. ولسان حال نظرتة يقول: هل أنت فعلاً مسؤولٌ عن كل هذا؟ عندما كان يُطلب منه التدخل، كان يستغرق وقتاً معتبراً للتفكير في أمر حكيم ومهدئ لدرجة أنّ المرأتين كانتا لا تلبثان تعودان لحربهما متجاهلتين وجوده. اعتقد أنّه فضل أن تحدث الأمور بتلك الطريقة. نادراً ما كان يتم استدعائي للإدلاء بأي رأي في ساحة المعركة حامية الوطيس، رغم أن إيما كانت تنظر إليّ أحياناً بعين الاتهام جاعلةً إيائي أشعر بأنّي كنتُ ربّما قادراً على إبداء المزيد من الدّعم لولا طبيعتي الخاضعة. لقد طُلب منّي أنا والسيد ويلوبي أن نكون حاضرين كاحتياطيّ استراتيجي يُنشر في حالة استنفار قصوى. في النهاية، استدعي السيد ويلوبي لإتمام المهمة حين اتّضح أنّ إيما متشبّثة بموقفها. ودعاني إلى الحانة.

قال بعد أن ارتشف من بيرته: «إنّها مقرفة»؛ عندها تذوّقتُ بيرتي واضطّرت لموافقته الرأي. كنت في تلك الفترة قد ألّفتُ السيد ويلوبي. فقد صرنا نتقابل كثيراً منذ أن التقينا في العام السّابق. سألني وهو ينظر للائحة الطّعام المكتوبة بخطّ اليد على السبورة: «هل تريدُ

القليل من يخنة الكبد؟» كانت باقي الأطباق عبارة عن خليط مشاوي، ونفائق، فاصوليا أو معكرونة بالجبن. هذا ما كان عليه طعام الحانات في تلك الأيام، حتّى في بلاكهيث. «اعتدتُ على أكل يخنة الكبد في المدرسة. في كينت. اعتادَ الجميعُ على طلب طبق ثانٍ منها، ما عدا لوسُن. كيتي لوسُن». أو مأتُ برأسي، وأوما السّيد ويلوبي برأسه ردًّا على ذلك قبل أن يغمض عينيه لهنيهة خاطفة. نعم، كنّا نعرف لوسُن. عميلٌ غريب، متعجرفٌ، شديد الثّقة في نفسه. جعلت ذكرى كيتي لوسُن وجه السّيد ويلوبي كئيبيًا، أو ربّما كانت فكرة أكل يخنة الكبد طوال كلّ تلك السّنوات البعيدة هي ما أصابه بالكآبة. لذلك أنشأتُ أحدثه عن الحليب المجّاني الذي قدّموه لنا في المدرسة، فأومضت في الحين عيناه ببريقٍ كالمعتاد عند احتمالية وجود بعض الحكايات عن الإمبراطورية العتيّدة. بمجرد وصولنا إلى المدرسة، كنّا نصطَفّ تحت ظلال شجرة المانجو العملاقة الوارفة التي توسّطت الفناء، وننشّد الأناشيد الدّينية في الوقت الذي كان فيه الحليب يسخن في القدور. سار المعلمون بين صفوفنا، وهم ينطقون بتحيّات هادئة، أو كلمة استحسان خافتة لمن يستحقّها. كان الحليب منكّهًا بحبّ الهيل والقرفة، مُسكرًا بسخاء. ضاهت أوّل شربة منه ارتشاف الرّحيق. بعدها، كان يُعرَض علينا اختيار فاكهة من فواكه الموسم: برتقال، بطيخ، مانجو، جاكية، أو ليتشي، وبالطّبع الموز؛ قبل أن نتوجّه إلى فصولنا الدّراسية المضّاءة جيّدًا لكسر أغلال الجهل والمرض التي أبقتنا في الظّلام لفترة طويلة، والتي جاءت الإمبراطورية لتنقذنا منها. هذا ما مثّله المدرسة بالنّسبة لنا. هزّ السّيد ويلوبي رأسه مندهشًا لجمال كلّ ذلك، وارتشف من جعبته لإخفاء الإثارة التي اعترته. جلسَ

ونظره للأسفل، ويده متشبّثة بكأسه، يهزّ رأسه بين الفينة والأخرى كلّما استحضر فداحة المأساة. قال: «لم يكن من الإنصاف التّخلي عنهم هكذا؛ الأمر رهيب. فكّر في كل الأشياء الفظيعة التي ارتكبوها في حقّ بعضهم البعض منذ مغادرتنا».

سألت: «هل تعتقد أنّ علينا العودة إذن؟» ورأيتُ عيني السيّد ويلوبي تتّسعان باهتمام مذهول.

أجاب بعد لحظة: «لم يعد الأمر ممكنًا»، فمه يرسم خطأً مريرًا رفيعًا، ونظرة عينيه تطفو قريبًا. «أصبح الوضع مقلقًا. دعنا نطلب بعضًا من يخنة الكبد».

بدا الطّبق مقلقًا عندما قدّموه بدوره، كتلاً سخية داكنة صلبة من القرف تتضمّخ في بركة ضحلة من المرق البني. بعد أن نظر إلى اليخنة لعدة ثوانٍ من الصّمت الثّقيل، قال السيّد ويلوبي: «يميل وجهي لأن يكون مستديرًا، لكنّه ليس بيضاويًا». انتظرت، لكن عندما لم يضيف المزيد، أومأتُ بتعاطف. لا بدّ وأنّه كان شيئًا قاله كيّتي لوسن. مهما كانت المهمة التي أرسل السيّد ويلوبي لإنجازها ضمن حرب الزّواج المقدّس، فهو لم ينجزها قطّ، أو إن فعل، فقد كان ذلك بطريقة خفية، وبمهارة تفوق مستوى إدراكي. كانت هناك لحظة اعتقدتُ فيها أنّنا وصلنا إلى صلب الموضوع. عندما نهضنا لمغادرة الحانة، قال: «سامبو⁽⁷⁾». بدا الأمر وكأنّه تغييرٌ جذري في التكتيكات، محاولته استقصائي من خلال إهانة عنصرية، لكنني لم أكن متأكدًا ممّا إذا كان السيّد ويلوبي يملك موهبةً هكذا مناورات فظّة. أومضت عيناه من جديد قبل أن يستطرد بالقول: «الزّنجي في المدرسة. كنّا نطلق

(7) تسمية عنصرية، مثل مولاتو، زنجي، هجين.

عليه اسم سامبو. كنتُ أعلم أنني سأستحضر اسمه. عداءٌ رائع. أسود
حالك السّواد. أتمنى أنّه قد صار الآن رئيسًا مدى الحياة في بلاده. ما
رأي أهلك هناك في كلّ هذا؟ إنها فوضى باتم معنى الكلمة. لكنّه لم
يبدُ مهتمًا برديّ، فتمتمتُ بصوت مسموع، وابتسمتُ ابتسامةً مشرقةً
ولم أنبس بينت شفة.

آه السيّد ويلوبي العجوز الطيّب. لا بدّ وأنّه فكّر في الأمر بنفسه.
ما رأي أهلك هناك في كلّ هذا؟ بينما بدت السيّدة عالقةً جدًّا في
وطيس الحرب لدرجة لا تسمح لها بأن تُفكّر في الأمر إطلاقًا. أمّا
إيما فقد سألتُ بالطبع، وأخبرتها أنّه كان محتومًا عليهم أن يُحدثوا
جلبةً في البداية. واختارت أن تُقنعها هذه الإجابة. أقول اختارت لأنّ
ترددًا مرّ خاطفًا في عينيها حينئذ، لكن لعلّها اعتقدت أننا سنخوض
في ذلك لاحقًا.

ثمّ علّق كلّ شيء مع وصول أميليا، حين تركنا جميعًا كلّ ما كنّا
نفعل لنلتفت حول الطّفلة وهي تتمايل وتصرخ. صرخت كثيرًا، كثيرًا
لدرجة أنني شعرتُ أحيانًا أنّ اشمئزازها من إحضارها إلى هذا العالم
كان مأساة. قال الجميع إنّ الأمر طبيعي، أو إنّها كانت تعاني من
المغص أو أيّا كان، لكن لم يسعني إلّا أن أشعر بأنّها كانت تغلي من
الشفقة على الذات. بالطبع لم ينفعها ذلك في شيء. فقد أتت إلى
الدّنيا، وكانت مرغوبًا فيها، محبوبة، دون أدنى سانحة للتّملص. كلّما
أتيحت لها الفرصة، تشبّثت بشدي والدتها كما لو أنّها تشبّثت بالحرية
نفسها. الحياة هكذا، تشبّثت عبثي بالأشياء التي تبقينا أسرى.

شكّلتُ لحظةً وصولها ذروةً أسابيع من التّحضير والقلق، متقطّعةً
ومتذبذبةً في البداية، ما انفكت تكبر حتّى احتوت اهتمامنا بالكامل.

فقد كانت ثمة قطع أثاث جديدة يجب اقتنائها؛ أفرشة، سطلٌ للحفّاضات، وأغاني أطفال يجب حفظها سريعاً، أسماءٌ للعب بها، وتحاليلٌ طبية عن حالة الأم الحامل لمواكبة الوضع يجب إجراؤها، اقتراب فترة الامتناع عن ممارسة الجنس للتفكير فيها... وما إلى ذلك. حجمُ إيما المثير للقلق منحها، بصرف النظر عن أيّ شيء آخر، حقّ النقض في كلّ قرار، لكن على أيّ حال، عند سماعها تتحدّث، لا يمكن أبداً الاعتقاد أنّ ذلك كان حملها الأوّل. فقد أعدّتها سنواتٌ من التعليم والتدريب لهذه اللّحظة بالذات. إذ عرّفت لسنوات أنّها ستنجب طفلة سيكون اسمها إمّا أميليا أو بياتريس (وأحياناً كان الاسم بياتريكس). وضعت أطروحتها جانباً، وبدلاً من لوكاش، هايدجر وبنجامن - وكان هذا قبل أن يهيمن كلّ من فوكو ودريدا على خطابها الفلسفي - صار علينا الاستماع لنصوص د. سبوك. لذلك، كان من الطّبيعي جدّاً أن تتمحور حياتنا حصراً على مجيء الطّفل عندما حانت اللّحظة الحرجة. وقد أعطى اكتمالها الجريء وتحركها المدهش - إذ توقّعتُ بطريقةٍ ما أن تظلّ ساكنةً - خاتمةً إعجازية للجزء السّردى. السيّد والسّيّدة ويلوبي، وأنا، مع صديقة لإيما من الجامعة تدعى جودي، تناوبنا جميعنا على السّير في أوقاتٍ مختلفة من اليوم للمشاركة في الدراما. سررتُ بالاحترام الذي منحني إيّاه الممرضات عند ذهابي للزيارة، وامثلتُ مبتسماً عندما شجّعني على الجلوس على سرير إيما والإمساك بيديها، بل وحتىّ أنّي كنتُ سعيداً بما يكفي ليجعلني ذلك أصدر أصواتاً صبيانية يبدو أنّهن اعتقدن أنّها ضروريةٌ لصحة الطّفلة وسعادتها. عليّ الاعتراف أنّ أميليا بدت وكأنها تحبّ السلوكيات الغريبة

السَّخِيفَةُ الَّتِي أَدَيْتِ، بَلْ وَأَنْهَا تَسْتَقْطِعُ حَتَّى وَقْتًا مِنْ التَّزَامِهَا الْقِتَالِي
ضِدَّ الوجود لِتُرَكَلَ أَخِيرًا الْهَوَاءُ بِقَدَمِهَا وَتَصْرُخُ تَمَامًا كَمَا كَانَ مِنَ
الْمَفْتَرَضِ لَهَا أَنْ تَفْعَلَ.

كَانَتْ إِيْمَا نَفْسَهَا مُتْسَامِحَةً تَغْضُّ الطَّرْفَ بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ عَنْ كُلِّ
شَيْءٍ، مُهْتَمَّةٌ بِالْحَدِيثِ عَنْ الْوُجُوبَاتِ الَّتِي كُنْتَ أَعْدَدَهَا لِنَفْسِي فِي
غِيَابِهَا، وَالْأَصْدِقَاءِ الْجَدِّدِ الَّذِينَ تَعَرَّفْتَ عَلَيْهِمْ فِي الْجَنَاحِ، أَكْثَرَ مِنْ
اهْتِمَامِهَا بِالْحَدِيثِ عَنْ الْمُحَنِّ وَالْآلَامِ الَّتِي كَابَدَهَا جَسَدُهَا مُؤَخَّرًا.
وَكُونَهَا أَنْجَزَتْ كُلَّ هَذَا جَعَلَهَا تَبْدُو أَكْثَرَ بَطُولِيَّةً. كُنْتُ حَاضِرًا بِالطَّبْعِ،
مَيِّتًا مِنَ الْجُوعِ وَأَكَادُ أَمُوتُ لِأَتَمَكَّنَ مِنَ التَّبُولِ فِيمَا احْمَرَّتْ إِيْمَا مِنْ
مُجْهُودَاتِ وَأَنْيْنِ الطَّلُقِ، بَيْنَمَا دَخَلَتْ الْقَابِلَاتِ وَخَرَجْنَ بِمَا بَدَأَ لِي
قَسْوَةً شَامِتَةً. وَتَخَيَّلْتُهُنَّ يَقْلُنَ لَهَا: «لَقَدْ فَعَلْتُ هَذَا بِنَفْسِكَ، تَوَقَّفِي عَنْ
الْأَنْيْنِ إِذْنًا».

وَهَكَذَا انْضَمَمْتُ إِلَى الضَّجَّةِ الَّتِي أَحْدَثْنَاهَا بِشَأْنِ الْأُمِّ وَالطِّفْلَةِ،
وَشَعَرْتُ بِأَنْنِي مُكَافَأٌ وَفَخُورٌ بِجُھُودِنَا الْمُتَجَابِهَةِ، لَكِنْ عَلَيَّ الْاعْتِرَافُ
أَنْنِي بَدَأْتُ أَرَى جَانِبًا آخَرَ مِنْ إِنْجَازِنَا عِنْدَ عَوْدَتِنَا إِلَى شِقَّتِنَا. فِي الْبَدءِ،
لَمْ تَبْدِ إِيْمَا مُتْسَامِحَةً جَدًّا عِنْدَمَا أَصْبَحْتُ الْوَحِيدَ فِي الْجَوَارِ. بَدَأَ أَنَّ
الْأَشْيَاءَ الَّتِي قَلْتُ صَارَتْ تَزْعَجُهَا. عِنْدَمَا تَحَقَّقْتُ مِنْ أَزْمَةٍ كَانَتْ
تَمَرَّبُهَا مَعَ الطِّفْلَةِ فِي كِتَابِ د. سَبُوكْ وَقَرَأْتُ لَهَا مَا كُتِبَ فِيهِ، رَفَعْتُ
حَاجِبِيهَا مُكَذِّبَةً ثُمَّ تَابَعْتُ مَا كَانَتْ مُنْشَغَلَةً بِهِ وَكَأَنَّيْ لَمْ أَتَحَدَّثْ. كَانَتْ
تَكْتَفِي بِالِابْتِسَامِ لِي إِذَا مَا تَدَحَّرَجْتُ أَرْضًا مُحَدِّثًا أَصْوَاتًا سَخِيفَةً مِثْلَ
جُرُو يَلْعَبُ. أَوْ اسْتَلْقَيْتُ بِجَانِبِهَا حِينَ تَنَامُ الطِّفْلَةُ أَخِيرًا وَدَاعَبْتُ
الْأَجْزَاءَ الَّتِي سَمَحْتُ لِي بِمَدَاعِبَتِهَا مِنْ جَسَدِهَا.

بدا أنّ أميليا أحبّت الشّقة. امتدّ نطاق ضوضائها، بل وحتى أنّها كانت تصمت أحياناً، رغم أنّ صراخاً مفزوعاً ظلّ يتمزّق من خلالها على مدى فترات متكرّرة.

استحوذت الطّفلة على اهتمام إيما ووالدتها اللّتين انغمستا كليّاً، وتعاملتا معها باللفة طبيعيّة بدت دون عناء. راقبتها، داعبتها، وخمّنتا في نقاشات أسباب عبوسها وصراخها وقرقرة بطنها السّاخرة. بدت إيما وكأنّها تنسى نفسها تماماً خلال تلك الأوقات، بطريقة نادرًا ما فعلتها وأنا بالجوار - مثلما كنت أتحرج وأبدو سخيّاً. لعلّها كانت خائفة من أن أحقر سعادتها، وأسخر منها لاستسلامها بسهولة للغريزة. كانت تلك إحدى أفكارها، أنّ النّساء يُسحقن تحت وطأة مشاعرهنّ الأرقّ، مشاعرٌ حُكِمَ عليهنّ اجتماعيًا أن يعتبرنّها جزءًا جوهريًا من تكوين طبيعتهنّ. يَدْرَبُنّ للتّضحية بأنفسهنّ، كانت لتقول، ولن تجد النّساء تحقيق الذات إلّا عندما يصبحن خادِمات لأطفالهنّ. ربّما سمحت لها المتعة التي تشعر بها كأمّ أن تنحّي جانبًا هذه المخاوف. عندما كان يُستدعى السيّد ويلوبي للانضمام إلى الحفلة، كان يحوم بشكلٍ جميل على حوافّ ضوء النّار، مُحدّثًا أصواتًا حكيمةً تبعث على الاطمئنان، كاشفًا عن أسنانه للطّفلة.

أحضر السيّد والسّيّدة معهما هدايا كلّما أتيا (ما كان يحدث يوميًا)، من سائل الغسيل إلى كيلو غرام من اللّحم البقري. كانت تغسل الحفّاضات في الحمّام في الوقت الذي كان يحمل فيه الطّفلة في نزهة قصيرة على الأرصفة المغطّاة بقذارة الكلاب، حتّى تتمكّن إيما من أن تغفو قليلًا. بعدها، كانت السيّدّة تعدّ الشّاي، تطعم الطّفل وتطهو اللّحم الذي أحضره (طهوًا على أصوله). حتّى أنّها كانت تقضي اللّيل

بشكل غير متوقع، لسبب ما، نائمة على الأرضية في غرفة نومنا - كنت قد طُردت في وقت سابق بسبب تحدّثي أثناء نومي وإيقاظي للطفلة عدّة مرّات. سألتها: «ماذا كنتُ أقول؟». لكنّها أكّدت أنّها لم تتمكّن من فهم اللّغة. كانت تلك فترة عصيبة. شعرتُ خلالها أحياناً بأنني غير مرئيّ تماماً بالنّسبة لهم. بدا صوتي غريباً عندما تحدّثتُ وسطهم، وكأنّي أتكلم بلسان غير مفهوم. وجدّثني أنسى، وأخلط الكلمات، وأتلعثهم. عندما تحدّثوا عنيّ (أو حتّى معي)، شعرت أنّهم كانوا يشفقون عليّ، أنّي كنت ضحيّة لقوى طبيعية حتمية، مثل إعصار أو وباء كوليرا أو تشوّه وراثي.

أحياناً، كانت إيما تنظر إليّ بعين الرّيبة، متسائلة إنّ كنت أسخر منهم. اقترحت علينا ذات يوم: «لماذا لا تذهب أنت وأبي لتشربا كأساً احتفالاً بمولد الطّفلة؟»

جلسنا في الحانة التي كانت شبه فارغة (والسّاعة لم تتجاوز بعد السادسة والنّصف مساءً)، ممسكين كأسينا بصمت. عندما أُلقيتُ على السّيد ويلوبي نظرة خاطفة، رأيتُ مقلتيه تتراقصان متمايلتين نحوي، ما جعلني أرغب في البكاء والركض والصّراخ في جنح الظّلام. كان يتوق لقصة من قصص الإمبراطورية، غير أنّ لساني بدا لي ثقيلاً وأخرقاً، فقد برق فصاحته، فيما راحت عروق رأسي تنبض من الاستياء. في الأخير، نشأت أحكي له عن راهبة المستشفى الإنجليزيّة التي أنقذت حياتي. كنتُ قد ذهبت إلى المستشفى لأودّع إحدى خالاتي التي كانت تحتضر من مزيجٍ معقّد من داء اليوز والجذام والبلهارسيا والدّمامل المعدية، جميعها أمراضٌ موروثّة من حياة الانحلال والبُغي. عند نزولي الدّرج في طريقي للخروج، اجتاحتني فجأة نوبة

ملاريا استوائية. فقدت الوعي على الدّرجات حيثُ وجدّني الراهبة وجعلتهم يحملونني إلى أحد الأسرّة. لم تتركني حتّى تعافيتُ تمامًا بعد أسبوعين، مبلّلةً جبیني بالتّبيذ المميّة، واضعةً منديلها الرطب في فمي حتّى أتمكّن من الشّرب. كانت قصّةً بسيطةً عن البطولة الإمبريالية العادية، لكنّي لم أشدّد أثناء حكّبي لها كما ينبغي على التّفصيل. لم تبدُ خيبة السيّد ويلوبي كبيرة، رغم أنّي رأيتُ بوضوح أنّه لم يجد أنّ القصّة تسمو لدرجة تأثير أخريات عليه؛ وشعر الفئان بداخلي بوخز خيبةٍ من هذا الفشل في الأداء.

«هل تسير الأمور على ما يرام في العمل؟» سأل بعد أن لحظات من الصّمت الطّويل، ونحن نمسك بكأسينا في صمت. كنتُ قد بدأت حينها التّدريس للتّو في مدرسة ملأى بالمجانين الجهلة والمضطربين المختلّين الذين بدوا خائفين منّي؛ وكان خوفهم ذاك ردّ فعل غريب، غير أنّه يبعث على الشّعور بالرّضى. فاحت في أرجاء المدرسة رائحة العرق والحساء المحروق. عشتُ وظيفتي الجديدة كاضطهادٍ يومي، وكان أخشى ما أخشاه على الدّوام هو أنّ التّلاميذ سيتمرّدون، ويذلّونني. فأصبح هدف يقظتي المستمرة فوق أيّ اعتبار هو استباق ذلك المصير، والكفاح للبقاء على قيد الحياة كلّ يوم، كلّ ساعة، دون الوقوع ضحيّةً للوحشية التي كنت أراها تظهر بالكاد على وجوه الأطفال وفي صيحاتهم المتبادلة. كان بعض الصّبية الأكبر سنّاً أطول منّي قامّةً، فيما بدت بعضُ من الفتيات في سنّ الإنجاب، غير أنّهم بدوا مستعدّين دون أثر لأيّ أنانية لتكريس طاقتهم وشغفهم للأذية وسوء المعاملة، والتّصرف مثل أطفال الرّوضة في قفص قردة البابون.

في طريق عودتنا، قال السيد ويلوبي: «صار عليك الآن التفكير في شخص آخر. إنها أمورٌ جدّية».

عند وصولنا، انتشرت في الشقة رائحة عجة البيض المخفوق وحليب الأم والطعام المعلّب والحفاضات المبلّلة، وما إلى ذلك. قضت هذه الدلالات على روتين ساحق ومتوقّع على الابتهاج الجديد بمجيء أميليا، وانتهى الأمر بإجبار السيد والسيدة ويلوبي على العودة إلى بلاكهيث. كما دفع إيما إلى اليأس والكآبة، اكتئابٌ حدّرها منه الجميع، ابتداءً من ممرضة الحيّ إلى كتب د. سبوك؛ والذي وجدت أنّ من المستحيل تجاوزه. أبهجنني اكتشاف أنّ أحد الأشياء القليلة التي خففت من بؤسها كان إساءة معاملة جامحة وحادة لذاتي الطيبة. صرْتُ أسارع بالعودة إلى المنزل من المدرسة، مدركًا تمامًا أنّ إيما ستحدّث عن لامبالاتي الأنانية وعدم تسامحي ما إن أمدّ رجليّ لأستريح. فعلتُ ما بوسعي للمساعدة، ابتسمتُ حيث لا ينبغي، ولعبتُ بالسلطة (بدلاً من تناولها كالمتمصّور جوعاً كما كان من المفترض عليّ أن أفعل)، واقترحتُ أنّ بإمكانني إعداد الطعام إن لم تكن قادرةً على ذلك، كما أشعلتُ سيجارةً في نصف الكرة الأرضية نفسه الذي كانت الطفلة فيه. وبعد أن تحمّلتُ أكبر قدر أمكنها مجاراته من هذا الاستفزاز، أسدتُ نفسها معروفاً، ووصفتُ لي عديد إخفاقاتي.

ذات يوم، ونحن جالسين في وضعية حميمة، وبينما رضعت أميليا بنهم من صدر أمّها حتّى جعلتها تتأوّه من الألم من حين لآخر بسبب مصّها الشره، أخبرتها عن عدم ارتياحي من غزو السيد والسيدة (لكّني لم أذكر شعوري بالغيرة وسطهما). فأجابتنني إيما على الفور: «ليس الذنب ذنبهما إذا صادف أنّ والديك بعيدان جدّاً». انتظرتُ مطوّلاً قبل

أن تتكلّم، ممّدة الصّمت ما استطاعت لتُجبرني على البوح بما أفكّر. شعرتُ بالذّنب من صمتي، لكنني صمدت. «لم يحاول قطّ حرمان والديك من مكائنتهما مع الطّفل، إذا كان هذا ما تعنيه».

قالت نظرات إيما المتهمة أكثر من ذلك، لكنّها كانت على يقين من أنّها ستقول أكثر من ذلك في وقت لاحق على أيّ حال. مشكلتك هو أنّك لا تفكر إلّا في نفسك، دائماً. إنّها حفيدتهما. لديهم كلّ الحقّ... لم يرسل والداك لنا حتّى بطاقة معايدة أو هديّة واحدة للطّفلة. لستُ أحاول أن أفرض عاداتنا عليهما أو شيئاً من هذا القبيل، لكنني فكّرتُ في أنّ بادرة صغيرة قد... أعلم أنّ حياتهما صعبة، وأنّ لديهما كلّ تلك الأشياء الفظيعة التي يجب عليهما التّعامل معها، لذا، أنا لستُ فقط أنتقد بدافع من الاستياء والغضب. لكن حقّاً! ولا حتّى مجرد بطاقة! لم يبق شيءٌ على حاله بعد مجيء أميليا، ولم يكن الأمر مع موضوع والديّ وبلدي مختلفاً.

في بداية علاقتنا، ظلّت إيما تطرح أسئلة عني وعن أصولي. كانت فائقة الجمال مليئةً بالحياة (حتّى شعرها بدا مفعماً بالحيوية) لدرجة أنّي لم أصدّق أنّ بإمكانها أن تهتمّ حقّاً بمعرفة الذكريات القاسية العالقة التي ربطتني بماضيّ. بيد أنّها أقسمت أنّها كانت تهتم فعلاً. ما كان عمل والديّ؟ (الظاهر أنّ هذا السؤال هو أوّل سؤال يُطرح في إنجلترا). كم كان عدد إخوتي؟ أنت البكر إذن. كم كان عدد الغرف في منزلنا؟ لم يكن هناك شيءٌ لم تودّ معرفته: كم كان حجم مدرستي، كم مرّة فزنا بكأس كرة القدم في بطولات ما بين المدارس، أسماء أصدقاء الطّفولة، اسم والديّ، كلّ شيء. ورثتُ باهتمام فائق بينما انسكبتُ بالتفاصيل. في البدء، كان من دواعي ارتياحي الكبير أن نتمكّن

من التحدّث دون توقّف عن أشياء كانت بعيدة أيّما بُعد عني، والتي لم يبدأ أبدًا رغم ذلك أنّها توقّفت عن التسبب لي في الآلام والشعور بالذنب، أشياء كانت أحاسيسٍ لذيفة رغم الألم الذي خلّفته بذاتي. أدركتُ حين شعرتُ بطعناتٍ صغيرة من الخجل بعدها أنّي جمّلتُ قصّتي لأجعلها أقلّ فوضويّةً، واختلقتُ تفاصيلًا للحديث عمّا كنتُ أجهله. كان الشعور بالخجل شديدًا لبضع دقائق غير أنّه كان سريع الزوال، وسرعان ما اعتدتُ على أكاذيبي. جعلني ذلك سعيدًا، وفوق كلّ اعتبار جعلها سعيدة. لا، بل الأدهى هو أنّه ما أمكن لذلك أن يتسبّب في أيّ ضرر. لم يبد عليها أبدًا الملل من سماع ما حكيتُ عن منزلي وأهلي، وعليّ الاعتراف أنّ افتراءاتي جاءت عمومًا لمكافأة اهتمامها، رغم أنّه كان من الجليّ أنّ بعضها اختلق لتجعلنا نبدوا أقلّ لوّما تجاه بعضنا البعض، لجعل حياتنا تبدو أنبل، وأكثرَ تنظيمًا ممّا كانت عليه في الحقيقة.

ثمّ بعد فترة توقّفت عن إبداء مثل ذلك الاهتمام الفائق. لستُ متأكّدا متى حدث ذلك بالضبط؛ ولا أعتقد أنّي لحظتُ ذلك حين حدوثه. لا بدّ وأنّه حدث تدريجيًا، تزامنًا مع اعتيادنا على بعضنا. تساءلتُ عمّا إذا كان ذلك لأنّها رأت الكذب في تلفيقاتي ولم يعد بإمكانها تحمّل سماعها مدّةً أطول، لكن ولكي أكون صريحًا، توقّعتُ منها أن ترى الكذب فيها منذ البداية. كانت مولعةً بشكليات السرد (وتابعتُ شغفها حتّى اتخذته موضوعَ أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه)، لذلك كانت متأكّدةً من معرفة أنّ قصّصي قد عدّلت لمكافأتي وإرضائي في الحكي. لعلّ القصص أرهقتها في نهاية المطاف برتابتها. لو لم تحدث فعلاً، لكان باستطاعتي اختلاقها، ولكان باستطاعتها ذلك أيضًا. لا،

في الواقع أعتقد أنّها رأت وسمعت كلّ ما تحتاجه لإكمال القصص بنفسها، وبعدها، وبطيّة، أطفأت الأضواء وفقدت الاهتمام. فقد وجدت على كلّ أشياء أخرى وجب الانشغال بها. وإذا ما أشارت إلى تلك الأماكن وأولئك الأشخاص الذين لم ترهم أو تقابلهم قطّ، فعلت ذلك بألفة وجدّتها ممتعة. تحدّثت عنهم كما لو كانوا عاديّين، ويسهل توقّع تصرفاتهم، وهو ما لم أره فيهم مُطلقاً. بالنسبة لي، لطالما ظلّوا أجنب، غريبين، مختلفين، بعيدين كلّ البعد عنّي بُعد اللّيل عن النّهار. لذلك، إذا ما ذكرت اسم شخص ما، ثمّ شرحت لمن كانت تتحدّث إليه أيّاً كان هذا الأخير، أنّ ذاك كان اسم خالي، جعل حديثها خالي يبدو حاضراً، متأقلماً مع احترام الذات الإنجليزي المقتضب ومرسّخاً فيه، فصيحاً بليغاً ومرتاحاً في دردشته مثل فصاحة وارتياح أيّ شخص آخر تماماً. جعل ذلك خالي يبدو عادياً، طبيعيّاً، لا ذلك الرّجل الصّارم، سريع الانفعال نوعاً ما، دائم الانشغال بتحصيل الأموال، والذي لم يفوّت يوماً صلاةً واحدةً.

ليس لديّ عم. ولا أب. اختلقتُ هذين الشخصيتين من أجل إيماء، وقد استقيتهما بشكل أو بآخر من شخصية زوج أمي. كان خالي هاشم أخّ والدتي الأكبر، وكان له أيّما تأثير عليها. فارق السنّ بينهما اثنتي عشرة سنة، ذلك أنّهما وُلدا لأُمّين. وبينهما أخّ ثالث، غير أنّه وليُصبح بحارًا، هرب متخفيًا على متن ناقلة فحم من جنوب إفريقيا إلى اليابان، قبل أن تنقطع أخباره. تردّدت شائعةٌ مفادها أنّه استقر في هامبورغ، وأخرى تقول إنّهُ أصبح مجرمًا في لندن، لكنّا في المنزل، لم نكن نُشجّع على إبداء أيّ نوع من الاهتمام بمكان وجوده أو حياته، الماضية كما الحاضرة. كان أخّ والدتي الشقيق، وقد سبّب هروبه في انزعاج كبير لوالدته التي أحبّته بفخر غيور. إذ كان علامةً مباركةً إلهية على زواجها، والذي كانت تشكّك أحيانًا في ازدراء النَّاس له بسبب فارق السنّ بينها وبين زوجها. قبله تزوّجت رجلًا أصغر منه، لكنّه كان متلهفًا ليُرزق بالخلف، وعندما لم تستطع الالتزام بالمهلة التي فرضها عليها، طلقها. عَفَنَ اللهَ روحَه اللّثيمة وأصابه بالذّما مل في شيخوخته. إذا احتقرها النَّاس بسبب زواجها السّريع من أرمل عمره يزيد عن ضعف عمرها، فقد أتى الولد كهدية من الله تعالى ليوبّخ أرواحهم الحسودة.

كان والدهم ما يزال على قيد الحياة عندما فرّ شقيق والدتي، لكن بسبب العار الذي ألحقه به عصيان ابنه، لم يذكر اسمه بعد فراره طيلة الأشهر القليلة التي تبقّت له. عندما كان النَّاس يسألونه في الشّارع

عن ابنه عباس، يهزّ رأسه ويلتزم الصّمت، وأحياناً تدمع عينيه. فهم الجميع حينها أنّ ازدراء عباس لسلطة أبيه جنحة بالغة الخطورة لدرجة لا تسمح لهم بمحاولة طلب الصّفح والمغفرة للجاني كما جرت العادة. وبطبيعة الحال، ألقي الجميع باللّوم على وفاة الأب بعد الحادثة بوقت قصير جداً على رحيل ابنه، حتّى وإن عرف الجميع أنّ العجوز كان يصارع برائن الموت⁽⁸⁾ منذ مدّة. ولكان من القسوة بمكان أن يُرْفَضَ للأسرة هذا الجزء من الدّراما والفضيحة. عندما ماتت والدتهما بشكل مفاجئ بعد بضعة أشهر بدورها، ولأنّها لم تُظهر أيّ علامات مرض إلى غاية يومين قبل أن تفارقها روحها، تجلّت يد الله واضحةً أيضاً، وارتعد أولئك الذين تذكّروا عبّاس بشيء من المودة خوفاً من المصير الذي ينتظره عند لقائه خالقه. بذلك لم يبق أمام الخال هاشم وأمّي خيارٌ سوى مواصلة التزام الصّمت على موضوع أخيهما. كانت والدتي تذكره أحياناً، واصفةً شيئاً اعتاد قوله أو فعله، لكنّها في تلك المناسبات تبقي صوته خالياً من الإحساس أو النّدم، وكأنّها لم تكن بحاجة للنّدم ولا للوم هروبه على ما جرى.

كان الخال هاشم يحبّ أن يقول إنّهُ هو مَنْ سهر على تربية والدتي. كانت في الثّالثة عشرة من عمرها عندما مات والداها، وهو في الخامسة والعشرين، لذلك (يمكنني أن أتخيّل الأمر بسهولة) فقد سيرَ حياتها. عندما عرفته، كان رجلاً مهيباً يحبّ أن تؤخذ كلمته على محمل الجدّ. من خلال مظهره وسلوكه وحدهما، بإمكانك أن تدرك أنّه كان أحد أعمدة المجتمع، أحد الأعيان. ولا يوجد سببٌ لافتراض أنّه كان

(8) اقتباسٌ لعبارةٍ مستعمدة من مناجاة هاملت الشهيرة: «أن أكون أو لا أكون»، في مسرحية شكسبير.

مختلفًا ووالدتي أصغرُ سنًا، على الأقلّ في تصرّفه معها، حتّى وإن لم يكن سلوكه في الخارج قد اكتسب بعدُ تلك الثقة والأبهة. وكان الخال هاشم هو من رتب، في الوقت المناسب، زواج والداي.

بالطبع لم يزوجهما فقط إرضاءً لنفسه أو لإثبات سلطته على حياة أمي الضعيفة، رغم أنّه كان بإمكانه أن يفعل. كان نفسه ما يزال أعزبًا، وفضل ذلك الترتيب غير المعقّد. عاشا في الطابق الأول فوق صفّ من ثلاثة متاجر تقع بالقرب من أحد الطّرق الرّئيسة المؤدية نحو أرصفة الميناء، وهو موقعٌ رئيسيّ اشتراه والدهما منذ سنوات كان، إلى جانب المنزل الذي بناه عليه، ميراثهما الأهم. عائدات إيجار المحلّات الثلاثة - ثلاث متاجر أطلّت على الشّارع، التصق كلّ متجر مع غرفة أصغر في خلفه كانت المخزن - وقرت ما يكفي من المال للخال هاشم لتسيير أعماله. كان مسكنهم في الدّور العلوي أكثر من كافٍ لشخصين: غرفة نوم لكلّ واحد منهما، غرفةٌ لاستقبال الزّوار نوافذها محمية على جدارين، أحدهما يطلّ على الشّاطئ، مع مطبخ، وحمّام وشرفة كانت والدتي تنشر فيها الغسيل كلّ يوم، وتعتني فيها بشجيرات الورد والخزامى التي زرعتها في صناديق كيروسين صدئة؛ حيث كانت تجلس أحيانًا في المساء، وتستمع إلى ضوضاء الشّارع الصّاعدة وتنظر إلى السّماء المرصّعة بالنّجوم.

ذات مساء، عاد الخال هاشم إلى المنزل في وقت أبكر على غير عادة، وهو يعاني من مغص ألم به من شرب خميرة من الواضح أنّها كانت فاسدة. كان رجلًا يحبّذ الروتين والنّظام، ما كان ميولاً يسهل الانجراف إليه في بلدة صغيرة تنعدم التّسلية فيها. عادةً ما كان يذهب بعد تأدية صلاة العشاء من المسجد إلى المطعم الذي يديره الخبّاز

اليمني لاحتساء شراب خميرة، وأكل القليل من الخبز، بعدها يتجه للمقهى الواقع على الشارع الرئيسي ليستمتع للأخبار على المذيع، قبل أن يعود إلى المنزل لتناول العشاء. وجدّ والدتي جالسةً على حصيرة في الشرفة، يظهر شكلها في صورة ظلّية من ضوء المطبخ.

سألها: «لماذا تجلسين في الظلام هكذا؟ علينا أن نضع مصباحاً هنا».

فأجابت أمي: «لا، أحبّ أن تكون العتمة هكذا».

طلب منها أن تحضر له فنجان قهوة لكن دون عشاء، ولأنّها كانت واحدةً من أمسيات شهر مارس الباردة، قبل موسم الأمطار بقليل، طلب منها إحضارها إلى الشرفة بدلاً من أخذها إلى غرفة نومه. ثمّ جلس على الحصيرة التي نهضت منها لتوها. وهو يفعل، رأى حركةً من زاوية عينه؛ عندما التفت لينظر رأى أحدهم يتعدّ عن نافذة المنزل المجاور التي لم تكن سوى شقّ في الجدار، عرضه تسع أو عشر بوصات، غير مسيّج ولا محميّ بالزجاج، مجرد كوة لإضاءة منعطف في السلالم أو لتهوية أحد المخازن. كان المنزل بحدّ ذاته مائلاً بزاوية عنها، لذلك بدا الشق أضيق إذا ما نُظر إليه من الشرفة؛ والضوء في الغرفة خلف النافذة خافتاً وثابتاً وذهيباً، ضوء مصباح كيروسين. ومع ذلك، كان الخال هاشم على يقين من أنّ الشخص الذي رآه يتعدّ خلسةً كان رجلاً، واعتقد أنّه تعرّف عليه من يكون.

كان والدي قد قدم مؤخراً من الرّيف ليعيش مع بعض الأقارب في ذلك المنزل حتّى يتمكّن من ارتياد كلية تدريب المعلّمين في المدينة. في العام الذي سبق، كان قد أكمل الصّف الثامن الابتدائي وهو

في الثامنة عشرة من عمره، لكنه لم يتمكن من الحصول على مقعد في المدرسة الثانوية بسبب سنه، وشدة المنافسة على تلك المقاعد، وحسن أداء المدارس في المدينة مقارنة بالمدارس الريفية. لم يكن السبب في تفوق مدارس المدينة هو قربها من السكان فحسب، أو توفر معلمين ومكتبات وحمامات ومعدات رياضية أفضل، بل كذلك الوقت الإضافي الذي كان على طلاب المدارس الريفية قضاؤه في مساعدة عائلاتهم في الزراعة، مما يدفعهم أحياناً للرسوب. وكان معظم طلاب المدارس الثانوية في المدينة يصلون إلى الصف الثامن وهم في سن الرابعة عشرة. لكن بسبب تغيبه في أوقات غير مناسبة خلال السنة الدراسية، كان والدي في سن متقدمة عندما أنهى دراسته، لكنه لم يكن الأكبر سنّاً على الإطلاق حتى في مدرسته. على أي حال، أفضل ما أمكنه الحصول عليه كان مقعداً في كلية تدريب المعلمين. كان الخال هاشم قد رأى الجار الجديد، شاب نحيف رياضي المظهر رشيق، والذي حيّاه كلما التقيا في الشارع. وقد صدمه أسلوبه المهذب الذي اعتقد أنه أقرب إلى الخضوع منه إلى اللباقة.

جلس الخال هاشم على الشرفة خافته الإضاءة وأدرك بدهشة طفيفة أنّ بإمكانه أن يشم رائحة الورد الذي اعتنت به أمي. ثم وجد أنه إن ركّزه على العطر، ووسّع منخاريه وأخذ نفساً عميقاً أنّ العطر يفلت منه، وأنّ حدّته تضعف رويداً. بعد لحظة أو اثنتين، تخلّى عن المحاولة. ومع ذلك، ظن أنّ في تمكّنه من الإمساك بتلك الرائحة الزائلة بشكل غير متوقع شيءٌ من الدّهاء فيه. عندما عادت والدتي تحمل القهوة، لم تمكث برفقته، متعلّلةً بأنّها ستضع بعض الملابس لتتقع قبل أن تخلد إلى النوم. فقد سهرت ما يكفي، كان ليلتها الضّوء منيراً بما يكفي

للخال هاشم كي يتأكد مما كان قد فهم بالفعل، بعد أن اعتراه اضطرابٌ حاول جاهدًا كبته: وهو أنه قد صار لأمي جسد امرأة. ليس الأمر أنه لم يكن على علم بذلك. فقد صارت تغطي نفسها بشكل مختلف آنئذ في حضوره لإخفاء شكلها الناضج، كما جدّ نوعٌ من السرية في طريقة عيشها في مساحتهما المتقاسمة. أصبح تصرفها مختلفًا إذا ما استضاف زواره وأصداقؤه، وكلّهم يشعّون بنوعٍ من البهجة والحماس، والذين وجدهم الخال يتسمون بالسطحية والتفاهة بشكل محرج. عطورهم ومساحيقهم، ورائحة خشب الصندل والمسك المنبعث من اللحم المتقدّ، جعله يختنق متعطّشًا لالتقاط أنفاسه حتّى وإن كان نائيًا بعيدًا عنهم، جالسًا في غرفة أخرى.

ملأه تباطؤها في الشرفة على مرأى أحد المعجبين دُغْرًا، وجعله يشعر بأنّ كارثة ما على وشك أن تعصف بحياته من جديد. جلس في العتمة، وأذهله مرّة أخرى عطر الورود. غير أنّ الرائحة زرعت في خلده هذه المرّة أفكارًا عن الفساد والفوضى.

بعد ذلك المساء، أبقى عينا رقيقةً على الشاب، واستعلم بشأنه. لم يجد ما يُثني عليه بصرف النظر عن تهذيبه وشبابه المستقيم. كان لدى والده قطعة أرض صغيرة بالقرب من بونجي، وهي حيازة ضئيلة أنتجت ما يكفي لأخذ بعض الموز والمانجو إلى السوق بين الفينة والأخرى، وإطعام عائلة كبيرة بقيّة الوقت. كان أبي يعيش عائلة على أقاربه الذين كانوا جيرانهم. سمع الخال هاشم عن اجتهاده في دراسته، تهذيبه وودّه الخانع، رغم أنّه سمعه مرّة يتحدث في المقهى بثقة مفاجئة في موضوع اعتقد نفسه على دراية واسعة به. بدا له حينها أنّه تقمّص بالفعل شخصية المعلم حتميًا، واعتقد الخال هاشم أنّه

سيصبح بمرور الوقت فقيراً بشكل محترم، ومتحذلقاً بشكل متزايد، كما هو حال جميع المعلمين.

لذلك، لم يمض الخال هاشم قدماً في العمل على تزويج والديّ من منطلق إعجابه بأبي؛ كلّ ما في الأمر أنّه لم يشأ أن يجد نفسه محاصراً بالمؤامرات الغامضة والكره المكبوت الذي قد ينفجر يوماً في نوبات تهوّر ليلحق عاراً جديداً بالعائلة. لم تكن لديه قريبة يلجأ إليها ليقتراح عليها أن تبدأ التلميحات الخفية التي تسبق المفاوضات، ولم يستطع التحدث إلى والدتي خوفاً من أن يبدو ذلك تشجيعاً لها على سلوكها البذيء. مَنْ كان يعلم ما قد يحدث أثناء تغيّبه في عمله أثناء النهار إذا ما اعتقدت أنّه يؤيّد مشاعرها تجاه الشاب؟ لكن الخال هاشم كان رجلاً مقتدراً، وقد تميّز بتمكّنه من التعامل مع الأمور. هروب عباس، العار الذي لحق بوالده، الجنازات، تربية والدتي، تعامل مع كلّ هذه الاحداث بهدوء ودونما إهمال. وتبيّن أنّ بإمكانه التصرّف إزاء هذه المهمة بالقدر نفسه. أظهر لوالدي صداقة لا لبس فيها، وطلب منه مساعدته في صغائر الأمور، واضعاً بالتالي نفسه في وضعية من يدين له بشيء، كما دعاه لتناول العشاء معهم إذا ما استقبلوا ضيوفاً، ثمّ أخيراً، تطرّق لموضوع زواجه مرتين، مرّةً وهما في صحبة ذكورية مبتهجة، والثانية عندما انفردا جالسين على مقعد على الطريق خارج المنزل، يستمتعان بالنسيم العليل. من بإمكانه مقاومة مثل هذا التشجيع والتحفيز؟ في غضون بضعة أشهر، عندما صار من الواضح على كلّ حال أن والديّ صارا يمشيان أمسياتهما يتغازلان في العتمة، قام أقارب والدي بأولى خطواتهم. وقد تعامل الخال هاشم مع ذلك أيضاً، فجعل المسألة الحساسة المتمثلة في مهر أمي الضئيل تبدو

عملاً متعمّداً، وأفهم الجميع أنّ ذلك كان من باب الورع والتواضع. فقد كان في الأخير وهابياً، ومثل هذه التفاهات الدنيوية مقيتة بالنسبة له. وحدهم المتعجرفون وسيئو التربية من يتباهون بثرواتهم. وبمجرد تسوية مسألة المهر، لم تبق عقبات أخرى أمام الزواج.

بعد الزفاف، والذي انتزعته من الخال هاشم بقوة كعادتتهن مع الأعراس النسوة اللاتي اعتبرن أنفسهن أكفأ في ترتيب هكذا أمور، انتقل والذي إلى الغرف الواقعة فوق المحل. في المساءات، كان والداي يجلسان على الشرفة المعطرة ويتهاامسان، على الأقل في الأيام الأولى، بينما كان الخال هاشم يفكر في عودة أيام الهدوء. شحّن همسهما إلى وقت متأخر من الليل الجوّ وضايقه في البداية، لكنّه عرف كيف يكتّم استيائه من ذلك، ومن عائلة والذي التي أتت للزيارة من أجل تحية أختهم الجديدة، ولتقدير ثروات الخال هاشم.

ذاع صيت كون الخال هاشم ثرياً؛ سمعة لم يكلف نفسه عناء تأكيدها أو تفنيدها. فقد تعامل مع أي شيء صادف طريقه، في الحياة كما العمل - ولم يكن هذان في الأخير مختلفين - وبطريقة أو بأخرى، خرج منه سالماً. كان يشتري ويخزّن في أوقات الوفرة لبيع عندما تشحّ المؤن. وقت كان الحكم بأيدي البريطانيين، سمحوا للجميع بفعل ما يحلو لهم، إلّا إذا كان ذلك شيئاً أرادوه أو اعتقدوا أنّهم بحاجة إليه، أو إن جعلتهم ندرته (لأنّ بعض الهندوس⁽⁹⁾ المتواطين أو تجّاراً عرباً لا تعرف قلوبهم الرّحمة كانوا يدّخرونه) بيدون غير قادرين على الحفاظ على النظام داخل مستعمرتهم. لكنّهم بعدها سئموا من كلّ هذا الحكم، والكلام السيّء الصّادر عن الجاحدين الذين لم يعودوا

(9) والاسم المحلي المخصّص لهم والوارد في نصّ هو: «بانيا». (المترجم)

يلتزمون الصّمت مثل سابق عهدهم، والذين أتوا خصيصًا لخدمتهم،
فغادروا تاركين الجحافل الجامحة تعمه في خرابها وفوضاها.

بعد ذلك، بعد ذلك بوقت طويل، عندما اشتدّت الأوقات وصارت
أصعب تحت حكم المتنّمّرين المحليين، نوع الخال هاشم في
نشاطاته. حوّل الأموال إلى العملة الأجنبية، وعرف كيفية الامتثال
للوائح الشّحن والقيود الجمركية، أصبح من الممكن الاعتماد عليه
لتهريب كلّ ما كان ضروريًا ومرغوبًا فيه من بضائع وسلع، سواء
تعلّق الأمر بفرن كهربائي أو مرحاض أو شحنة من الإسمنت. أضحى
قادرًا على الحفاظ على نشاطه لأنّه وفّر تلك الأشياء للمسؤولين
الأقوياء الذين كانوا أيضًا فقراء، أولئك بالذات الذين كان من واجبهم
ردعه وإيقاف أعماله. فقد كان عليهم أن يعيشوا أيضًا، أن يطبخوا
ويستخدموا المراحيض وينو المنازل لأنفسهم وأمهاتهم وأخواتهم،
رغم أنّهم هم من سنّوا القوانين الغبية التي خلقت الندرة وأيدوها. بيد
أنّ ذلك كان بالأساس سبب وجودهم، السّبب الذي من أجله نصّبوا
أنفسهم هناك: لسنّ القوانين وإصدار المراسيم التي يحرصون على أن
يطيعها الجميع - تحت طائلة عقوبة همجية أو غيرها - بينما قرفص
هؤلاء، المشرّعون الكاذبون، على وجوه الجميع وتغوّطوا عليهم.

وعرف الخال هاشم كيفية التّعامل معهم بطبيعة الحال؛ كما
فعل ذلك بأسلوب لا يسمح لصفقاته بتلطّيح سمعته. أعطى وأخذ
بالتّهذيب نفسه، بطريقة جعلت أولئك الذين تعامل معهم يشعرون
بنوع من الإطراء خلال تبادلاتهم. كان تحفّظه مدروسًا بعناية. لم
يكن يرفع صوته قطّ إلاّ للتّحية، غير أنّ حدّة في نظرتة ونبرة صوته
أوصلت فكرة واضحة عن طبيعته الفولاذية القاسية. عندما كان يقبض

على سارق في المنطقة، يتم إحضاره أولاً إلى الخال هاشم الذي كان ينصح بعدها ما إذا كان يجب تسليمه إلى الشرطة أو الاكتفاء بضربه لتأديبه وإرجاعه إلى جادة الصواب. وإذا ما تنازع الناس في أمور مالية أو قضايا شرف أخرى، كانوا متأكدين أنّ بإمكانهم في نهاية المطاف أن يطلبوا من الخال هاشم الفصل بينهم. عند كلّ تاريخ مهمّ-عشية شهر رمضان، أحد الأعياد، المولد النبوي، أو عودة مسافر غاب منذ فترة طويلة - كان يدعو عددًا صغيراً من الأفراد إلى منزله لتناول الطّعام معه. مع مرور الوقت، زادت حكمة الخال هاشم، وصار لكلّ مخلوق في نظره معنى مجازي. خلق الله كلّ شيء، وقد أسلم الخال هاشم نفسه له كلّ يوم، وصلّى ليحظى بالترشد ويلوذ بالرحمة.

أطلقت عليه إيما لقب «الخال الصّارم». لو سمعها لحدّق الخال هاشم مذهولاً في صراحتها وأسلوبها المباشر، قبل أن يتسم بسرور. كان يحبّ أن يعتبر نفسه رجلاً عملياً ومدرّكاً لمحدوديته، ولكان تقييم إيما يبدو في نظره نوعاً من الإطراء على الشّيء نفسه، وهو أنّه أدرك حدود اهتماماته، وتبنّى كلّ واحد منها لمصلحته.

في البدء، كان والداي منشغلين جدّاً أحدهما بالآخر لينتبهما لأيّ شخص آخر، كلّهما ابتسامة في الفترة التي اكتسب أثناءها كلّ شيء مغزى جديد. فصلت ستّة أميال مدرسة والدي عن المدينة بحراً، فيتعيّن عليه أن يغادر في الصّباح الباكر للحاق بالحافلة الخاصة بالطلّاب القاطنين في المدينة. كان معظم الطّلاب مقيمين في نظام المدرسة الدّاخلية، وشكّل الموقع خارج المدينة سكنهم وملاعبهم، وكذا فصولهم الدّراسية. كانت ساعات الدّراسة تمتد حتى في الفترات المسائية، لذلك كان جميع الطّلاب يتناولون وجبة الغداء في مقصف

المدرسة معًا. بحلول الوقت الذي كان يعود فيه والدي إلى المنزل، وجلده يلمع من العرق المتصبّب من طول اليوم المرهق، تكون والدتي قد فرغت من الغسيل، طبخت ونظّفت أطباق غداء الخال هاشم وغداءها، وأعدّت العشاء. لذلك، وبعد تحرّرها من جميع أعمالها المنزلية، كانت تجد نفسها على استعداد لتهتمّ به؛ فيستحمّ في الماء الدافئ الذي تكون قد أعدّته له في دلو، يرشّ الماء مدندناً بصوت خفيض فرحاً من التّرقّب، قبل أن ينضمّ إليها في غرفتهما. بعدها، يخرج في نزهة ويجلس في المقهى لفترة، لكنّه سرعان ما كان يعود إلى المنزل بعد غروب الشّمس بقليل، ولا يخرج مجدّداً حتّى صباح اليوم التّالي.

حياتهما معًا كانت نعيمًا؛ يسهران فيه يتسامران حتّى مطلع الفجر، يتهاوسان ورأساهما على بُعد ستمترات من بعضهما، يرويان قصصًا عمّا حدث لهما في يومهما. أخبرها كيف أحبّ والده الذي كان رجلاً قصير القامة وعدواني الطّبع إظهار قوّته، وحكم الأسرة مثل الطّاغية. كان يجبر الجميع على الاستيقاظ عند استيقاظه، مصدرًا الأوامر بالمهام التي يجب إنجازها خلال اليوم دون سؤال أيّ كان عن رغباته، أو انتظار رأيه. كان يقول أنّ من المهمّ بمكان أن يعيشوا ويتصرّفوا كعائلة. كما كانت قواعده بخصوص ما كان مقبولا وما لم يكن بهذا الصّدّد مفصّلة، وفي الغالب صارمة لا تقبل المساومة: واختزلت في أن ينقذ الجميع أوامره دون نقاش. والده كان من يعمل الأكثر، ولأطول مدّة من بينهم جميعًا، متحدّثًا طوال الوقت لمن يستطيع سماعه - متغطرّسًا، ملقيًا باللّوم، ناصحًا - غير تارك بذلك فراغًا لأيّ أفكار غريبة قد تتجذّر في أذهانهم. إذا ما شعر بمقاومة ما، كان وجهه يتوهّج بابتسامته السّاحقة ويقول: أنتَ تعتقد إذن أنّك أدري منّي.

كان لوالدي-أصغر أفراد الأسرة-شقيقان وأختٌ وحيدة. كانت البكر، تكبر والدي بثمان سنوات. لم يُسمح لأيّ منهم بالذهاب إلى المدرسة رغم أنّهم طلبوا ذلك. وكان ردّ والدهم حينما طلب الإخوة الالتحاق بالمدرسة التي فتحت أبوابها للتوّ، أن ابتسم من الدهشة تلك الابتسامة التي كان يخصّصها لهكذا سخافات. قال: «لا يمكنك أن تكون جاداً؛ أحتاجك للعمل في الحقول». ووبّخ الأختَ لأيّام وأيام على رغبتها في الذهاب إلى المدرسة متّهما إياها بأنّها تريد ذلك كي يتسنى لها فعل أشياء قدرة مع الصّبية. كانت قاعدته ألاّ يعتدي أبداً بالضرب على ابنته. فقد ترك تلك المهمّة لوالدتها، فيما تعامل هو مع الولدين إن اقتضت الحاجة، وهو ما كان يحدث بانتظام. لكنّه أوشك عدّة مرّات على صفعها في صراخه الهائج ردّاً على رغبتها في الذهاب إلى المدرسة، وخيانتها المشيرة للاشمئزاز لتربيته، ومؤامرتها القدرة لإهانة نفسها وعائلتها؛ ولم يمنعه عن ذلك سوى بقاء والدتها دائماً على مقربة منها عندما يشنّ نقدّه اللاذع، راميةً نفسها عليه معترضةً طريقه إذا ما اقتضى الأمر، تصرخ محدّرةً وتتوسّل الرّحمة.

عندما كان والدي في السّابعة من عمره، أمسكه من يده ذات صباح شقيقه الأكبر الذي كان في الثّالثة عشرة من عمره، وقطع به الميل وبعض الميل الذي كان يفصلهم عن المدرسة على الطّريق الرّئيسي المؤدّي إلى المدينة. لم يقل والده شيئاً لأنّ والدته أحدثت جلبّة كبيرة بصراخها بسبب شعره وقدميه المتسختين، وهي تصرخ مانعةً إيّاه من التّدخل. غالباً ما كانت والدته توبّخه لتحميه من نوبات غضب والده، وتنقذه من أقسى الأعمال المفروضة عليه. عندما كان يُهزم والده بهذه

الطريقة، كان يلقبه «عيال ماما»⁽¹⁰⁾، ولد أمه. بعد أن بدأ المدرسة، ناداه والده بهذا الاسم طوال الوقت في الأسابيع الأولى، كما لو أنه نسي اسمه، أيضًا لتوضيح أنه لم يسمح باستمرار هذا الجنون إلا لأن والدته أثارت كل تلك الضجة. غير أنه كلما ارتأى ذلك ضروريًا، طلب من والدي التغيب ليساعد في أعمال المزرعة. أحيانًا، كان ذلك التغيب يستمر عدة أسابيع، حتى يصبح واضحًا أنه لم يبق لوالدي ما يفعله هناك، حينئذ كان يقول له أحد أخويه أو أخته بنبرة حادة، ما الذي تضيع وقتك من أجله هنا؟ اذهب إلى المدرسة. فوّت الكثير من الساعات الدراسية بتلك الطريقة حتى اضطرّ لسوب سنوات بأكملها بسبب غيابه أثناء فترات الامتحانات، أو لأنه كان ببساطة غير مستعدّ كما يلزم لاجتيازها. ثم عندما أكمل الصف الثامن وعُرض عليه مقعد في كلية التدريس، رفض والده دفع الرسوم، رغم أن هذه الأخيرة لم تبلغ سوى اثنين وثلاثين شلنًا للفصل، ما كان في الأصل مبلغًا جدّ زهيد لم يقصد به سوى أن يكون رمزًا لحسن نية الطالب والتزامه، والذي يبقى مبلغًا يستحيل تحصيله بالنسبة لشخص في مثل وضعية والدي.

وقتها، كانت أخت أبي متزوجة بالفعل. انحدر زوجها من عائلة تقربهم من بعيد، سكن المدينة، وكان يشتغل متدربًا عند صباغ منازل. تلك الأخت هي التي ذهبت لزيارة أقارب من جهة أمها، وأخذت معها سوارًا من الذهب أعطته لها أمها لترهنه من أجل تسديد الرسوم. وبهذه الطريقة، أتى والدي للعيش في المدينة وبدأ دراسته. أطعمه أقاربه وآووه. كانت تلك أوقاتًا عصيبة، بعد الحرب مباشرة؛ عانى فيها الجميع من نقص في الطعام بجميع أنواعه، لذلك ظلّ ممتنًا لهم

(10) بالعربية في النص. (المترجم)

على الطريقة التي آووه بها بتواضع، وحاول ألا يكون عبئًا عليهم. قالت أخته إنها كانت ستأويه لو لم يكونا يستأجران غرفةً وحيدةً في حيٍّ فقير في المدينة، هي وزوجها، ويكافحان من أجل لقمة العيش. كان أفضل حالًا بمكوته عند الأقارب. كانت أخته تزوره بين الفينة والفينة، وكلّما ذهبت إلى الرّيف لزيارة العائلة، أحضرت لهم شتى الهدايا من الفاكهة.

كوّن صداقات بالمدرسة، ومساءً بعد نهاية الفصل، كان يتنزّه على الشاطئ مع بعضهم، يثرثرون أو يضايقون بعضهم البعض بحماس. بعد صلاة المغرب، كانوا يذهبون إلى المقهى أو يعودون إلى منازلهم لتناول العشاء، بينما كان البعض من بين أكبرهم سنًا يخرجون من جديد بحثًا عن ملذّات أكثر سرّية. لم يكن والدي يملك مالاً، وكان مدرّكًا تمام الإدراك وضعه ذاك عند جلوسه في المقهى مفلسًا ومنعزلًا عن المجموعة، يستمع إلى تبادل أطراف الحديث. كلّ مساءً، كانوا يعودون إلى موضوع استقلال الهند، متعجّبين من انهيار وتفكّك العزم البريطاني رغم شدّته. ذات ليلة، سخر واحدٌ من كبار المتحدّثين في المقهى من غاندي معتبرًا إيّاه البانيا العاري الذي طرد البريطانيين وأخافهم بعصاته. فوجد والدي نفسه يتحدّث بحماس عن قدرة الرّجل النّحيل العجوز الذي رفض الانصياع للخوف من قوّة الإمبراطورية البريطانية السّاحقة، ومدى التأثير المدهش لمذهب اللاّعنف، وكيف أنّ استعدادَه للتّضحية بحياته من أجل تحرير الهند زرعت الشّجاعة في قلوب مئات الآلاف من بني جلدته. عندما انتهى من الحديث، توقّع أن يسخروا منه، غير أنّ الجميع تصرّفوا بهتذيب، وغادر المقهى ممتنًا بعد فترة وجيزة.

بعد تلك الحادثة، ظلّ حبّيس المنزل مساءً وهو متأكّد من احتقار الجميع له بسبب فقره، وتدخله غير المُراعي في محادثاتهم. بعد العشاء، كان ينجز أيّ واجب منزلي عليه إتمامه -والذي لم يكن أبدًا بالشّيء الكثير- ليتفرّغ بعده لقراءة كتبه المدرسية: وقد استفردت مادّة الجغرافيا مع التّاريخ بجلّ اهتمامه لحيازتها على أفضل القصص. أُعطيت له غرفة صغيرة كانت في السّابق مخزنًا، بقي فيها صندوقان خشبيان مقفلان أحدهما فوق الآخر عند رجل سريره -ولم تكن الغرفة موصلةً بالكهرباء. لذلك اشتغل على ضوء مصباح الكيروسين الذي كان يضعه على الصّندوقين في الوقت الذي كان يحاول فيه الحفاظ على توازن لوح في حجره استخدمه كسطح للكتابة. في ذلك الحيز الضيّق، لم يكن بإمكانه فتح الباب إلّا جزئيًا، وإذا ما غيرّ ملابسه أو ارتداها، تعيّن عليه الوقوف في مكان واحد أو الاستلقاء على سريره. لكنّه كان ممتنًا للأمان والخصوصية اللّذين وجدتهما في مساحته الصّغيرة. لم يضايقه أحدٌ بشأن أيّ شيء، وكان له مطلق الحرية في الانسحاب متى شاء.

ألقي عدّة مرّات نظراتٍ على والدتي وهي على الشّرفة، تأتي وتذهب بين حبال الغسيل، قبل أن يشيح بنظره بعيدًا بأدب حال ما رآته وشعرّت بالإهانة من تحديقه. صباح ذات أحد، وبعد أن مكث في فراشه لوقت متأخّر، اتكأ على الحائط بالقرب من الشّق الصّغير من نافذته، ينظر بلا هدف إلى الشّرفة متسائلًا عمّا بإمكانه فعله لملء فراغ يومه. رآها تخرج حاملّة دلوًا مليئًا بالغسيل وراقبها وهي تنشره. تمدّدت على أطراف أصابع قدميها لتصل إلى الحبل، مقطّبةً في مواجهة أشعة شمس الضّحى، ورأى كم كانت جميلة. نظر إليها مدّة دقيقة واحدة

قبل أن ينسحب، لكنه صار بعد ذلك، وبمجرد دخوله زنزانه يسارع إلى التآفة ليرى ما إذا كانت على الشرفة. ذات مرة، رآه وانسحب مرتبكاً، لكنه في المرة التي تلت ثبت في مكانه، غير أنه تظاهر بالنظر في اتجاه آخر. وجد أنها صارت تجلس على الشرفة في المساء، وراح يقف أمام نافذته بانتظام، ينظر إليها ويقع في حبها، متخيلاً عطر الورود والخزامى يلفها. أحياناً، كانت تغني، أو تتمدد على الحصير تتأمل السماء. كانت تبقى مدة نصف ساعة أو ما يقارب، ولم تكن حتى تنظر في اتجاهه طوال الوقت، لكنه كان ينتظر تلك اللحظة كل يوم؛ يستيقظ مترقباً وصولها، ويتعثر خلال يومه متطلعاً لها. نادراً جداً، كانت تغيب، عند استقبالهم ضيوفاً في المنزل ربّما، أو عند ذهابها لتعزي عائلة فقدت عزيزاً، أو للاحتفال بزفاف (كان يفسر لنفسه)؛ وحينها، يشعر بأنها تخلت عنه وكسرت قلبه، وكأنها ماتت وتركته إلى الأبد.

صار يشعر كلما رأى الخال هاشم في الشوارع بالسّخف حيال حبه السري. كان يحييه بأدب ووقار كلما تصادفا في الطريق، كما كان يفعل الجميع، رغم أن الخال هاشم لم يكن إلا في أواخر العشرينات من عمره؛ رجلاً ممشوق القوام، حازم الخطوة واثق التصرف بطريقة أكيدة لا تعرف اللبس. كلما رآه، شعر والذي أنه كان شقياً بشكل مثير للسخرية لقضائه كل تلك الساعات الليلية يحدّق في أخت هذا الرجل الوقور، ويستبيح رسم تخیلات جنسية عنها في ذهنه. ثم في إحدى الأمسيات، صعد الخال هاشم إلى الشرفة والتفت ورأى والذي هناك عند التآفة، يتجسّس بطريقة خسيصة ومخزية على حياة النساء. كان والذي على يقين من أنه رآه. فقد كان ذلك الشق في الجدار النافذة الوحيدة على هذا الجانب من المنزل، ولسبب ما، اعتقد أن الجميع

على علم بأنه يعيش في المخزن الصغير في منزل أقاربه. وتوقع على الأقل أن يُفَضَّح ويُبَوَّخ أو ربّما حتّى يُضْرَب. غير أنّ الخال هاشم لم يبطئ حتّى من وتيرة مشيه عندما تصادفا في الشارع بعد ذلك، فيما تشنّجت كلّ عضلات والدي من الخوف متوقعًا أن يتعرّض للضرب أو الإهانة. وما أثار دهشته أكثر، كان أنّه حظي بتأييد واضح لدرجة أنّ أقاربه بدأوا يقولون فيما بينهم أنّ الخال هاشم لا بدّ وأنّه ينوي مصاهرته، كما ثبت لاحقًا بشكلٍ لا لبس فيه.

وضعت أخت والدي الخطة الاستراتيجية. وراحت تتحدّث مع الأقارب، وتطلب من عمّهم الجلوس مع الخال هاشم ومحادثته، لجسّ النبض ورؤية كيف يمكن للأمور أن تسير. في غضون ذلك، تعيّن على والدي أن يعود إلى المنزل لبضعة أيّام - فهو لم يعد إلاّ مرّة واحدة فقط خلال الأشهر السبعة التي عاشها في المدينة - ليشرح ما كان بصدد الحدوث لوالدهم. سألتها إن كانت ستراققه. فأجابته أخته أنّها ستأتي لاحقًا، بعد أيّام قليلة.

صرّح والده: هذا هو إذن هو نوع التّعليم الذي كنت تحصل عليه في المدينة. ليس هذا ما أرسلتك إلى المدرسة من أجله. عند تلك اللحظة ضرط أحد إخوته عمدًا لاستفزازه، ذلك أنّ والده لم يكن يتحمّل أيّ شخص يفعل ذلك على مسمع منه، فقد كان يدفّع به ذلك إلى نوبة جنون، ويشعر بأنّه إهانة متعمّدة لشخصه وشرفه. نهض وطارد ابنه، نزولاً من الدّرج الأمامي إلى غاية بستان أشجار الخبز، صارخًا بالكلمات النّابية والشتائم، وصولاً إلى أوّل حقل ذرة، حيثُ توقّف لبضع دقائق في جولة أخيرة من اللّعنات، ولكي يتبوّل على جذع شجرة جوز هند، قبل أن يعود أدراجه إلى المنزل. بعد أن انتهى

من وصف فشل ابنه والإشارة لنواقصه، استطرد بالقول: هذا هو إذن هو نوع التعليم الذي أرسلتك إلى المدينة من أجله، لا أملك مالا أدفعه للمهر، وشقيقاك الأكبران لم يتزوجا بعد. لم يكن لدى والدي شيء يقوله سوى أنه أحب الفتاة، وأنه اعتقد أن شقيقها الأكبر كان يرغب لهذه الزيجة أن تتم. بدا الأمر وكأن والده كان مستعداً في عناده لمتابعة النقاش على امتداد سنوات أخرى، فيما أصرّ في تلك الأثناء على أن يغيّر والدي ملابسه لملابس العمل ويرافقه إلى المزرعة. بعد بضعة أيام على هذا المنوال، قدمت أخته حاملّة خبر الترتيبات التي اتّفق عليها بين عمّها والخال هاشم.

كانت والدتي طرفاً راغباً جداً في تلك الترتيبات، وحتى قبل خطبتها الرّسمية لوالدي، صارت تكشف عن وجهها وتحدّث إليه عندما يلتقيان في الشوارع، معجبة بابتسامته العريضة المشرقة وصوته الضّاحك. رآهم الناس على تلك الحالة وابتسموا لأنهم عرفوا إلى أين كانت تتجّه الأمور. عندما حان وقت توقيع عقد الزواج، بصمّت بإبهامها عليه ووقّعت بعلامة X. لم تذهب قطّ إلى المدرسة، أخبرت والدي، على عكس الخال هاشم الذي تدرس حتّى بلغ الفصل الخامس. والدّها هو من عارض الفكرة عندما طلبت والدتها ذلك. تزامن ذلك مع الفترة التي بدأت فيها أمّهات أخريات الإصرار على وجوب إرسال بناتهن إلى المدرسة تماماً مثل الأبناء، وهو ما شجّع والدتها ومنحها الجرأة على فتح الموضوع. إلّا أنه رفض، وتوقّفت الأمور عند ذلك الحدّ. بعد وفاة والديها، سألت الخال هاشم بأدب، متوقّعة منه رفضاً أو ما هو أسوأ، إذا ما كان الأوان قد فات على الذهاب إلى المدرسة (وهي حينها في الثالثة عشرة من عمرها)، فأجابها إن

الأوان قد فات بالفعل. في السنوات اللاحقة، صارت تشتكي إليه بسبب هذا، متهمّة إياه بإبقائها جاهلةً مثلها مثل البهيمة، فيما كانت الفرصة قد أُتيحت لها لتتلقّى بعض التعليم، وربما حتّى لتتعلّم القراءة والكتابة وبعض الحساب، ولما شعرت وكأنّها تلك الطفلة الصّغيرة إذا ما استدعت الحاجة للقيام بتلك الأشياء. أخبرت والدي عن تلك الفترة خلال أشهرهما الأولى تلك، عندما لم يد أن من الممكن للقصص أن تنتهي، وبدا أن إشباع الرغبة فيها وفي حميميات أخرى مستحيل.

قالت والدتي وهي مستلقية أقرب ما يمكنها من دفئه الخارق، ورأساهما متقاربان: أتذكر المرة الأولى التي زارتني فيها أختك بعد حفل الزّفاف. حدّقت أخته في أساور والدتها الذهبية التي كانت جزءاً من هدية الخال هاشم لها بمناسبة الزواج، بطريقة قيّمها فيها بشكل واضح لدرجة أنّه لم يسع والدتي غير الضّحك. وكأنّها وزنها بعينيها اللّتين تجوّلتا بعدها في أرجاء غرفة الاستقبال تنظران إلى السّجاد والمرايا والمزهريات الرّجاجية المنحوتة التي اشتراها والدهما كديكور أوّل ما أثّث منزله الجديد. رغم فظاظة التّقسيم، كانت والدتي ما تزال تميل إلى حبّ أخت زوجها بسبب ما روى لها زوجها عنها من قصص. ضحكا لسخافاتهما، ثمّ شرح لها مبرّراً مدى فقرها هي وزوجها. وأنّهم كانوا في الأساس أناساً فقراء طوال حياتهم. منزلهم في الرّيف مكتظّ وبدائي، لا يحتوي غير غرفتين ومتجر. كان والداه ينامان في غرفة، بينما ينام إخوته الثلاثة على حصيرة في الغرفة الأخرى. بينما كانت أخته تنام في الرّدهة. لم يوصل المنزل بالكهرباء، وكانوا يستسقون من البئر المحفور في طرف الفناء، فيما كانت هنالك حفرة

مرحاض في الطّرف الآخر من الفناء الخلفي. في ذلك المنزل، نضح كل شيء بالضيق والفقر.

لذلك لم تبال والدتي أوّل الأمر بالتّفحص الوقح الذي خصّتها به أخت زوجها. لكن عندما بدأت في القدوم إلى المنزل قبل وقت الغداء بقليل، ثمّ لم تكتف بفعل ذلك مرّة أو اثنتين فقط، بل ما يقرب كلّ أسبوع أو نحوه، لتطلب من الخال هاشم أن يساعدها في تسديد الإيجار، أو لتقول إنّ زيت الطّهي قد نفذ منهم، أو أنّ صندل زوجها تقطّع وأنها لم تكن تعرف متى سيتمكنه الحصول على صندل آخر، شعرت والدتي بالإهانة من استعراضها. فقد جلبت العار على زوجها الذي لم يكن على علم بتلك الزيارات لأنّ أحداً لم يخبره، والتي كان مسؤولاً عنها بطريقة أو بأخرى.

لم يبد الخال هاشم منزعجاً منهم. كان يحيّي عمّتي بأدب كلّما أنت للزيارة، يسأل عن صحتّها وصحّة عائلتها وهو يمنحها ما جاءت في طلبه. كان يعطي والدتي المصروف المنزلي اليومي كما كان يفعل خلال أعوامهم الماضية (وأحياناً يُحضر بعض الأسماك الطّازجة زيادةً على تلك التي كانت تشتريها يومياً)، كما كان يعطيها شهرياً بعض المصروف لنفسها ولأبي. كان ببساطة يعطيها المال، دون تقديم أيّ تفسير أو المطالبة بأيّ حساب. أمسكي، خذي هذا. وتمسك والدتي القصاصات التّقديّة في جوف يديها وتفهم. صارت نسوةً عرفتهن منذ سنوات تحت اسم العمّة فلانة وبيبي علّانة يزرنها بصورة ملحّة، يقصصن قصصاً مثيرة للشفقة عن أقراحن من أجل صدقة صغيرة. سمحت لها أموال الخال هاشم بالتّصرف بكرامة تجاه أولئك الأمّهات المسنّات. حتّى رسوم والدي سُدّدت من تلك الأموال أيضاً،

كما أتت القمصان والسراويل الجديدة التي اشتراها لارتدائها إلى الكلية، وكذلك قطعة قماش غريبة اقتنتها ذات يوم لتخيط منها بلوزة جديدة لها. أحياناً، كانت أمي تقترح شيئاً ظننت أن من الأجدر لأبي الحصول عليه: صندل جديد بمناسبة العيد، أو محفظة أخرى لكتبه؛ مرةً أعطته حزاماً جعلت الإسكافي يصنعه خصيصاً له. كان الإسكافي الذي صنع له الصندل نفسه، مقبضي بآتم معنى الكلمة مصنوع من جلد ناعم جميل، والذي رفض أن يقبض أجرته عندما ذهب لاستلامه، قائلاً أنه سيسوّي الأمر مع الخال هاشم. عندما كان يتبادل التّحيات مع الناس في الشوارع، كان يسمعهم يقولون في ظهره إنه صهر الخال هاشم - مكويوي واك - وأحياناً يطلبون منه أن يذكرهم في مجلسه، ويقدم له تحياتهم.

حدث أنه أصبح شيئاً فشيئاً، على امتداد سنة أو ما يقارب، يخاف الخال هاشم أكثر فأكثر. لطالما أرهبته ثقته من نفسه، أما آنذ، فقد صار يخشى سخطه واستيائه، واقتنع في صميمه بأنّ الخال هاشم لم يكن يكنّ له غير الازدراء. لم يكن ذلك شعوره على الدوام، ولم يكن ذلك بسبب أيّ شيء قاله الخال هاشم، رغم أنه كانت له طريقة في الابتسام وجدها قتالة قامعة. حتّى أنّهما كانا يجلسان معاً في بعض الأحيان، يتبادلان أخبار يومهما أو قصصاً سمعاها في الشارع، غير أنّ الجلّي كان أنّ الخال هاشم دائماً ما فضّل لتلك المحادثات أن تكون مقتضبة. أحياناً، كان والذي ينسى خوفه وشعوره بالتّبعية. ولعلّ ذلك كان يحدث عند وجوده في الكلية وهو منغمس في العمل أو يلعب باستماتة. أو عندما كان يختلي في غرفتهما تائهاً في أحد الكتب التي استعارها من أصدقائه، أو عندما كانت والدتي تأتي لتستلقي بجانبه

في العتمة عند نهاية المساء. غير أنه عاجلاً أم آجلاً وبشكل يومي، دون دراما أو طبيعة مباغته، صارت تثور بداخله مشاعر الفزع والبؤس تلك من مكان ما بداخله وتتصاعد، جاعلة إياه يشعر وكأنه يغرق. ثم يشعر بكتفيه تسقطان وصدره ينقبض، ثم بألم غريب يلمّ بصدغيه، فيرمي بكتفيه للخلف ويخطو في اتجاه أو في آخر، يوتّخ نفسه ويصفع فخذيه (خلسةً، خشية أن يُظنَّ به الجنون، وكذا أنه كان فعلاً مشيراً للشفقة)، محاولاً تحرير نفسه من شعوره بالاختناق. لكنّه بعد بضع خطوات غير منضبطة، كان يتباطأ ويشعر بأنه يستعيد هدوءه. كان كلّما فكّر في نفسه وكيف سارت أحواله، يشعر بالاحتراق غضباً.

عندما علم بزيارات أخته للتوسّل، والتي كان لا بدّ وأن يعلم بها إن عاجلاً أم آجلاً، شعر بالخجل لدرجة أنه لم يتمكّن من العودة إلى المنزل لساعات؛ في البدء هرع نحو منزل أخته بدلاً من ذلك، غير أنه عاد أدراجه دون مواجهتها. فقد هدّأته مجاري الوحل التي تعرّجت عبر أزقة المنطقة التي كانت تسكنها، وأكوام القمامة التي تجمع الناس بجانبها يتحادثون، قمامة كان الدجاج ينقرها ليققات. ما سبب عجزه عن الاكتفاء بمحاكاتها؟ لماذا لم يكن قادراً على الاستفادة بأقصى ما يمكنه من النعمة التي نزلت عليه؟ ما الذي جعله بائساً إلى ذلك الحدّ؟ عند عودته، عبس في وجهه والدتي، وسألها كيف أمكنها أن تتحمّل شحاذاً كريبه الرائحة مثله. لم تأتبه ولم تهدّئ من روعه، فهي لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك. جلست قبالة بعينين لامعتين ونظرت إلى الرجل الذي أشرق لها ذات مساء في الظلام وهو بصدد التحوّل إلى رجل تسكنه المرارة والخوف من العالم. وتضاءل حبّها له مع مرور كلّ يوم من أيام بؤسه ووحدته.

وكان ذاك حالهما حين ولدتُ. أتت أخت والدي في اليوم الذي تلا الولادة وطرحَتْ فرشتها على أرضية غرفة والديّ لتمكث لعدة أسابيع. وأقضي والدي إلى غرفة الاستقبال، حيث فرش حصيره ليلاً ليلقّه في الصّباح حتّى تتمكّن والدتي من استقبال الضيوف هناك. تولّت عمّتي مسؤولية الطّبخ، والمنزل، والدتي ومسؤوليتي أنا. طُلب من والديها الحضور لرؤية حفيدهما، ورؤية كيفية إشرافها على منزل الخال هاشم. حتّى الخال هاشم تغيب طوعاً، رغم أنّه حرص على إعطاء أمي مصروف المنزل اليومي وقاوم محاولات عمّتي لجعله يثق في اقتراحاتها لتحسين حياتهم. كان من الممكن لتلك الفترة أن تكون استراحةً مريحة لو عرف والداي كيف يتخلّصان منها، غير أنّهما لم يستطيعا فعل ذلك. انسحب والدي في حالات صمت قاتمة، فيما كانت والدتي منشغلة بما يكفي في التعامل مع الأشياء الغريبة التي طرأت على جسدها والاستماع إلى النّصائح التي ما انفكّت الزائرات عن إسدائها لها. في النهاية، أخبر الخال هاشم عمّتي أنّ الوقت حان لتعود للاعتناء بزوجها، وأكّد لها أنّنا كنّا سنتدبّر أمورنا كما استطعنا بمفردنا. غادرتُ على مضض، لكنّها عادت على أيّ حال بشكل يومي. إذا ما كان ثمة شيءٌ يجب القيام به كانت تقوم به، مضاعفةً شعور الجميع بالامتنان لها. ثم كانت تبقى حتّى وقت الغداء، وتأخذ حصّةً من الطّعام لها ولزوجها قبل أن تغادر واعدةً بالعودة غداً. أكّدت أنّها ستشعر بالاستياء الشّديد من فكرة أنّ زوجة شقيقها وابنها (وذاك أنا) يحتاجانها في شيء ولا يجدانها. وجدت والدتي تلك الزيارات اليومية ثقيلةً مرهقة، وحاربت بصمت لاحتوائها والتّقليل من وتيرتها. وقد نجحت في ذلك إلى حدّ ما، لكن ليس بشكل كاملٍ مطلقاً،

لذلك وللسنوات التي تلت، أكلت عمّتي وزوجها الغداء من مطبخنا، وتعيّن عليّ قبول أن تدعوني ابنها. وقد كرهت والدتي ذلك شرّ كره، وفعلت ما في وسعها لمنع عمّتي من مداعبتي أو احتضاني. كان لمداعبتها وحضنها إحساسٌ مؤلم، لذلك انحزْتُ إلى جانب أمي بهذا الخصوص. حين مغادرة عمّتي لما تبقى من اليوم، كانت تترك والدتي بائسةً متعبة، مُناها أن تُترك وشأنها كي تبكي إحباطها ووحدها.

ثمّ خيّم صمّتٌ جديدٌ على حياة والديّ. بحلول تلك الفترة، كان والدي يدرّس في مدرسة في الرّيف، يغادر باكراً في الصّباح ولا يعود إلّا في وقت متأخّر مساءً. لم يكن ما في الأمر أنّهما توقّفا عن التحدّث مع بعضهما كسابق عهدهما، إنّما استبدلت طريقيهما في إظهار عاطفتهم لبعضهما بودّ روتيني وسخط متزايد. كانت والدتي امرأة ناعمة الكلام، وغالبًا ما اتّخذ سخطها شكل الصّمت والانسحاب. أمّا عن لوالدي، فقد تصلّب بؤسَه وتطوّر ليمسي شيئًا مختلفًا تمامًا عما كان في سالف عهده.

قلتُ لإيما إنّي لا أستطيع أن أفهم تمامًا كيف صار والدي على ذلك النّحو، أو سبب سماحه لخوفه من التّبعية بأن يتغلّب عليه كما فعل. غير أنّ كلّ شيء كان حينئذ بالنّسبة لإيما قمحًا لطاحونة اهتمامها، ودون أن تعطي الأمر مزيدًا من التّفكير جزمت: «لقد كان يكره نفسه. لأنّه لم يكن له على حياته من سلطان».

سلطان! كانت تستعمل كلمات من هذا القبيل حتّى آنذاك، كلمات تومض وتتألّق جاعلة كلّ شيء يبدو مختلفًا. «لكن ليس لديّ على حياتي من سلطان، لكن هذا لا يجعلني أكره نفسي بسبب ذلك». نظقتُ كلمة سلطان بتأكيد نبرةٍ مبالغ فيها، لذلك لستُ أدري إن كانت

النّظرة الطّويلة المشكّكة التي حدّقت فيّ بها بسببها، أم لأنّها شكّكت فيّ كوني لم أكن أكره نفسي حقيقةً.

«هذا هو حال الرّجال. في البدء يسمحون لأنفسهم بالانجرار خلف إغراء الوقوع في الحب. وعندما تتعقّد الأمور، يلومون المرأة على الإيقاع بهم ومن ثمّ إجبارهم على التّخلي عن حرّيتهم وطموحاتهم. لأنّ هذا كان ما فعله، أليس كذلك؟ أعجبتّه الفكرة العامّة إجمالاً، تلك الفتاة الجذّابة التي تنظر إليه من خلف شجيرات الورد. وبسببها وجدّ نفسه مسجوناً مرّة أخرى، وسقط في براثن عمّك الرّهيب».

قلت لها: «لا بدّ وأنّه كرهها إذن».

أجابتنني: «لا بدّ وأنّه فعل»، وهي تشب من السّرير (وقد كنّا مستلقين) وكأنّها قبضت عليّ في الجرم المشهود. «لكنّه كره نفسه أكثر لأنّه كان بما يكفي من الحمق ليرك نفسه يقع في الفخّ، ولأنّه أدرك مدى حمقه. وما زاد الطّين بلّة وجود خالك وعمّك الجشعة اللّذين كُفّا من حدّة العقدة الأوديبيّة التي لم تُحلّ بمغادرته منزل والده». ثمّ هزّت رأسها باتجاهي متصّرةً، وعادت للاستلقاء.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قابلتُ إيما في مطعم الكوستميري غريل الواقع بشارع بريمرز، في منطقة ال SW 19 (11). وهو المكان الذي سيصبح لاحقًا حانة إيلسمير، لكنني قابلتها هناك قبل تحويله. كنت قد بدأت العمل كجال للمصّحون في المطعم لما يقارب الشهر عندما أتت للعمل فيه كنادلة. وإليك كيف صادف أن صرتُ أعمل هناك. آنثذ، كنت أعيش في غرفة إيجار تقع في توتينغ، في طرفها الجنوبي، قرب التقاطع الكبير بين كوليرز وود وويمبلدون. في منزل ملاصق⁽¹²⁾ يملكه جمايكي كان يعمل بناءً، والذي قام بالتعديلات بأسلوب مبدع ومتفرد. لذلك، وعلى الرغم من أنني لم أحز على أيّ مكان في الغرفة أضع فيه الملابس، لا أدراج ولا خزانة، كان لديّ فيها دشٌ مدمج. كان في السّابق خزانة. ولكن مالِكٌ أقلّ ميلًا للمغامرة غيره تركه مكانًا لتعليق معطف، أو قمصان أو لوضع الملابس المتسخة. كان للغرفة أيضًا مروحة شفط كهربائية، تشغل بعدّاد. «لا داعي لفتح النّافذة بعد الآن»، أوضح المالك، «إنّه بلدٌ ملعون وباردٌ بشكل قاتل، يا فتى. وعندما تقلي سمك النّهاش، ليس من الضّروري أن تنبعث رائحته الكريهة في جميع أرجاء المنزل».

كان المشي إلى غاية حديقة ذي كومون ترفيهاً رخيصاً إذا ما استطعتُ تجميع ما يكفي من الطّاقة للقيام به، كما كان مضعيةً كبيرةً للوقت، لكنّه جعلني أهرب من الحجرة المغبرة التي لم تكن رغم ذلك

(11) منطقة الجنوب الغربي.

(12) terraced house صفّ المنزل منزل مستطيل عموماً، لديه واجهة على الشارع وأخرى على الحديقة الخلفية، فهو ليس مستقل أو مبتعد عن المنازل الأخرى.

غير مريحة، وكذا من الواجبات الملحة التي طالبني معلّمِي بإنجازها. أثناء تجوالي بالقرب من الحديقة ذات صباح إحدى نهايات الأسبوع، رأيتُ لافتةً على نافذة المطعم تعلن عن وظيفة شاغرة: مطلوبُ عمال. شكّي كان في أنّ ذلك لم يعنني أنا. فقد كنتُ قبلها قد فقدت الثقة تمامًا في مدى حاجة أيّ كان لي، ولم أستطع تصوّر نفسي أنتمي لطاقي من العمال. كما أنّ شيئًا مهيبًا وصارمًا في الاسم وشكل كتابة الحروف على السبورة فوق باب المطعم أخبرني أنّ أصحابه سيكونون على شاكلة تلك الحروف نفسها، عابسين، معتدّين بأنفسهم، وعلى قدر كبير من تقدير الذات. غير أنني كنتُ في حاجة ماسّة إلى المال، ولم يُسمَح لي بالعمل - هكذا كُتِبَ على تأشيرة الدراسة الخاصّة بي. لذلك، طفت بالشارع مدّة نصف ساعة، مقتربًا من المطعم من زوايا مختلفة محاولةً منّي لجعله يبدو أقلّ غرابةً، ولكي أنقص من حدّة معاداته الظاهرية، وأجرب أن أقنع نفسي بالتخلّص من ضعفي. ثمّ في إحدى هجماتي، رأيتُ رجلًا نحيفًا بشكل مبالغ فيه يتّجه نحو باب المطعم حاملاً مجموعة من المفاتيح. نظر إليّ وابتسم.

«حسنًا، ماذا تريد؟»

بذكاء تقدّمتُ نحوه وسألت: «هل ما تزال هذه الوظيفة متوقّرة، إذن؟»

أجاب: «جلي الصّحون. ستبدأ في الحين. الدّوام من السادسة حتّى الحادية عشرة».

بحلول الوقت الذي ظهرت فيه إيما، كان حماسي للعمل قد تبخّر منذ فترة. وتقلّص في مجرد مياه قدرة ذهنية، أو أنّ مستعصية التّنظيف،

والاقتتات على الفتات. (نعم، كنتُ أكل من البقايا إن لم يعث بها الزبائن كثيراً). كان ركن المطبخ الخاص بي مضاءً بقوة حتى لا يفوتني على الأطباق شيءٌ من الشحم والأوساخ. أحياناً، جعلتني الأضواء أشعر وكأنني أسيرٌ في معسكر، محاطٌ بحشد من المستبدين الغاضبين الصّارخين، الساخرين. كان في البدء من المثير فعلاً مشاهدة مهارة الطّهاء، لا سيما سهولة تعاملهم مع السّكاكين، حركاتهم المحسوبة وبهجتهم، وكذا تفانيهم والتزامهم. لكنهم بدوا بعد مرور شهر مسعورين وتافهين، متهكّمين من زبائنهم، ومنافسين انتقاميين فيما بينهم، مستعرين في خلافاتهم وشجاراتهم، في الوقت الذي تبعثرت فيه العديد من الأدوات الخطرة في متناول أيديهم. اتضح أنّ الرّجل الهزيل هو بيدر، شيف المطعم؛ فوت-فوت⁽¹³⁾ كما كان يسمّيه شيف المعجنات الألماني في غيابه. كان بيدر ديكتاتور تلك المملكة، رجلٌ دائم التّدمر، عصبيّ، بطل المشاجرة بامتياز، عامِل الجميع وكأنّهم مخربون، مصمّمون على إفشاله في كلّ مسألة وشأن. ولكونه أبدى امتعاضه منّي كما أبداه من الجميع، جعلني ذلك أشعر بالراحة في البداية، وأنّي كنتُ واحداً من النّاس، رغم أنّي لم أكن أحظى بشرف أكل وجبةٍ مع بقية الطّاقم قبل افتتاح المطعم.

كانت إيما آنذاك في أوجّ جمالها، وأجمل ما كانت ستكون عليه، رغم أنّ أيّاً منّا لم يكن يدرك ذلك حينها أو حتّى يفكر فيه. كلّ مرّة كانت تدخل فيها إلى المطبخ في تلك اللّيلة الأولى، كان يلاقيها تصفير وأصوات الإعجاب، فيما ابتسمَ بيدر وكأنّه ربّ لكلّ هذا منذ البداية. كانت إيما مرتبكةً للغاية من استعراض الإطراء ذاك لدرجة أنها

(13) صوت الماكينة حين تتعطل ولا تصلح للعمل، سخريّة واستهزاء.

تعثرت بخجل أثناء أدائها مهامها، وعلى وجهها ابتسامة ثابتة، دمة تصالحية. لم ترَ أحدًا، ولم يبد أنها سمعت أيًا من العبارات الغزلية التي قيلت لها، لذلك وقفت ساكنة في حالة من الذّهل أمام بيتر عندما راح يوبّخها بطريقته المعتادة. بعدها بلحظة، ظننتُ أنها ارتعدت أو ارتجفت قبل أن تنصرف. ظلّت نظرة بيتر مسمرةً بظهرها لثانية، لكنه ما لبث أن نظر من حوله مهدّدًا ليرى ما إذا كان هنالك المزيد من التمرّد في الجوار. كانت تلك الأمسية نهاية أسبوع مزدحمة تعجّ بالوافدين، والجميع في حالة من التوتر. لم ألحظ أنها غادرت.

لم أرها بعد الحادثة حتّى يوم الثلاثاء الذي تلا، بما أني أخذتُ الأحد عطلةً وأخذتُ هي الإثنين. ثمّ ابتسمت لي وقالت إنها سمعت أني طالبٌ أيضًا. لا بدّ وأنّ بيتر هو من أخبرها. فقد كان يدلي بتعليقات رائعة بخصوص موضوع الطلاب الطّفيّلين، ورغم أنّه لم يسترسل أبدًا بخصوص سرّ هذا الطّرح المثير للاهتمام، لكن لا بدّ وأنّ طالبًا أجنبيًا قد أفقده كلّ إحساس بالذّوق الإنجليزي على أصوله واللّعب التزيه. على كلّ، وقفت إيما بالقرب منّي فيما كنت منشغلًا في حوضي الذهني (وقد كانت تلك ليلة هادئة) وتحدّثت معي. رأيتُ أنّه وعلى الرّغم من أن جمالها لم يتضاءل، لم يبق شيءٌ من العرض الذّكوري الأهوج كما حدث في أوّل ليلة عمل لها، وحدها العيون تباطأت عليها مترقبةً أدنى حركاتها. لعلّ شيئًا ما حدث يوم الأحد، أو أنّ شيئًا ما في تصرفها جعل الرّجال يشعرون بالسّخف. في كلّ الأحوال، وقفت قريبة منّي، متكئةً على المنضد تنقر السّطح بأظافرها بخفة. عندما كانت الأمسيات هادئة كذلك، كنت أحبّ أن أخفّت من الأضواء في زاويتي،

لأنقص من وهج تلك الأضواء الآسرة التي تذكّرني بالمعتقل. «أنا في الكلية الجامعية⁽¹⁴⁾. أدرس اللغة الإنجليزية».

«أنا في معهد التعليم⁽¹⁵⁾».

حاولتُ لكنّها أخفقت في كتم ابتسامة. كانت فائقة الجمال لحظتها، لذلك سامحتها في الحين دون تردد. أخبرتها أنني كنت أدرس لأصبح معلّمًا، فقط لتصحيحها حال راحت تعتقد أنني مشاركٌ في شيء أكبر شأنًا، مثل دكتوراه بحثية، أو في مشروعٍ عن الفشل في تلبية الاحتياجات التعليمية للأقليات العرقية أو شيئًا من هذا القبيل. كجندِي مثقّف من المشاة، أخبرتها ذلك بابتسامة مستنكرة للذات. الأفضل لك أن تستبق الأمر بالاعتراف بنفسك، حين يكون في الموضوع شيءٌ من التواضع والاتضاع، بدلًا من أن ينقلب عليك في غضب ولوم وسخرية. أمّا هي فكانت في سنتها الثانية حينها، وتعيش بجوار محطة مترو ويمبلدون. مرّت أمسية الثلاثاء ممتعةً للغاية بتلك الطريقة، على الرغم من أنّ بيتر وقف أمامي في مناسبتين ويداه على وركيه، وكوعاه للخارج، مؤنّبًا. فوت-فوت. استُدعيْتُ إيما للقيام بشيء ما، لكنّها سرعان ما عادت ووقفت بالقرب منّي مجددًا، متحدّثة عن عملها وأصدقائها ومكان سكنها. حقًا لم أتوقّع منها أن تعود، أو لعلّي حضرتُ نفسي كي لا أتوقّع عودتها، لكنّها بدت حريصةً على ذلك. حاولتُ أن أتصرّف بهدوء وبصورة طبيعية، أن أتحدّث بشكل عرّضي وألا أتركها تفلت منّي.

(14) كلية لندن الجامعية (يو سي أل UCL) كانت تسمى في الأصل جامعة لندن عند تأسيسها 1826، وتغيّر اسمها إلى جامعة لندن سنة 1907.

(15) يشير إلى معهد لندن للتعليم. The Institute of Education.

من الواضح أن شيئاً ما أغضب بيتر في النهاية، لأنه وقف أمامي مرة أخرى وقال لي إنّ بإمكانني أن أخذل الدولة إن أردتُ، لكنني لن أتمكن من خداعه. قال وعيناه تحترقان بما بدا يشبه بادرة دموع فيهما: «هذا هو نوع الحماقة الذي أصاب البلد، لم يكف للآلاف النزول من الطائرة والعيش عالةً علينا، لكنك لن تفعلَ هذا في مطبخي، أيها الشاب. مستحيلٌ أن يحصل هذا يا خوسيه. ليسَ وأنتَ على قيد الحياة. عُدْ إلى العمل يا بنيّ». ومع ذلك، لم يستطع انفجارُ الخطاب الشعري إخفاءً كربه. في تلك الفترة، كانت الصحف والقنوات التلفزيونية تعجّ بقصصٍ وصورٍ عن طوابير من النساء الهنديات وأطفالهن الصغار وهم ينزلون درجات سلم الطائرة المحمّل بالألعاب والهدايا، وعن أبهاء المطار المزدحمة بالسّاري والعمامات، وعن شبّان باكستانيين رشيقيّن شواربهم مخملية عُثر عليهم في صناديق شحن مرسلّة من روان باتجاه دارلينجتون (أو لعلّها كانت من بولوني إلى ديل)، وعن تزوير جوازات السّفر، وشقق مكتظّة، ونسب الجريمة المتفاقمة والموت بجرعات مفرطة من المخدرات، والزيجات الوهمية، والتّقارير عن معدّلات الذكاء المنخفضة خلقياً عند الأشخاص الملونين، وكلّ التنبؤات عن نهاية الحضارة كما نعرفها. لذلك، فهمتُ محنةً بيتر وشعرتُ بالأسف لكوني ولو جزئياً سبباً فيها. قد أكون قلتُ شيئاً مشجّعاً. ابتهج يا فوت-فوت العجوز، هم ليسوا أكثر كما يبدو، وقد أتوا إلى هنا وكلّهم حبٌّ لكم وطمعٌ في قربكم. بيد أنّه بدا على وشك الانفجار في إحدى نوبات توبيخه، رغم الرقة التي ظهرت في عينيه.

نظر إلى إيما، وبحركةٍ فظةٍ برأسه صرفها. وفي كلّ مرة دخلتُ فيها إلى المطبخ، كان بيتر يحدّق فيّ متحدّياً إيّاي أن أستفزه، لذلك

أبقيت عينيّ منخفضتين أو أشحْتُ بعيداً عنها. في الأخير، أتت عندما لم يكن في الأرجاء، ونظرتُ في عينيها ورأيت أنها كانت تضحك. غادرتُ عند العاشرة والنصف، تمتُّ ليلةً سعيدة للجميع ولوّحت لي بيدها.

عادت لتتحدّث معي على فترات طوال اليوم التالي، وابتسمتُ عندما فكّرتُ بأنّي سأقابلها لاحقاً في المساء نفسه. لم أتوقّع أنها قد تكون مهمّة حقّاً بشخص مثلي - لماذا تتسبّين بالمشاكل لنفسك؟ - كنتُ فقط أنطلّع لرفقتها والنظر إليها وهي تتحدّث معي. أوّل مرّة أتت فيها إلى المطبخ بعد وصولي، قدّمت الطلّية وأتت نحوي مبتسمةً.

سألّني: «متى ستنتهي من هذا؟»

فأجبته: «سأبدأ لاحقاً».

ثمّ قالت: «ظننتك لن تأتي اليوم»، قبل أن تخرج مسرعة. عند عودتها، اقتربت لتقول إنها مرّت أمام المعهد اليوم، وإنّ علينا أن نتقابل لتناول الغداء في المدينة يومًا ما؛ لم يعد بيتر يطبق رؤيتي مطلقاً. «أنت مطرود». صرخ في وجهي، «في الحين». طردَ إيما من المطبخ ثمّ شرع في إلقاء تيّارٍ من القذارة النّابية صوبي، قذارةٌ حاولتُ استعاراتها استحضرَ شهوتي المرّضية الخارجة عن السيطرة. شعرتُ وكأنّي على وشك الانفجار حين اكتسب وصفه تفاصيلاً وتعريقاً. لم أعترض على أيّ منها، لكنني علّقت المئزر البلاستيكي، قبلته على خديهِ وغادرت حتى دون أن أطالب بأيّ أجر. من يحتاج إلى سكّين قاطع بين أضلعه؟ سبق لي وأن رأيتُ بيتر يقطع حبّة خيار كاملة إلى شرائح في أقلّ من دقيقة.

هل أملتُ في أن تندفع إيما ورائي؟ ربّما، لكنّها بالطبع لم تفعل.
فكرتُ في البقاء في الأرجاء حتّى تنهي عملها، أو في الذهاب لتناول
مشروب والعودة عند العاشرة والنصف. كان جوّ الأمسية لطيفًا، تلك
الفترة من السّنة التي يتحوّل فيها الخريف إلى شتاء، مع تلك البرودة
الطّيفة في الهواء، المثالية لمشي سريع حول أطراف حديقة ذي
كومون. لكن قد يظهر شخصٌ ما أثناء تسكّعي، ويبدأ محادثة مليئة
بسحرٍ هجومي. ولم أكن في حقيقة الأمر أرغب في تناول مشروب.
وحدّهم المجانين والمجرمون والمغتصبون والانتحاريون يتجولون
ليلاً حول ذي كومون. لذا مشيتُ ليلتها عائداً إلى غرفتي، وكلّي يقينٌ
بأنّها واحدةٌ من تلك اللّحظات الحاسمة في حياتي، باكيًا كون رؤية
فوت-فوت ومفهومه عن الوجود المحصور في البيولوجيا قد حدّد
نهايتها المريّة. لانحصَرَ الأمر في هذا بلا شك، رغم أنّه استحال عليّ
تخيّل فكرة أنّه ما كان بإمكان إيما ألاّ تحدث لي، وأنّه كان بإمكان كلّ
شيء أن يصبح مختلفًا تمامًا، أن تعيش حياةً أخرى، أنّه كان بإمكانني
في تلك اللّحظة بالذات أن أعيش في الجهة الأخرى من الكوكب، في
مكان مقلوب رأسًا على عقب وأن أفعل شيئًا مغايرًا تمامًا. على أيّ،
وكما تعلم جيدًا، لم يحدث ذلك، وحدثت إيما لي.

وغيرتُ كلّ شيء. استيقظتُ في الصّباح وأنا اعتبر نفسي ذكيًا
وجريئًا، بدلًا من كوني غريبًا ومكتئبًا. ووجدت نفسي أقوم بأفعال على
غير عادة، بثقة مبتهجة: أدندن أثناء سيرتي، وأبتسم ابتسامة عريضة فيما
كان تقلصًا مهذبًا للشفتين كافيًا، وأجرب نظّارات شمسية في محلات
بوتس. وإذا ما شعرتُ أنّ أحدهم عاملني بشكل غير عادل أو لائق،

أطالب بكلّ ثقة بالاعتذار وردّ الاعتبار فوراً بدل الانصراف بقلب مثقل حزين وعيونٍ تتجنّب النظرات كما كنت أفعل. زادت مشاركاتي في مناقشات الفصل، وصارت هادئة ورصينة، أكثر نضجاً ونابعة من تفكير مليّ بدل من كونها نوبات نادرة، اندفاعية وعشوائية كتلك التي كانت تترك الجميع مندهشين وفي حيرة من أمرهم. ابتسم لي المعلّمون، وارتسمت على وجهي بغضب تعابير ذاك الواصل من أهمية شخصه. حتّى مقالاتي اكتسبت نبرة أكثر ثقة: واتّخذت موقفاً صارماً بشأن الإبداع والتّعلم على سبيل المثال، في حين كنتُ من قبل سأكتفي بتكرار الأفكار التقليديّة الأردوكسية المفرطة في الليبرالية بخصوص مسألة التعبير عن الذات في البرامج التعليميّة. وصفت معلّمتي وهي تلف وتدور مثل ملاك واقف على دُبوس⁽¹⁶⁾، هذا الموقف بأنّه كلاسيكي، ما اعتبرت أنّها عنت من خلاله أنّي غير متسامح، لكنّها منحت المقال درجة عالية.

لم أستطع تصديق العاطفة التي أظهرتها لي إيما، ولا الإطار الذي أغدقته عليّ. صارعْتُ للتّشبّث بهذا التشكيك، لكن ما بدا هو أنّه ما كان بإمكانني القيام بأيّ شيء خاطئ قد يُغيّر شعورها. كلّ مساءً (وكانت قد تخلّت عن عملها في مطعم الكوستميري غريل) كانت تأتي إلى غرفتي، حيث كنّا نطهو خلطات لا اسم لها ونتحدّث ونعمل ونلعب. بدا أنّ بإمكان المحادثات أن تستمرّ دهرًا. بالكاد قاطعتها أيّ وقفات، فقد اندمج كلّ شيء بسلاسة ودون عناء. صارت تلك

(16) إشارة إلى عبارة لاهوتية قديمة: كم عدد الملائكة الذين يمكنهم الوقوف على رأس دُبوس أو رأس إبرة، وهو استعارة عن إضاعة الوقت في مناقشة موضوع لا قيمة علمية له، أو سؤال لا تحمل إجابته أيّ نتيجة فكرية، بينما توجد في الحقيقة مسائل أهمّ، وطرق تعبير أفضل بكثير.

الأمسيات شديدة الانتظام لدرجة أنّ مالكة شقة إيمان، امرأة ودود لديها عددٌ لا حصر له من القواعد الحازمة بخصوص ما يمكن لنزيلاتها فعله، بدأت تشعر بالذنب لأنّها تقبض منها ثمن العشاء - رغم أنّها استمرت في تحصيله. أحياناً، كانت تقضي الليل معي، وكنا نهمس عبر الساعات الطوال، حتّى جزء متقدّم من الليل وأحياناً حتّى مطلع الفجر، وكأنّ الغد لن يشرق أبداً. قضتُ على إحراجي وتهوّرِي وجعلتني أضحك على آخر ما يمكن توقّع أن يضحكني، وعلى أشدّ الأشياء إيلاماً. كان حبّاً، حبّاً جامحاً متهوراً.

أخذتني إلى أماكن كنت لا ألمحها عندما أمرّ بها إلّا لمحة خاطفة بسبب الخوف: المكتبات المتخصصة في الكتب المستعملة، مقاهي النباتيين، حوانيت الصّاعة ونوادي الجاز - أماكن كنت أتوقّع أن أطرّد منها بققهقات مهينة ساخرة، أماكن أرهبتني طقوسها السّرية. حتّى غربتي بدت بالنسبة لها شيئاً بطولياً، في المقام الأوّل لأنّي كنتُ ضحيّة اضطهاد تاريخي، ما أكسبني تعاطفاً تلقائياً، وفي الثاني لأنّي (على حدّ قولها) كنتُ هادئاً في وجه جميع الاستفزازات، لا أحرك ساكناً، رصيناً غير مضطرب أمام كبش الفداء الذي مثله إغراء الوقوع في برائن التّطرق. حتّى أنّها جعلتني أشعرُ بأنّي هادئٌ، رصينٌ لا أنزعج بدلاً من أن أشعر بالضعف والجبن، كما كنت أظنّني في لحظاتي الأضعف. جذبتني كلياً إلى حلقة أصدقائها لدرجة أنّي كنت في بعض الأحيان أنسى نفسي وأتخيّلني أبدو كما يبدو، وأتحدّث كما يتحدّثون، وأنّي كنت أعيش الحياة نفسها التي يعيشون، وأنّي دائماً كنتُ على تلك الحال وسأستمرّ دون أن يوقفني شيء حتّى بعد أفول الشّمس.

لكن لم يكن يحدث هذا إلا نادراً، كنوع من تحقق لحظات شراكة روحية. ذلك أنّ غربتي كانت مهمة لجميعنا - كما كانت غربتهم لي، رغم أنّ الاعتراف بذلك - حتى لإيما - تطلب منّي وقتاً معتبراً. وقد زيّنتهم بسخاء ترحيبهم الودّي بي، وزيّنتني بسلطة على كلّ العالم الواقع جنوب البحر المتوسط وشرق المحيط الأطلسي. كما تغلب رأيي، ما لم يكن غير قابلٍ للتصديق تماماً، على جميع الآراء بخصوص تلك المناطق. ومن تلك البدايات، أصبح من الضروري فيما بعدُ اختلاق تلك القصص عن أعمال منضبطة وفشلٍ مأساوي. سُمح لي بمساحة كبيرة لدرجة أنّه لم يسعني ملؤها إلا بالاختلاق. لم أعتقد أنّه سيكون للتشويهاات الفوضوية لتجربتي الخاصة نفس تأثير قصص غرباء على شرفةٍ ينيها ضوء القمر.

خلال الأشهر الأولى تلك، بالكاد ذكرت إيما والديها، لكنّي كنتُ أعلم أنّهما يعيشان في بلاكهيث لأنّها كانت تذهب لزيارتها في بعض المناسبات العائلية الخاصة. كما كانت تتفاداهما إذا ما سألتُ عنهما. لا، لم تكن مهمّة بهما، بل بوالديّ أنا، أصدقائي، بلدي. وكنت فعلاً سعيداً جداً لتلبية رغبتها، لإعادة سرد القصص، والإسهاب فيها، تفصيلها، وتطويرها. في قصصي، وجدّتي أشرح تفصيلاً، أعدّله حتى يتوضّح تأثيره، أو حتى أضيف أحياناً تعديلاً يضيفي بعض السخرية ولمسةً من المرارة لما كان سيبدو عادياً جداً لولا ذلك. وجدتُ في فرصة إعادة كتابتي لقصّتي إغراءً لا يقاوم، وما إن بدأتُ حتى صار ذلك أسهل فأسهل. لم أتعمد أبداً الكذب على إيما أو تضليلها بدافع الازدراء أو اللامبالاة وقلة الاعتبار، مستغلاً إيّاها لكسب عاطفتها.

لا أعرف بالضبط لم بدأتُ في إخفاء أشياء، وتغيير أخرى، والاختلاق كل ذلك القدر. ربّما كان ذلك لأضع الأمور في نصابها الصحيح من منظوري، لأرتقي لما توقّعتُه منّي، ولأبني لنفسي ماضيًا أقربَ لخياراتي وأكثرَ انسجامًا معها من ذاك الحقيقي الذي أثقلتُ به؛ ولأنشبتُ بعاطفتها، لأروي لها قصّةً لا تصيبها بالملل. لاحقًا، كانت ستمسك عليّ تناقضًا وتحذق في حينها مطوّلًا وأنا أتخطّط مثل مخلوقٍ رماه البحر على الشاطئ، أتلوّى في تشابكٍ من صنع يديّ.

تجلّى أمامي الخال هاشم وأبي في هواء منتصف الليل، عندما بلغ صوتي نبرةً مرهقةً ووجد صداه في قصّة فشل الحبّ التّافه.

لا بدّ وأنّي كنت قد بدأت ارتياد المدرسة منذ بضع سنوات عندما بنى الخال هاشم لنفسه منزلًا آخر على الجانب الآخر من الطريق، مع متجر واسع في الطابق الأرضي، وشقّة فسيحة في الدور العلوي زيّنتها شرفةٌ درابزينها حجرية أطلّت على الشارع الرئيس. أطلّت إحدى نوافذ غرفة الاستقبال في الشقّة القديمة على منزل الخال هاشم الجديد، وإن كان من زاوية مائلة. بدأ الناس يتحدّثون عن استعداد الخال هاشم للزّواج، بيد أنّه قرّر الانتقال للعيش هناك لأسباب تجارية، أو لأيّ سبب آخر كان. باشر بافتتاح محلّه لبيع الأدوات الكهربائيّة قبل أن يتزوّج ابنةً تاجر آخر يدعى ناصر عبد الله، رجلٌ أكنّ له الخال هاشم كلّ الاحترام وخالص الصّداقة. بدأ أنّه لم يمض سوى وقت وجيز جدًّا قبل أن تنجب زوجة الخال هاشم الجديدة ابنًا فبنتًا، تبعًا، في الوقت الذي اكتسب فيه زوجها شهرةً بأنّه صار هائجًا بالقرب من جميع النساء

اللاتي كنَّ يمررن بجواره. وابتسمَ النَّاسُ ضاحكين على الشَّهوات التي لا بدَّ وأنَّ زوجته قد أيقظتها فيه.

عاش والدائي في الشَّقة القديمة دون دفع إيجار. كان والدي معلِّمًا لمادَّة التَّاريخ في المدرسة التي درستُ بها، أكبر ابتدائية في المدينة. وقد درَّس الفصول المتقدِّمة، الصَّفَّ السَّابع والصَّفَّ الثَّامن، حينما انتقل الخال هاشم للعيش بمنزله الجديد كنتُ ما أزال بالصَّفَّ السَّادس، لذلك لم أكن بعدُ قد درستُ عنده. كان معلِّمًا جدِّيًّا وصارمًا عندما تعلَّق الأمر بعمله، رغم أنَّه عُرِف بتسامحه مع مفضَّليه الذين كانوا على الدَّوام الهادئين والمجتهدين الطَّلاب. بدا أنَّه أنْذ أنَّ تينك السَّمتين متلازمتان، إذ كان الأذكىء من التَّلاميذ هادئين وصغيري القامة، فيما كان المشاغبون ضخامًا وصاخبين. كنتُ هادئًا وصغيرًا. سرَّتْ شائعات تقول إنَّ والدي سيُرسل إلى الجامعة في ماكيريري لتدريبٍ داخلي حتَّى تصبح ترقيته للتَّدریس في مدرسة ثانوية ممكنة. كنَّا في تلك الفترة ثلاث أو أربع سنوات قبيل الاستقلال، غير أنَّ غالبية مدرَّسي الأقسام الثَّانوية في البلاد كانوا أوروبيين، معظمهم بريطانيون، لكنَّ عددًا قليلًا منهم أتوا من مستعمرات الجنوب الاستيطانية. ساد الاعتقاد بأنَّهم يملكون الخبرة اللازمة، علاوةً على ذلك، كان من الضَّروري جعل الفتية والسَّيدات يحصلون على وظائف، وإلاَّ فما الهدفُ من وجود الإمبراطورية بالأساس؟ وبالطَّبع اقتطعت رواتبهم ممَّا فُرض على المستعمرة من جباية. وهكذا، أرسل المكتب الاستعماري عشرات من عباقرة (أو هكذا ظنُّوا أنفسهم) خريجي أوكسبريدج⁽¹⁷⁾ في معظمهم، إلى أقاصي الكوكب، لردع وإخضاع الأنديجان ومساعدتهم على فهم

(17) اختزالٌ وجمع لجامعتي أكسفورد وكامبريدج.

واستيعاب المعادلات المتزامنة، موروث شكسبير الأدبي، وكذا تاريخ الرومان في بريطانيا. لم يحظ والذي بفرصة الذهاب إلى ماكيريبي أبدًا، إلا أنه تمكّن من التدريس في الثانوية.

توسّعت عائلتنا بعد انتقال الخال هاشم. وتشارك ثلاثتنا - أكبر وحليمة وأنا - غرفة الخال هاشم القديمة. كان من غير المعتاد أن يُسمح لفتاة مشاركة غرفة مع أشقائها، لكنّ حليمة كانت صغيرة جدًّا، لم تتجاوز الثالثة من عمرها، واعتقدت على أيّ حال أنّها صبيّ. اقتنى والدي لنفسه راديو ترانزستور، والذي احتلّ طاولة زاوية جديدة في غرفة الاستقبال. كما أنّه أخرج بعضًا من كتبه، وعلّق صورة مؤطرة للكعبة والمسجد الحرام في مكّة المكرمة. في المساء، كان يشغل تلك الغرفة في روعة منعزلة، باحثًا عبر المحطّات التي تُبثّ على الموجات القصيرة عن أيّ أشياء محتملة قد تهّمه، يقرأ كتبه، ويصحّح الامتحانات. كان بإمكانه الجلوس هناك لوحده المساء بطوله. ذاك ما اعتقدنا أنّه أراد. وإذا ما خرج لسبب ما، أو تأخّر في المقهى، كنّا ندنّس ذلك المكان المهيّب باستماعنا لمحطّة الإذاعة المحلية، والتي كانت تمرّر في تلك الفترة من المساء طلبات المستمعين، وتعيد بثّ التمثيلية المسموعة التي أُذيعت في وقت سابق من ذلك اليوم.

كانت أمّي تجلس معنا حينها، على الرّغم من أنّها لم تكن تجلس أبدًا في غرفة الاستقبال مساءً. عندما تنتهي من أعمال التّنظيف بعد العشاء، كانت تقوم بأشغال صغيرة أخرى لفترة من الوقت - تخطيط، تنقع الملابس لغسلها في الصّباح، أو تكوي أزياءنا المدرسية مع بداية الأسبوع. بعدها، كانت تخرج إلى الشّرفة وتمتدّد في العتمة كما اعتادت دومًا. كانت شجيرات الورود والخزامى قد اختفت.

فقد اجتمع مرض شجيرات الورود ووجود الأطفال الصغار على قتلها. أما صناديق الكيوسين الصّدئة فقد ظلت هناك، ملأى بالتراب، لكنّه ترابٌ جفّ وتشقّق وتكدّس في قوالب أشبه بالطّوب؛ غُرس في أحدها صَبّار شائك ومرّ، كانت والدتي قد غرسته مِنْ قَطْعٍ منذ عدّة سنوات، صَبّارٌ فركت نسغه الأبيض في وقت لاحق على حلمتيها عندما أرادت فطامنا.

كانت دائماً في رويّة من أمرها، عذبة الكلام، مع لمسة من الفكاهة السّاخرة في صوتها، وطريقة في ضمّ شفّتيها جعلتها دائماً تبدو وكأنّها تدافع ابتسامة. عندما كنت أصغر سنّاً، أحببت ذلك الهدوء في والدتي، وفترات الصّمت التي كانا يحملانها معهما، والطّريقة التي تفاعلا بها في حضور بعضهما الملائمة للغاية. ولم أدرك إلّا لاحقاً أنّهما نادراً ما كانا يقولان شيئاً أحدهما للآخر، وأنّه نادراً أيضاً ما كانا يجلس أيّ منهما بالقرب من الآخر، وأنّهما كانا يتجنّبان بعضهما حفاظاً على السّلام.

بصفته موظّفاً حكومياً، لم يكن مسموحاً لوالدي الانضمام علناً إلى حزب سياسي، أو أن يصبح ناشطاً سياسياً. ونظراً لأنّ النشاط السياسي تمثّل أساساً آنذاك في التّحريض على طرد السّلطة الاستعمارية، لم يكن من الصّعب تخمين سبب اعتقاد الإدارة أنّ من الصّواب التّصرف بتلك الطّريقة الاستبدادية. ولم يُحدّث الأمر اختلافاً كبيراً. كانت السّياسة ما مارسه الجميع وتحدّثوا عنه: في الشّوارع، في المقهى، في المدرسة، في المنزل. زار البعض وشمّتوا مبتهجين أمام ضعف

مناورات المستعمرين، هاتفين بعبارات بذينة إذا ما مرّ المسؤولون الأوروبيون أمامهم وهم صامتون، لا يظهرون أيّ ردّة فعل. لم تكن تلك معاملةً اعتاد المسؤولون على تلقّيها، وتعاملوا ومعهم معلّمونا الأوروبيين مع ذلك العداء بتجاهله بوجوه ثابتة الملامح لا تعرف التأثير. حتّى أنّ السيّاح القلائل النازلين من الرّحلات البحرية ليتوقّفوا كالاعتاد وقفّتهم التي كانت تدوم يومًا واحدًا، تلقّوا بدورهم جزءًا من ذلك العداء؛ وتبعّتهم مجموعات الأطفال السّاخرين في الشّوارع، كما التقوا بمحلّيين غير متعاونين بشكل مشاكس إذا ما توقّفوا لطرح أسئلتهم الجاهلة بابتسامتهم المعتادة. آخرون، مثل والدي، كانوا دائمي الاستعداد لتقديم نصيحة باحترام أكبر. كان والدي يحبّ القول إنّّه يجب أن يكون لديك نوع من الحسّ التاريخي وأن ترى ما يختبئ وراء كلّ هذا، بدلاً من الاكتفاء بافتراض أنّ مجموعةً من المتظاهرين والمتسكّعين المزمّنين في المقاهي الصّاخبين كانوا سيطرّدون جيوشًا بينادقها وأساطيلها البحرية وطائراتها النّفاثّة. لم يقل هذا الكلام علنًا في المقهى، لأنّه لم يكن سيّقابِل هناك إلّا بقهقهة ساخرة. ما الذي كان يحدث في الجزائر إذن؟ ما كان يطرد الظّالِم بعيدًا حسب اعتقاده إن لم تكن احتجاجات المضطّهدّين الحازمة؟ هل بدت على الفرنسيين أيّ رغبة في المغادرة؟ كان يقول كلماته الحذرة عن ضرورة التّحلّي بحسّ تاريخيّ في المنزل، إذا ما استذكر شيئًا سمعه جعله في وقت سابق ساخطًا.

تابعنا انسحابات استعمارية أخرى كما لو كنّا نتابع تسجيل الأهداف أثناء مباراة: غانا، نيجيريا، الصومال، الكونغو، السنغال، مالي، ثمّ ما كان أقرب إلى الوطن: تنجانيقا، أوغندا - والعديد منها كانت أماكن

توشك كوارث مذهلة على الحدوث فيها. في الشوارع، تجادل الناس حول تفاصيل المؤتمرات الدستورية التأسيسية، بينودها التي فضلوها حول هذا الموضوع أو ذاك، حول أعلام جديدة وأناشيد وطنية جديدة، وحول تصاميم الطوابع البريدية. ملأ القادة الأبطال الخيال الشعبي دون تمييز: كوامي نكروما، أحمد سيكو توري، باتريس لومومبا، جومو كينيا. كما ظهرت للوجود خرائط جديدة تعيّنت دراستها، أسماء جديدة وبلدان جديدة بدت وكأنها تنبثق بصلابة لا تُصدّق من الكتلة غير واضحة المعالم التي كانت في السابق إفريقيا.

لكن السياسة جلبت أيضاً أشياء مروّعة إلى السطح وأظهرتها. كنّا نحبّ أن نعتقد أنفسنا أناساً معتدلين ولطفاء. عرب، أفارقة، هنود وقمريون: عشنا جنباً إلى جنب، تشاجرنا وأحياناً تزوجنا فيما بيننا. متحضرون، ذاك ما كنّا. أحياناً أن نوصف هكذا، ووصفنا أنفسنا هكذا. لكننا في الواقع لم نعد كُلاً ولو بشكل طفيف، بل صرنا نَحْزُنُ، كتلاً متقاسمة كلٌّ في ساحاته المنفصلة، منغلقيين في غيتوهاتنا التاريخية، متسامحين مع الذات ونغلي بداخلنا من عدم التسامح والعنصرية وكره الآخر. وقد فضحت السياسة كلّ ذلك وجلبته إلى العلن. لم يكن الأمر أننا لم نكن نعرف تلك الأشياء عن أنفسنا، عن العبودية، عن انعدام المساواة، عن الازدراء الذي كان يتحدّث به الجميع إذا ما تطرّقوا البربرية الوحشيّ الذي أُسر من داخل البلاد وأحضر للعمل على جزيرتنا. كنّا نقرأ عن هذه الأشياء في كتب تاريخنا الإستعماري، لكن فيها، بدت هذه الأحداث سخيّة بشكل مضحك، وبعيدة كلّ البعد عن الطّريقة التي عشنا بها، وأحياناً بدت كأكاذيب مبالغ فيها ضخّمت نفسها بنفسها. لذلك، عندما حان الوقت للبدء في التّفكير في أنفسنا،

في المستقبل، أقنعنا أنفسنا بأنّ الأشخاص الذين كانوا عرضة لتلك الإساءات لم يلحظوا ما حدث لهم، أو أنّهم غفروا ما جرى وأنهم يودّون الآن تبني خطاب جديد عن الوحدة والقومية. وذلك للدّخول في تسوية ناضجة تكون من صالح الجميع. غير أنّهم لم يغفروا. أرادوا مجدداً في مظلمتهم، في وعود بالانتقام، في قمعهم السّابق، في فقرهم الحاليّ وفي نُبل بشرتهم الأدكن لونا. على الخطاب القومي لخصومهم، ردّوا بخطاب ساخر عن أفريقيّتهم المحترّقة، وسخروا من القوميّين بسبب ضميرهم الذي لم يكتشفوه إلّا حديثاً، ووعدهم بمحاسبة في المستقبل العاجل. وهو الشّيء الذي تحقّق بسرعة لا تصدّق.

قبل تلك الفترة، كان لا يزال يتعيّن علينا عقد مؤتمراتنا الدّستورية الخاصّة بنا في لانكستر هاوس، ووضع بنود الحماية الدّقيقة الخاصّة بكلّ أقلية هشة؛ وكذا مناقشاتنا للتّواريخ المحتملة لتحريرنا، وفي المستقبل البعيد (كما بدا لنا حينها في تحرّقنا له) احتفالات اليوم العظيم نفسه. كانت أيضاً أعمالُ شغب أثناء العملية الانتخابية ستقع، ولجان تحقيق ستؤسّس للبحث في أسباب أعمال الشّغب، وفصح مؤامرات، ومحاكمة من حرّضوا على الفتنة، ووضع خطط متقنة لنقل السّلطة، وخلق علم جديد وتأليف نشيد وطني، واللّذين ظهر كلاهما بأعجوبة من مكتبٍ في لندن.

تبرّع والذي بالمال لحزب القوميّين سرّاً، خوفاً من أن يُطرَد من وظيفته إذا ما أقدم على فعل ذلك علناً. أصبحت أخت والذي واحدةً من أشدّ مناصري الجناح النّسوي للحزب، تنظّم، وتخطب بعداوة، تطرد النّاس، تقود التّرايّم والزّغاريد والتهليلات، وقد تمتّعت

فعلاً بقيامها بذلك حسب ما ردّدت الشائعات عنها. في الحقيقة، كان الأمر أكثر من مجرد إشاعة، كما رأيتُ بأمّ عيني. حين أرسلتني والدتي ذات ظهيرة أحمل رسالةً إلى منزلها، والذي لم يبق تلك الغرفة الوحيدة الواقعة في الحيّ الفقير حيثُ كانت تعيش برفقة زوجها، بل صار شقّةً في الطابق الثالث في حيّ هادئٍ من المدينة انتقلاً إليه مؤخّراً. تحسّنت ظروف كليهما. وكما جرى العرف ألاّ يُقفل الباب الرئيسي أبداً إذا ما كان المرء بالداخل، دخلتُ دون تردّد إلى شقّتها منادياً بكلمة طلب الإذن، هُودِي⁽¹⁸⁾. لا بدّ وأنها لم تسمعني، لذلك ومع قلبي هودي مرةً أخرى، سحبْتُ ستار غرفة نومها. وبمجرد أن فعلت، قفزتُ عاريةً من السرير وأفلتُ الستار لكن ليس بالسرعة التي تحجب عني رؤيةَ مدرّب فريقنا المحليّ مستلقياً على السرير عارياً تماماً. رأيتُ أيضاً كم كانت عمّتي وبشكل غير متوقّع البتّة رشيقةً في عريها، كم كان جسدها ممتلئاً حسن المفاتن. هربتُ قبل أن تخرج وأخبرتُ والدتي أنّي لم أجدها. وقبل أن أخبر إيما بذلك، احتفظتُ بسرّها.

لكن على الرّغم من انشغالها، لم تتجاهل عمّتي والدتي التي حضرت بتشجيع ملحّ منها كلّ تجمّع نظّمه القوميون في المدينة، تجمّعٌ كان يُعقدُ مرةً في الأسبوع، تزيد أو تنقص. انضمتُ والدتي إلى حشد النساء اللاتي كنّ يمشين وهنّ يغنين إلى غاية أعمق معقلٍ للمعارضة إن صادف كون ذلك مكان التّجمع. وكان ذلك غالباً لاستفزاز العدو وإثارة حنقه أكثر من كونه للتّجديد أو الإقناع. كانت معجزةً أنّ ذلك لم يؤدّ إلى عنفٍ واحتدام. وقد فعلت والدتي هذا

(18) هودي: من العربي العماني، تعني هل بإمكانني الدّخول؟ وهي ما يعادل طريقةً شفويةً لقرع الباب. تكون إجابتها: قَرَّبُو، أيضاً من العربي العماني، أصلها قَرَّب، بمعنى تفضّل، أهلاً.

كما كانت تقوم بأيّ شيء آخر، بطريقة متمهّلة رصينة جدًّا. لم يكن الأمر تسليّةً، بل ضرورةً. استمعتُ إلى الخطب الطويلة التي لا تنتهي بهدونها المعتاد، وصفقت عندما كان يُساء إلى العدو، كانت الإساءة جلّ ما تمثّلت فيه الخطب، كما ضحكت بضحكتها الصّامته إذا ما أصاب بعضُ اللّوم حزْبها.

بوتيرة أمسيّتين في الأسبوع، حضرت دروس محو الأمية التي نظّمها الحزب، وفي تينك الأمسيّتين، طُلب منّي وأخي التطوع كمدرّسين في المكتب الفرعي الذي أقيمت فيه الدّروس. أخيراً إذن، أتيحت لوالدتي فرصة الذهاب إلى المدرسة، ليعلمها كيفية كتابة اسمها أطفالاً من عمر أبنائها. تضاعل حماسها ما إن تعلّمت كتابة اسمها، خصوصاً منذ أن اتّضح أنّه لم يُشترط أن يكون المرء متعلّماً حتّى يكون له الحقّ في التصويت. وكان ذلك ملائماً للغاية، بما أنّي كنت على وشك الذهاب للثانوية، ووجدت انتسابي لمدرسة الفرع محرّجاً. كان من المفترض على طلاب الثانوية أن يكونوا جادّين ومتفرّعين عن أشياء كالسياسة.

وهناك كنّا، على بُعد عام ممّا لم نكن فيه، على بُعد عام من الدّروة الوحشية لخيانتنا لأنفسنا. في نهاية ذلك العام، حدثت دراما منتصف اللّيل، إنزال علم ورفع آخر، تسليم رُقّ ملفوف، وعزف نشيد وطني جديد -احتفالات فخورة أقيمت بعجرفة مُتمرّن عليها بعد كلّ الإخلاءات الاستعمارية السّابقة الأخرى. بالنّسبة لآسيادنا المغادرين، لم يكن الأمر إلّا بعضاً من التّسليّة، حقّاً، حتّى وإن كان محرّجاً بعض الشيء. بالكاد كان هناك متّسع من الوقت للتّعوّد على العَلَم الجديد حتّى اندلعت الانتفاضة، مسألة أساييع قليلة. وكلّ الوعود البراقة

بمحاسبةٍ تحقّقت فجأةً: قتل، طرد، اعتقال، اغتصاب، سَمٌّ منها ما شئت، حصلت كلّها. أسابيع وأسابيع من ذلك، شهور، سنوات لبعضٍ منها. نُسيَت قصاصات الورق التي كُتبت عليها بنود الحماية واتفاقيات الدِّفاع والتأمينات على المعاشات التقاعدية وغيرها من أدوات التَحضُّر الأخرى بمثل السرعة التي نُسي بها التَّشيد والعلم الوطنيّان. وبدلاً من ذلك، بُثَّت في الإذاعة خطابات ساخرة وشامته أصدرت حَظْراً مفصّلاً تلو الآخر مثل متنمّر مسعور: حظر التَّجوال من السَّادسة مساءً حتّى إشعار آخر، وصارت التَّجمّعات العامّة لأكثر من ثلاثة أشخاص غير قانونية حتّى إشعار آخر، والمقاهي والمدارس ودور السينما مغلقة حتّى إشعار آخر، جميع جوازات السّفر غير صالحة، كلّ سفر غير قانوني، وجميع الأراضي مؤمّمة. جاب رجال العصابات الشوارع حاملين البنادق الالامعة التي استولوا عليها من ترسانة شرطة مكافحة الشَّغب، ونهبوا ما اختاروه بتعسّف، مشرطين من الجميع إظهار خضوع خجول، باحثين عن أولئك الذين كانت لديهم معهم حسابات لتسويتها، موضحين موقفهم من خلال إذلال الفخوريين والمتعجرفين والإساءة إليهم. تعيّن علينا التَّعود على علَم جديدٍ آخر. وفي وسط ذلك العلَم، رُسمت فأسٌ لترهّب وتردع من خلال اللّجوء إلى الوحشية.

في حين قدّم والدي دعمه للقوميين سرّاً خوفاً من الفصل، فعل الخال هاشم ذلك علناً وبشكل ملحوظ. حتّى أنّه جلس في مناسبات على المنصّة في اجتماعات الفرع، أو استدعي عضواً من وفد الترحيب إذا ما أتت إحدى الشَّخصيات البارزة في إطار حملة انتخابية. لم يفعل أيّاً من هذه الأشياء بحماسة كبيرة، إلّا أنّه كان أحد أعيان مجتمعتنا،

وبذلك كَانَ ملزماً أَن يشارك في تعهّداته، وَأَن يفعل ذلك بشكل لا يترك مجالاً للشك. لكنّ عرضه ذاك بقي عالقاً في الأذهان، وبعد أيام من الانتفاضة، بعد القبض على الوزراء والنواب وقادة الحزب ومستشاريهم، وإهانتهم قبل أَن يُحكم عليهم ضمن محاكمات وجيزة مقتضبة، أتى دور الوجهاء الأقلّ منهم مكانة. اقتيد الخال هاشم إلى المعتقل من قبل ثلاثة رجال مسلّحين بلباس مدني، لم يكلفوا أنفسهم عناء التعريف بأنفسهم لأنّ الخال هاشم كان بالأصل يعرفهم. عتقوه قليلاً، لكن لم يكن في ذلك ما يخرج عمّا جرى به العرف في تلك الأوقات العصيبة، بعض الصّفعات والسّتم فحسب. كان من الصّعب تخيل الإساءة لشخص الخال هاشم الصّارم بتلك الطّريقة، لكنّ زوجته شهدت كلّ ما جرى وأخبرت باكيةً والدتي بذلك عندما ذهبت لزيارتها في منزل والدها. صودر منزل الخال هاشم ومحتوياته، ومحلّ الأدوات الكهربائية الخاصّة به بأثر فوري. ما يعني في الحين. في اليوم التّالي، انتقل أحدهم للعيش في شقّة الطّابق العلوي، ووصلت شاحنة لتفريغ المتجر. تعيّن عليه قضاء ثمانية عشر شهراً رهن الاعتقال.

في ذات اليوم الذي اعتُقل فيه الخال هاشم، أتت أخت أبي إلى منزلنا. أرادني قبل ذلك والذي أَن أذهب إلى شقّتها لأتفقّد إن لم يكن مكروّة قد أصابها، لكنّ أمي منعت أيّ واحد منّا من الخروج منعاً باتاً، بمن في ذلك والدي. قالت إنّ لدينا ما يكفي من الطّعام لبضعة أيام، وإنّنا سنُبقي أبوابنا مغلقةً لأطول فترة ممكنة. حتّى أنّها اعتقدت أَن الشّرقة أصبحت مكاناً خطراً، في حال رآنا أحدٌ من الطّريق وطالب بالدّخول. سارع والدي بالتزول ليفتح الباب عندما طرقت عمّتي ونادت. تعرّف على صوتها. وحتّى قبل أَن تصعد، امتلأ المنزل

بعويلها. جلست أرضاً في أعلى الدّرج، تشهق وكأنّ قلبها انكسر، ووجهها مبلّل بالدموع المنهمرة وهي تنن. صرخت: «لقد قتلوهم جميعاً»، ثمّ راحت تبكي بشهقات من جديد.

«مَنْ؟ خديجة، من قُتل؟» سألها والدي، وهو جاثٍ على ركبتيه أمامها، يرتعد.

قالت وهي تبتلع وتغصّ وكأنّها تفرق: «جميعهم، جميعهم. ما... با...».

أخبرتها ذلك واحدةً من الجيران التي تمكّنت من الوصول إلى المدينة بأمان. كانت قد تناهت إلى سمع تلك المرأة إشاعةً تناقلها بعضٌ من الذين سافروا برفقتهم على متن الشاحنة، ثمّ تلقت بعدها خبراً يقيناً هنا في المدينة من شخص قال إنّ سمعه من أحد القتلة بنفسه. اقتحموا منزلهم في الليلة الأولى من الانتفاضة. ما كان أمراً قد دُبّر وخطّط له مسبقاً. قتلوا والدها، والدتها وشقيقينها، ورموا بأجسادهم المقطّعة في البئر.

جلس والدي بجانب أخته، محدّقاً بها لا يصدّق ما قالته للتوّ، وشفته السفلى ترتجف خارج السيطرة، استدارت أمي إليّ، ثمّ أومأت برأسها إلى أخي وأختي وقالت: «اذهبوا إلى غرفتكم».

أول مرة أخذتني فيها لمقابلة والديها، قالت إيما: «لا تحك لهما هذا النوع من القصص. لن يجعلهما ذلك إلا يلعقان شفاههما استباقاً قبل أن يبدأ في نفث قذارتهما العنصرية. أنت لا تعرفهما مثلي، إنهما يقتاتان على هكذا أشياء. ويجعل ذلك كلّ رضاها عن الذات المتعجرف يبدو مبرّراً تماماً. لا أعني أنّ عليك اختلاق أيّ شيءٍ أو أيّاً من هذا القليل، لكن لا تمنحهما المزيد من الذخيرة. فهما يحصلان على ما يكفي منها من التلفاز».

سألتهما متغايياً، مستحقاً نظرة مذهولة غير مصدّقة لسؤالي: «ذخيرة لأجل ماذا؟»

فأجابت:

«أنا جادة، أنت لا تعرف كيف هما بخصوص هذه الأشياء.»

بالطبع أعرف، كان بإمكانني أن أجيب. إلّا إذا كانا فعلاً شخصين متميزين واستثنائيين. لكن ما كان عليها أن تقلق. فالسيدة ويلوبي لم تكن مهتمة بسماع أيّ قصصٍ مني شخصياً، على الرغم من كونها مستعدة للتنازل بسهولة كي تسمع حكاية أو حكايتين عن التعذيب أو التجويع أو تزويج القُصّر، أو بعض الروايات المهمة والمعاصرة عن المخدرات، أو الدّعارة، أو الهجرة غير الشرعية أو السطو المسلح. وهو التصرف المنتظر من أيّ شخص كان. لكنها استفردت بطريقة خاصة بها في التعامل معي. تحدّثت بأدب ولباقة عند الضرورة، ولم تبد مهتمة إطلاقاً بما أمكنني المشاركة به في المحادثة، بالكاد رفعت

بصرها لتلتقي عيناها بعيني. ولم يرجع ذلك لكونها وقحة، أو غير ودية بشكل صريح - فهي لم تكن كذلك أبدًا، طيلة كل السنوات التي عرفتُها فيها. إذ استقصيتني بشكلٍ يرضيها في وقت مبكر جدًا من علاقتنا، وتركت الأمور عند ذلك الحد. في حضورها، غالبًا ما شعرتُ بأنّي شخصٌ دخيل، كما لو كنتُ غائبًا، ثمّ أبلغني أحدهم عن تفاصيل المحادثة لاحقًا. كانت تعرف درجة الحميمية التي أرادتها أن تكون بيننا بوضوح، وقد حافظت عليها بثبات كبير. أعجبتني فيها تلك الكبرياء الهادئة التي جعلتها تبدو وكأنّها تسامحٌ، ونشأةٌ مهذّبة.

فيما لم يهتمّ السيد ويلوبي إلا بقصصي عن الإمبراطورية. حتّى صرتُ أتساءل بجديّة كيف أمكنه أن يعيش حياته إلى غاية ذلك الحين دون الإمداد الثابت الذي زوّدته به، لكنّ لعلّي استخففتُ بمدى حيلته، وأخطأت في تقديرها. كان بإمكانه رؤية الجوع والتّوق في عينيه كلّ مرّة التقينا فيها، وسرعان ما وجدَ طريقةً تسمح لي بالاختلاق والمناورة. تعجّبتُ إيما والسيدة ويلوبي ساخرتين، لكنّ ذلك لم يؤثّر عليه، أو على الأقلّ تظاهر بأنّه لم يفعل. أحيانًا، إذا ما انتظرنا قدومهما للزيارة، كنتُ أعمل على اختلاق واحدةٍ من تلك القصص طيلة أيّام أكملها، لكنّي كنتُ معظم الوقت أرتجل، ويأتيني الإلهام آنيًا.

تحت سلطة الإمبراطورية، ساد عندنا نظامٌ صارم وعادل، يحكمنا في ظلّه أشخاصٌ يفهموننا أفضل من فهمنا لأنفسنا. وحتّى في أحلك الأوقات، عند إصدار المراسيم التي بدت قاسية، كنّا على يقين أنّها كانت من أجل مصلحة، لإجبارنا على الاستنارة من المجتمع المتحضّر، وتعليمنا كيفية الخضوع لحكومة عقلانية بدلًا من الخضوع لعرفٍ استبدادي. منع الحكّام الاستعماريون المتواضعون اللّطفاء

بأدب لكن بحزم أمراءنا الصغار من استظهار سلطتهم المتقلبة على هواهم. وجلبوا المعرفة والرعاية الطبية، لعلاج مرضانا وكذا لفطمنا من الخرافات والأرواح الشريرة، ولرفع نير الطيب-الساحر وشياطينه العديدة عن كواهلنا. أدخل أولئك الذين كانوا مرضى عقلياً من بيننا إلى المصححات العقلية بدلاً من حبسهم من قبل عائلاتهم بدافع العار. وأخرج المحرومون والمعوزون من الشوارع ووضعوا في مخيمات حيث أمكنهم تعلّم حرفة مفيدة، أو على الأقل إيجاد ملاذ فيها. لكن فوق كلّ اعتبار، جلبت لنا الإمبراطورية بإيثار كبير المعرفة والتعليم والحضارة وكلّ الأشياء الجيدة التي تعلّمت أوروبا صنعها لنفسها، والتي لم نتعلّم إلى غاية اليوم كيف نصنعها لأنفسنا. وبدلاً من أن نُترك في ظلامنا وجهلنا المتدهور نعمه لعدّة قرون قادمة أخرى، انفتحنا في غضون بضعة عقود فقط على المجتمع البشري وجُردنا إليه.

كرم وتضحية الأفراد في خدمة الإمبراطورية البريطانية كانا أسطوريين بقدر ما كانا عاديين، لذلك كان من حسن حظنا أنّهم هم من استعمرونا ولم يستعمرنا أجنبٌ متسرّعون ونزويون يستحيل توقع تصرفاتهم. لم يدّخر حكّامنا جهداً في بناء الطرق والمستشفيات والجسور والسجون. ووجد بعض من شبابنا وشاباتنا عملاً في وطنهم وتعلّموا حبّه. كما تمكّن بعض من أعظم الرجال في مجتمعاتنا من تحقيق ما وصلوا إليه فقط لأنّ مسؤولين خيرين قدّموا لهم (دون تباهٍ أو ضجّة) يد عونٍ مرشدة.

دائماً ما تألّقت عينا السيّد ويلوبي عند سماع هذه القصص، وفغرفاه في اندهاش متأثر. وحتى حين اعتقدتُ أحياناً أنّي أخطأت في تقدير تأثير تفصيلٍ ما عليه وتوقّعت أن ينحسر التآلق من العينين

أو أنّ الشّفتين ستغلقتان، لم يُظهر أبدًا أيّ إشارة تدلّ على أنّه لاحظ أيّ شيء. كان دائمًا يسأل مع نهاية حكيي: «آه، لماذا، لماذا تَخْلَوْا عن هؤلاء البؤساء المساكين؟ لقد كانت فكرة أغبياء فعلاً».

فكنت أقترح أحيانًا مستطردًا: «أنا ألوم الأمريكيان على ذلك. وما أوصل السّكينَ للعظم هو خطابُهم المضلّل عن الدّيمقراطية في عالم ما بعد الحرب». أحيانًا أخرى، كانت اللائمة تقع على شخصٍ آخر: ونستون تشرشل، جمال عبد الناصر، حزب العمل. وقد وافق السّيد ويلوبي وكيّف نفسه بسهولة مع فكرة تحميل أيّ مجرم منهم المسؤولية. مكتبة سُر من قرأ

«كلّ ما حقّقه ذلك كان ترك بعض الفاسدين منهم يتلاعبون بعقول شعبهم البسيطة ويحرّضونهم على الثّورة ضدّ كلّ ما حدث من قبل. انظر إلى ما يجري الآن من فوضى ومجاعة وحروب. لإرسال المساعدات الآن علينا أن ننفق أموالًا أكثر من تلك التي كنّا سننفقها إذا بقينا هناك ممسكين بالدّفة بثبات. إنّها فكرة أغبياء».

ضحكت إيما في البداية قائلةً- سيصدّق أيّ شيء عن الإمبراطورية البريطانية المقدّسة. ثمّ اعترضت لأنّني كنت أبالغ في ذلك - أنت تستغلّ سداجته وتجعل منه مضحكة. ثمّ في الآونة الأخيرة، توقّفت عن الاهتمام - أعتقد أنّ هذا لا يُظهر سوى مدى سداجة خيالك الصّبياني. على أيّ، دخلتُ أنا والسّيد ويلوبي في حلقتنا الخاصّة بنا، وغالبًا ما كنّا ننتظر حتّى نصبح بعيدين عن مسمع آذان مشكّكة قبل أن الخوض في محادثتنا، على الرّغم من أنّه لم يكن باستطاعتنا في ظروفٍ خاصّة تأجيل تلك اللّحظة.

بعد تخرّجنا انتقلنا إيماناً وأنا للعيش معاً. حصلتُ على الدرجة الأولى بامتياز وواصلت دراستها للحصول على الدكتوراه في سيميائية السرد المكرّس. ولم تكن تلك مفاجئة البتّة، فلطالما توقّع معلّموها ذلك. سألتها: «ماذا تعني كلمة المكرّس؟» فأجابت: «لا تحمل كلّ الروايات عبء الأحداث. كما أنّها ليست كلّها عبارة عن قصص». كانت جاذبة في حديثها. لم تكن قد اعتادت بعد على ذلك في تلك الفترة، لكن أمكنني سماعها وهي تكبح نفسها حين حاولت الخوض في شرح ذلك لي. قبل أن أجدني، وفي ثلاث خطوات، قد وضعت؛ لم أفهم ما إذا كان ذلك راجعاً لكوني غيباً أم لأنها لم تستطع فهم ما كانت تعنيه. حصلتُ على درجة ما دون المتوسط، الأمر الذي فاجأ معلّمي قليلاً، بيد أنني كنت ثملاً بالحبّ في بدء العلاقة لدرجة لم تسمح لي بالاهتمام بذاك القدر. وبلغت قمة السعادة حينما وجدتُ وظيفة في مدرسة شاملة في واندسوورث. استأجرنا شقةً في سترينغ، وقضينا عطلةً نهاية أسبوعٍ سعيدة في شراء ملاءات وحصائر للمائدة، واستقرّينا على تقاسم حياةٍ في الخطيئة. كان التدريس بالنسبة لي كابوساً، لكن رغم ذلك، تلك السّنات القليلة الأولى كانت أسعد أيام حياتنا معاً. كنتُ في الصّباح أترك جسدها الجميل الدافئ على مضض لأستقلّ الحافلة إلى المدرسة. وأجد الابتعاد عنها صعباً للغاية، فأعود إلى السرير مرتين أو ثلاثاً قبل أن أمزق نفسي مبتعداً عنها في النهاية. مرّة، وصلت حتّى محطة توقّف الحافلة ثم عدت من جديد لغمرة حضن إضافيٍّ آخر.

عندما كنتُ أصل إلى المدرسة، كنتُ جديداً جداً وقلقاً جداً لدرجة لا تسمح لي بالترّيث وشرب كأس من الشاي في قاعة الأساتذة، فأتّجه

مباشرةً إلى فصلي لأحضّر لدرس اليوم. أوكل إليّ تدريس صفّ السّنة الأولى نظرًا لقلة خبرتي، غير أنّ المهمّة ظلّت صعبةً على كلّ حال. ودرّست صفوف سنوات أخرى أيضًا كان جميع تلاميذها مشاغبين ويسخرون منّي بلا كلل. أبرزّ التعليم فيّ عنفًا وغضبًا لم أشكّ يومًا أنّي أمتلكهما بداخلي. كان خوفًا من التعرّض للإذلال والسّخرية. وقد استبقتُ حدوث ذلك بنظرات ثاقبة وصوت صارم؛ ولا بدّ عليّ الاعتراف أنّي كنتُ أضرب من حين لآخر ضربة عرضية عن نية حسنة، وقد كانت مفاجأة سعيدة حين أتى ذلك بأكله ونجح الأمر-مع معظم التلاميذ. طوّرتُ ضحكة خفيفة خبيثة وضعتهم عند حدّهم. كلّما كانوا في وضعية شكّ، أربكتهم ضحكتي أكثر. لعلّهم اعتقدوا أنّي كنتُ منحرفًا، لكنّ ما همّ الأمر طالما جلب لي بعض الراحة. كان لديّ معذبيّ، إذ أنّ هؤلاء كانوا أطفالًا لديهم سمعةٌ توجّب عليهم حمايتها، غير أنّهم لم ينجحوا في تحريض الطّلاب الطّيعين على التمرد. لكنّ الوضع لم يدم لوقت طويل على أيّ حال. أعلم أنّي أحاول الآن تمجيد تلك الفترة، لذلك يمكنك أن تتخيّل مدى سوء التجربة في الحقيقة. لاحقًا، كنت سأعلّم طرقًا لتهدئة متطرفين كأولئك واسترضائهم، لكن خلال الأيام الأولى تلك، لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفية التعامل مع ذلك الازدراء المستمر. وكنت أعلم أنّهم يقصدون إيذائي.

كنتُ أخرج مبتعدًا عن المدرسة بأسرع ما أمكنني، وفي معظم الأيام أجد إيمانًا قد سبقني إلى المنزل. لا أستطيع تذكر الترتيب الدقيق الذي كنّا نقوم به بالأشياء، لكنني كنت أجد بعض الوقت لتصحيح الفروض؛ ثمّ كنّا نطبخ ونحن نتحدّث أو نذهب إلى الحانة وبعدها نمارس الحب. حتّى الآن، عندما أفكّر في تلك الفترة، تتحوّل

إلى سديم من الرضى والألفة الحميمة والجنس. لم تكن نقابل أشخاصاً كثيرين، إلا أننا كنا نذهب في بعض الأمسيات إلى كليتها لمناسبة ما - حفل راقص، أو أمسية أدبية، أو فقط لتناول مشروب برفقة أصدقائها. أتعجب الآن أنها لم تشعر بالملل حينها بسبب مكوثها في المنزل مع كتبها معظم الأيام، ثم قضائها لأمسياتها معي.

أخبرتها عن كيفية مجيئي إلى إنجلترا. بحلول الوقت الذي أكملت فيه دراستي، شعرت السلطات الجديدة بما يكفي من الأمان لإمساكها بزمam السلطة بعد أن جعلت الجميع يذعنون، لدرجة أنه سُمح من جديد بالسفر إلى البلدان المجاورة، في حدود معينة، وبتصريح سفر مؤقت. كانت الرخصة صالحة لمدة ثلاثة أشهر، لذا كان عدم امتثالك ورجوعك الفوري قبل انتهاء تلك الفترة يعني الاعتقال متى أو إذا عدت. وكان عليك أن تتذلل وتتوسل للحصول على تصريح السفر كما هو الحال من أجل الحصول على أي شيء آخر آنئذ. أما خطتنا التي دبرناها فكانت مُحكَّمة بقدر ما كانت يائسة. كان قد أُطلق سراح الخال هاشم وقتها، بعد أن هزل وازداد شعره شيباً، لكن عدّا عن ذلك، ظلّ مقتدرًا قويًا كما عهدناه دومًا. لم أسمعه أبدًا يقول شيئًا عن الثمانية عشر شهرًا التي قضاها في السجن، باستثناء أنها أعطته فرصة لقضاء الوقت الذي فاتته من الصلاة وقراءة القرآن عندما كان حرًا طليقًا، ومنشغلًا بأعماله. إذا ما سألته والدتي أو والدي عن تلك الفترة، كان يلوح ويقول: انسى الأمر. وبالطبع لم يقل شيئًا عن وجبات الأكل اليومية وبدائل اللبس الأسبوعية التي كنت أحملها إليه في السجن. في غضون وقت قصير جدًّا، عاد الخال هاشم إلى الأعمال مجددًا، جالبًا -بطريقة ما -كميات صغيرة ممّا كان شحيحًا ناقص الإمداد، وجسّ

نبضَ الأجواء من حوله. اشترى رؤوس الأغنام والقماش والمعدات الصغيرة وكلّما استطاع؛ وكلّ ما سنحت له الفرصة، تعاملَ بالعملات الأجنبية. الأمر كلّه كان غير قانوني، لكنّ الخال هاشم عرف من يرشو حتى يغضّ الطرف. حتّى أنّه استعاد ملكية منزله، وعلى الرّغم من أنّ متجره فقد سابق أبته عندما أعاد فتحه - فقد كانت مروحة الطاولة البراقة قد اختفت ومعها الفونوغراف، وحلّت محلّهما أكياسٌ من الإسمنت وأكوامٌ من الأواني الخزفية - إلّا أنّه ظلّ يبدو رجل أعمال مهيب، وهو جالسٌ خلف مكتبه الكبير.

كان الخال هاشم هو من اقترح أنّ الأجدد بي المغادرة، إلّا أنّه كان بالأحرى يفكّر في بلدٍ مجاور، أو واحدة من دول الخليج، مكان يساعدني فيه معارفه على العثور على عمل وتعلّم مبادئ التجارة. قال لأنّ ذلك سيكون أفضل لي من الانتظار هنا حتّى يقع مشكلٌ ما. استُدعينا ثلاثتنا، والدي وأمي وأنا إلى منزله لمناقشة الأمر. قلت إنّي أردت أن أكمل دراستي؛ أوماً برأسه بهدوئه المعتاد، لكنّه لم يستطع كبح ابتسامة ساخرة بعض الشيء. ثمّ قال: «تشبه والدك تمامًا».

في تلك الفترة، أضحى من السّهل الحصول على المنح الدّراسية في تشيكوسلوفاكيا، ألمانيا الشرقية، الصّين أو كوبا، لانضمام دولتنا الحديثة إلى المعسكر الاشتراكي (وتعبيرها عن ذلك)، ولقبولها المساعدة الأخوية لعدّة مئات الفتيّين والمسيّرين التكنوقراطيين الذين أرسلوا لاستبدال جميع الذين طُردوا أو فرّوا. درّب آئذ الألمان الشّرقيون والكوبيون قوّة الأمن الموسّعة، كما درّس التشيكيون والمزيد من الألمان الشّرقيين في الثّانويات، بينما سيطر الصّينيون على المستشفيات. لم يكن معظم هؤلاء المعلمين والمهندسين والأطباء

يتحدّثون السّواحيلية، أو الإنجليزيّة، أو العربيّة أو حتّى الكجراتيّة، وكان سيسمح لهم تكلم أيّ لغة منها بأن يفهموا ويتواصلوا. لكن من الجميل القول إنّ ذلك قد خلق فرصة كبيرة من المواقف الهزلية والتسلية، غير أنّ ذلك لم يحدث، فالأمر لم يكن مسلياً البتّة إن كنت تعاني من التهاب اللّوزتين أو كنت في غيبوبة سكّري. على أيّ حال، لا بدّ وأنّ الخال هاشم اعتقد أنّي كنت مهتماً بمنحة دراسية إلى إحدى تلك الدّول الاشتراكية الشّقيقة عندما أخبرته عن رغبتني في الدّراسة، لأنّه أكّد لي إنّني سوف أعود شيوعياً وملحدًا، وعندها، سأقتل عائلتي وأرتكب فظاعات وأثامًا في حقّ الله. قال: «الشيوعية شرّ، وسيقطع الله رأسها ذات يوم».

أمّا والذي فقد أردف: «ولا فائدة تُرجى من التّعليم، إنّهم يدرّبونك لتصبح مقاتلاً ومدمن كحول، وهذا كلّ ما في الأمر. أو إن استطاعوا، فإنّهم يزوجونك لإحدى فلاّحاتهم القبيحة، من تلك اللّواتي لم يفلحوا في إيجاد زوج لهن». أصبح حينها يعمل في وزارة التّربية والتّعليم كمسؤول فنيّ، ورغم أنّه لم يكن معنيًا بشكل مباشر بالمنح الدّراسية، إلّا أنّه عرف من القليل والقال (كما عرفتُ أنا وكلّ شخصٍ آخر) أنّ أبناء كوادر الحزب وأولئك الذين كانوا في أمسّ حاجة للمغادرة وحدهم من تقدّموا بطلباتهم. أو على الأقلّ، هذا ما قلناه جميعًا.

قال والذي: «إنّه يريد الدّهاب إلى إنجلترا، وهي أفضل مكان يُلجأ إليه للدّراسة». لم يتلاش حبّ والذي لمعلّميّه رغم بلاغته في التعبير عن شرور الاستعمار. وكان كلّ ليلة يستمع إلى إذاعة البي بي سي باللّغتين الإنجليزيّة والسّواحيلية، وبعدها يستمع إلى البثّ السّواحيلي لإذاعة القاهرة، قبل أن يعود في النّهاية إلى محطّتنا المحليّة، بضحكة

متهكّمة من الأخبار التي كانت تنقل. عن صلابة التعليم الإنجليزي لم يكن لديه أدنى شك. إذ كان يصرّح: «حتى أمريكا، لا يمكنها أن تقارن به».

أوما الخال هاشم بهدوء، ما اعتقدته شيئاً مهيباً من قبله. «وكيف يمكن تحقيق هذا؟» سأل ممبلاً رأسه قليلاً، بهيئة الرجل الوقور الصبور الذي كان عليه الاستماع لحديث جامح قبل أن يقدم مشورة حكيمة.

قالت أمي متحدثة بروية وهي تنظر مباشرة في عيني شقيقها: «لقد وجدنا عنواناً لعبّاس». وفجأة، لم تستطع منع نفسها من الابتسام. (عندما وصلتُ إلى هذه النقطة، قاطعتني إيما بحماس قائلة: كان عمك عبّاس يعيش في إنجلترا إذن! - إلّا أنني لوحتُ لإسكاتها، وقلت لها: يجب أن يكون لكلّ حكي تأجيلاته، كما تعلمين ذلك جيداً.) على أيّ حال، ذكرتُ والدتي عبّاس ثم ابتسمت ابتسامة نصر صغير. لأول مرة، بدا على وجه الخال هاشم الفزع. «لقد كان على اتصال ببعض من الذين فروا إلى إنجلترا بعد الانتفاضة، جميع أولئك الذين قالوا إنهم سيعودون يوماً ما لتحريرنا. حصلنا على العنوان من إحدى قريباتهم، حبيبة محمود التي تزوّجت ابنة أختها من الصحفي الذي تسمعه على البي بي سي أحياناً. إذا وافق عبّاس على إيوائه، هل ستساعدنا على أجرة الرحلة؟»

بدت دهشة الخال هاشم أكبر من أن تسمح له بالرد للحظة. «قد يكون ذلك ترتيباً محفوفاً بالمخاطر»، قال أخيراً، ومن الواضح أنّه كان يفكر في عبّاس، لأنّه استدار بعدها نحوي وأضاف: «أنت لا تعرفه. أنت لا تعرف أيّ نوع من الأشخاص هو».

لكنّ والدتي قالت: «دعه يجرب حظّه، قبل أن يزجّوا به في السّجن أو يرموه بالرّصاص هنا». ابتسم الخال هاشم ابتسامة طفيفة على كلّ تلك الميلودراما. لم يكن بوسعي أيضًا أن أتخيّل أن بإمكان أيّ كان الإقدام على شيء مماثل، غير أنّ التّوقيت يكن مناسبًا للمخاطرة إطلاقًا. فقد كان بإمكانهم إطلاق النّار عليّ بالخطأ. كان بإمكان أيّ شيء أن يحدث في خضمّ الفوضى التي عشنا فيها آنذاك.

بعدها، لم يعد الخال هاشم لعدّة أيّام، لكنّه لم يظّل خاملاً. اتّصل بصديق في عالم الأعمال ينشط في مومباسا كان يدين له بمعروف، والذي كان شريكه في صفقاته خارج البلد. كان المفترض أن يكون بحوزة هذا الصّديق جواز سفر كينيّ ينتظر وصولي إلى مومباسا، وهو الشّيء الذي بدا أمرًا بسيطًا بالنّسبة لشخص بمثل نفوذه، وكان من المفترض أن يكون على استعداد لاقطاع تذكرة بأفضل الأسعار، ما عني في لغتهم أنّ في الأمر نوعٌ من الاحتيال. أمّلت والدتي رسالةً إلى الخال عبّاس الذي إمّا لم يكلف نفسه عناء الردّ، وإمّا لم يتلقّ الرّسالة أصلاً. كان العنوان مكانًا ما يسمّى، ساوث شيلدز⁽¹⁹⁾، والذي لم يبدُ لي حينها مكانًا حقيقيًا، فقد كانت التّسمية صريحةً جدًّا لتفي بالرومانسية التي يوحى بها ملاذٌ إنجليزي لهارب، لذلك افترضتُ أنّه مكانٌ لم يكن موجودًا في الواقع. ثمّ واتت ضربة حظّ كادت تجعل أمّي تجدّف حين قالت: ربّما لم ينسنا الله بعد كلّ شيء. حصل أحد زملاء والدي في وزارة التعليم، واسمه أحمد حسين، على منحة من المجلس الثقافي البريطاني لدورة إدارية متخصصة في جامعة ليستر (وكانت الحكومة البريطانية بصدد إعادة بناء جسور الصّداقة مع حكومتنا). أخبرنا أنّي

(19) شيلدز تعني الدّرع، ومنه الاستعارة التي تلي تعبيرًا عن الحماية.

كنتُ بسنّ صغيرة بما يكفي كي لا أدفع أيّ رسوم دراسية لمدة عام أو نحو ذلك، وأنّ بإمكانه إن تمكّنت عائلتي من إيجاد طريقة لإرسال الأموال لي أن يساعديني في إنجلترا إلى غاية أن أستقرّ. بدا ذاك عرضاً سخياً بجنون، ولكن في ظلّ التكتّم العام والبؤس المنتشرين حينها، خاطر الناس لمساعدة بعضهم البعض. أحبّ الاعتقاد أنّه كان نوعاً من التأكيد على اهتمام البشر، نوعاً من إحياء ما فقد، وربما السبيل الوحيد للاعتراض على عجزنا وخضوعنا الجبان. قال لنا إنّ علينا أن نفهم أنّه في حال غادرتُ بتلك الطريقة فلن أتمكن من العودة أبداً. كان الأمر جنوناً، لكنّها كانت الطّريقة التي أتيتُ بها إلى بلايتي⁽²⁰⁾: تصريح سفر إلى مومباسا، جواز سفر كينيّ مزيف، تأشيرة سياحية إلى إنجلترا، وبعدها العيش سرّاً في غرفة أحمد حسين الجامعية مدّة سنة. في ذلك الوقت، على الرّغم من هستيريا الخطاب المسعور في الصّحف حول استيلاء أجنب عراة على الوطن، لم تكن مصالح الهجرة فعالةً ووحشية بالشكل الذي ستصبح عليه في وقت لاحق. عشنا في عبر جامعيّ مع اثني عشر طالب دراسات عليا، جميعهم أجنب، ولم يخنّي منهم أحد، ولا حتّى عاملات النظافة.

كان شغل أحمد حسين الشّاغل العمل والادّخار من منحته قدر ما أمكنه. (كان قد توصّل إلى ترتيب ما مع الخال هاشم لم أكن أبداً طرفاً فيه، لكنّ المال الوحيد الذي تلقّيته كان منه، وكان فقط يكفي لشراء بعض الكتب أو حذاء جديد). لم نكن نخرج إلى أيّ مكان، نطهو طعامنا بأنفسنا - معظم الوقت الكاري بالأرز، نشاهد القليل من التّلفاز، ثمّ نعمل. كانت تلك صورة محيرة عن إنجلترا؛ فمعظم طلاب

(20) تسمية إنجلترا أو بريطانيا، وهو الاسم الذي كان يطلقه عليها جنود الحريين العالميتين.

الكلية التقنية التي التحقت بها كانوا آسيويين، ومعظم طلاب ما بعد التدرّج في الإقامة، بمن فيهم أحمد، كانوا إمّا هنودًا أو باكستانيين. تبضّع جميعهم من السّوق واشتروا لحومهم من عند الجزّار الحلال. وعلى الرّغم من وجود انقسام صارم في المطبخ بين النباتيين وآكلي اللحوم، إلّا أن النكهات المختلطة التي عبت منه كانت نكهات البهارات والخضروات المقلية. كان طلاب ما بعد التدرّج جميعهم رجالاً، ترك معظمهم عائلاتهم وراءهم. تحدّثوا عن إنجلترا بمزيج من السّخرية والتّظلم، لكنّهم أعطوا معلّميهم ومشرفيهم حقّهم كاملاً من التّكريم الفخور: الأستاذ ورئيس القسم فلان، بكالوريوس، أو زميلٌ باحث أوّل دكتور كذا وكذا، بكالوريوس، ماجستير، دكتوراه، ماجستير إدارة الأعمال، برنامج البحث والتّطوير.

باستثناء المعلّمين في الكلّية التقنية، والذين لم يبدووا لي حقيقيين على أيّ حال لكونهم شديدي اللّطف والتّفهّم في معاملتهم لنا، ولم يشبهوا المعلّمين بالنّسبة لي على الإطلاق، الإنجليز الوحيدون الذين صادفتهم كانوا المسافرين على متن الحافلة أو ممثلي البرامج التّلفزيونية. سمح لنا أحمد بمشاهدة برنامج كوميدي واحد كلّ مساء، توجّب علينا بعده الصّعود إلى الطّابق العلوي للدراسة. كان نظامه قاسياً للغاية وشديد الصّرامة، وكان زملائي الطّلاب خير مثال على الاجتهاد لدرجة أنّ مدرّسنا أقنع ستّة منّا بمحاولة اجتياز المستويات الأولى في غضون عام واحد. ولم يكن ذلك إلّا بمثابة تشجيع لأحمد على مضاعفة جهوده لإبقائي مثبتّاً على الأرضية، حيث درستُ ونمتُ بعد المراجعة. كان أحمد سيحظر البرامج الكوميدية لو لم يكن هو نفسه مدمناً عليها. وصار مُدمناً أيضاً على إغراقي بمحاضرات ملهمة أصبحت في ظلّ الظروف الجديدة أشدّ حماسة وأكثر طموحاً.

قال لي: «إن كنت ستجتاز امتحان المستوى المتقدم هذه السنة، فالأولى بك التقدم للالتحاق بالجامعة العام المقبل». ماذا عن المال، وتصريح الإقامة؟ انتهت صلاحية تأشيرتي السياحية أول ستة أسابيع، وكان لا بدّ على أحدهم أن يسأل عن الأمر حتمًا. لكن لم تكن من وسيلة لإيقافه في اندفاعه. فقد أحضر نماذج المنحة وكتيبات التوجيه، ولم تردعه الأنباء المحطّمة التي مفادها أنك إن لم تكن طالبًا أصليًا من البلد فأنت بحاجة لأن تكون قد عملت فيه لمدة ثلاث سنوات قبل أن تصبح مؤهلاً للحصول على منحة. قرأ لي من الكتيب: «يمكن لمكتب التعليم في بعض الحالات أن يقدم منحًا تقديرية». ثم نهمني قائلاً: «ما خطبك؟ ألا تملك أدنى طموح؟»

لأنه كان شديد الشغف بدراسة التعليم ومهنته، ولأنه اعتقد أنني سأحظى بفرصة أفضل لأن أقبل، أفنعي أحمد بالترشح للحصول على شهادة في التدريس. بدا كل شيء خيالًا جدًا ليتحقق في يوم ما، سواء ترشحتُ للتعليم أو لدراسة علم الفلك، لذلك فعلت ما قاله. تقدّمت بطلب للحصول على منحة تقديرية، واستُدعيتُ لإجراء مقابلة. عندها، حدث ما لا يُصدّق. فعلاً، حدث. كان رئيس اللجنة التي أجرت المقابلة معي قد شغل منصب مفتش تربوي في زنجبار إلى غاية الانتفاضة. أخبرني بذلك ما إن دخلتُ القاعة، بعد أن نهض من مقعده ليصافحني فيما شابه التعزية. تشكّل باقي أعضاء اللجنة من امرأتين شائبتيّ الشعر، إحداهما مستشارة محلية والأخرى تعمل في مكتب التعليم، إضافة إلى رجل قصير شاربه أشعث لم ينطق ببنت شفة طيلة المقابلة، والذي تعلّقت عيناه رغم ذلك بكل كلمة نطقها. لاحقًا، كنتُ سأرى النظرة الندية نفسها في عيني السيد ويلوبي.

في المجمل، طُلب مني أن أتحدّث عن فظائع الانتفاضة وعواقبها. وقد بذلت قصارى جهدي لأجعل كلّ فظاعة تبدو مروّعة إلى أقصى الحدود - ولم يكن عليّ بذل جهدٍ كبير (فقد قاربت الحقيقة ذلك). وفعل رئيس اللّجنة ما في وسعه لتشجيعي، بل وأضاف قصّةً أو اثنتين من عنده. بعدها ببضعة أيّام، تلقّيت رسالةً مفادها أنّي قد حصلت على منحة تقديرية. «أترى؟» أخبرني أحمد، «هذه هي إنجلترا. يمكن لأيّ شيء أن يحدث هنا. أمّا الآن، فاذهب لتحصل على تصريح الإقامة».

وقد حصلت عليه بدوره. ذهبنا إلى لندن لإجراء مقابلة في وزارة الداخلية مسلّحين برسالة حصولي على المنحة، وترشّحي للجامعة، وتوصيات برّاقة من كليّتي، ورسالة من قاضي عدل كان قريبه أحد الخريجين في الإقامة، ورسالة من طبيبي المحليّ (وقد كانت تلك فكرة من أحمد بالأساس). رافقني أحمد، وبتكّتم لكن بحزم، أصرّ على أن يُسمح له بالدخول معي. فقد كان في الأخير وصيّ. تمثّلت الخطّة في أن أبقى هادئًا خلال الدّقائِق القليلة الأولى من المقابلة، ثمّ وبمجرّد مرور فترة معقولة، كان عليّ أن أنفجر في سيلٍ من الدّموع، وعلى أحمد أن يتحدّث نيابة عني. كان الرّجل الذي أجرى المقابلة معنا في الثلاثينات من عمره، يرتدي نظّارات أحرفها داكنة، وهو ما جعله يشبه كلارك كينت قبل أن يغيّر لباسه إلى بدلة سوبرمان. وجدت ذلك مطمئنًا، واتّضحَتْ صحّة ذلك. لا أعتقد أنّ فضل ذلك يرجع للدّموع التي ذرفت، أو لمدح أحمد لاجتهادي وتفوّقي المطلق، بل لحسّ كلارك كينت الفطري بالعدالة. هنا أشعر بالحرية.

رغم أنّ حدوث ذلك بدا مستحيلاً، إلّا أنّ أحمد شدّد رقابته عليّ أكثر. وأهمّل حتّى عمله ليجلس ويراجع معي. أسدى لي نصائح لا تعدّ ولا تحصى، كما ألقي عليّ خطباً ملتبهة، وذكر الله والديّ ومستقبلاً مشرقاً. لم يبق أمامي من مفرّ، ونجحتُ بتفوّق. ونظراً لأنّ فصل أحمد لم ينته إلى غاية أواخر شهر سبتمبر، تمكّنت من البقاء في النزل حتّى اللّحظة الأخيرة (بينما كنتُ أعمل في محلّ غسيل يملكه قريب أحد طلاب ما بعد التدرّج) قبل دخولي إلى المعهد لبدء دراستي. حينها، بدأتُ أعي مدى حماية أحمد لي، وأدرك كم مخيفةً كانت إنجلترا في الحقيقة. ولعلّي فهمتُ أيضاً أنّه كان بإمكانني اختيار شيءٍ أكثر إثارة للاهتمام من التعليم. كان وقوع كلّ شيء بعيد الاحتمال بمكان -المنحة، الدّخول إلى الجامعة بتلك الطّريقة، والدّرس الذي وجدّنتني ملتزمة به -لدرجة أنّي عرفتُ أنّي لم أكن مهتماً بالتمييز مطلقاً لولا وجود أحمد بجانبني. كنتُ قد أثبت نفسي له، وأبقاني رضاه وثنائوه ملتزمة لفترة أطول ممّا كان ينبغي. قبل أن أنتقل إلى لندن والغرفة الضيّقة الواقعة في توتينغ، والتي كانت قد وجهتني إليها موظّفة الإقامة الجامعية (بعد أن أخبرتها بمقدار ما يمكنني تحمّله من إيجار)، تباهيتُ أمام الجمهور المعجب الذي شكّله الطّلاب الذين عشتُ معهم، والذين عاملوني برفق وتملّق كأخيهم الأصغر. لكن بعد فترة وجيزة جدّاً من انتقالني من هناك، تغلّب عليّ إحساس فادحٌ بالتخلي والفقد، مثل ذاك الباكي وسط حشد. صدمني الاندفاع المفاجئ للوحدة والرّعب اللذين شعرتُ بهما عندما أدركت إلى أيّ درجة كنتُ عالماً في ذلك المكان المعادي، وأنّي لم أكن أعرف كيفية التّحدّث إلى النّاس أو كسب ودّهم، وأنّ البنك والمقصف والسوبر

ماركت والشوارع المظلمة أماكن بدت جميعها مخيفة للغاية، وأنه لم يكن بإمكانني العودة من حيث أتيت - عندما أدركت أنني، كما اعتقدتُ حينها، قد فقدتُ كل شيء. ثم جاءت إيما وملأت حياتي. لا يمكنني وصف هذا.

ولذلك لم تزعجني كثيرا درجة متوسط عندما تحصلت عليها، على الرغم من أنني اعتقدت لاحقاً أنه كان بإمكانني بذل جهد أكبر كي أتولى زمام الأمور في حياتي، كما كان بوسعي ألا أترك كل شيء يذوب في مشروب مُغَر من المشاعر والانفتاح اليائس على فرضيات غير واعدة قد لا تؤدي في الأخير إلى شيء. ثم أصبحت مدرّساً. أنا لم أحقق ذاتي، ولم أدرك طموحي.

كانت قصةً جيّدة، ومعظم ما فيها صحيح؛ جعلتني أبدو بطولياً بعض الشيء، وضعيفاً بعض الشيء، في توازن رائع.

مع نهاية سنتها الثانية من الدكتوراه، في حدود شهر أغسطس تقريباً، حملت إيما بأميليا. كانت فترةً بدأ يحلّ فيها أول استقبال مبتهج بحبوب منع الحمل محلّ توقعات تشاؤمية بالإصابة بسرطان هذا العضو أو ذاك (الثدي وعنق الرحم، على ما أعتقد) وبأضرار لم تُحدّد بعد في سنّ الشيخوخة. اقتنعت إيما بضرورة التّشّشّف الجديد، وتوقّفت عن تناول حبوب منع الحمل، قائلةً إنها تفهم جسدها أفضل من أيّ شخص آخر، وتعرف جيّداً كيف تمنع نفسها من الحمل. لكن بعد شرب الكثير من عصير التفاح، أو أيّاً كان ما أمكننا تحمّل تكلفته آنذاك، كانت النتيجة أميليا، ونهاية أول أركاديا⁽²¹⁾ عرفناها، رغم جهلنا

(21) المدينة الفاضلة أركاديا.

لتلك الحقيقة وقتها. وما زلتُ إلى الآن أنتظرُ أركاديا ثانية. في الواقع، بعد الصدمة الأولى والاحتضار بخصوص مواعيد إكمال أطروحتها (التي بدت ميؤوسًا منها حينها)، بدأنا نتحمّس بخصوص الحمل، نفكرُ في انتقاء الأسماء، نعيد ترتيب الأثاث، ونقطع وعودًا جامحة بتعاونٍ فريدٍ من نوعه بيننا لرعاية الطفل وتربيته. لم يُسمع قطّ من قَبْلِ عن أيّ شيء يشبه ما خططنا له. في حياتنا، كنّا سنقضي على كلّ أصول الأساطير الشائنة عن اللّقطاء والمستيزو⁽²²⁾، ونفضح القسوة التي تمارَس على المولاتو والهجين (طفلنا). وصل بي الأمر حتّى أن اقترحتُ أن نتزوَّج، حفاظًا على مصلحة الطفل، غير أنّ إيما سخرت من مخاوفي البرجوازية.

وأدخلت أميليا السيّدة ويلوبي إلى حياتنا من الباب الواسع. كنّا بحاجة للمساعدة، غير قادرين على تدبّر أمورنا دونها. تبين أنّ الطفلة كانت وحشًا صاخبًا لا يعرف النوم، كما أشرتُ إليه آنفًا، قادرًا على الاستهلاك والإفراز بكمّ كبير، لم تفلح معه جميع كتب النصائح التي أُهديتُ لنا، أو بدت كلّها غير قابلة للتطبيق في الواقع. أمّا تجاهلها فكان مستحيلًا. طمأنّا بعضنا، غير أنّ إيما بدأت تشعر بعدم الكفاءة والبؤس، وبأنّها لا تصلح لتكون أمًا، لا تصلح لتكون طالبة، لا تصلح لتكون إنسانًا. لذلك وضعنا خطةً أخرى. تخلّت إيما عن منحتها مقابل الحصول على تمديدٍ لسنة من أجل كتابة أطروحتها. كان هذا ما فعلته الأغلبية على أيّ حال، ما كان مختلفًا فقط هو أنّهم لم ينجبوا أطفالًا في عامهم الثالث من الدكتوراه.

(22) بالإسبانية في النص: الهجين، أو مختلط العرق.

أصببت السيدة ويلوبي بالدّعر عند سماعها خبر حمل إيمان. كنتُ حاضراً، اشترطتُ منّي أن أكون. استمعتُ إلى شرح إيمان، جلستُ في صمتٍ لدقيقة طويلة قبل أن تلتفت نحوِي بنظرةٍ حسناً، كراهية. وقد استحققت تلك النظرة حسب ظنّي، على الرّغم من أنّي لم أكن من توقّف عن تناول حبوب منع الحمل. لكي أكون صريحاً، لا أعتقد أنّي كنتُ سأقلقُ سواءً تناولت حبوبها أم لم تفعل. كنتُ مغرماً بها لدرجة منعني من تخيّل أن بإمكان أيّ مكروه أن يحدث، ولم أفكر أبداً في أنّ بإمكان أيّ ضرر أن يصيبنا. لكنّي اعتقدتُ أنّي فهمت شيئاً آخر من خلال تلك النظرة: لم يكن الأمر يتعلّق بدكتوراه إيمان وحدها، أو بعيشها معي في الحرام، بل بحقيقة أنّه صار عليها الآن أن تعيش مع نوعٍ من التّلوث أصابها لبقية حياتها. بعد أن صار من المستحيل لها أن تصبح امرأة إنجليزية عادية من جديد، وتعيش حياةً إنجليزية غير معقّدة بين الإنجليز. أعتقد أنّ السيّد ويلوبي نفسه قد تأثّر بالأبعاد المأساوية لما حدث، رغم أنّه ابتسم معظم الوقت لإيمان (وهي تتحدّث). لكن بعد أن انسحبت إيمان والسيدة ويلوبي إلى المطبخ لمشاجرة حامية الوطيس (كنا قد ذهبنا إلى بلاكهيث لإعلان الخبر)، لم يكن هناك أيّ بريق متلهّف في عينيه، ولا فضولاً لتجاوزاتنا المعتادة. في ظلّ تلك الظروف، لكان من العيب إطلاق العنان لرغبة كتلك. جلس ينظر إليّ بعينيه الباهتتين، يحدّق فيّ بشفقة وخيبة. أمكنني أن أشعر بإثارة قصّة مأساوية: نسلٌ مرتبكٌ من أبوين من عرقين مختلفين (بمعنى عرقٍ أوروبي وآخر حبشيّ) محكومٌ عليه بالاضطراب والفساد مع تدفق الدّم الملوّث عبر الأجيال، في انتظار أن يظهر على شكل جنون، أو يتجسّد في ضعف خلقي في العظام، شذوذ جنسي، أو جبنٍ وغدرٍ وخيانة.

لكنني اعتقدتُ أنّ عليّ إقصاء هذه الصّفة الأخيرة، فلا بدّ من أنّها كانت ستأتي في وقت لاحق.

في الأخير سأل: «كيف ستسمّيان؟» وقد خرج صوته دونَ غروره المعهود، يكاد يكون مضعّفاً من الارتباك. لا بدّ وأنّه بدا له حينها أنّ بإمكان الحياة في بعض الأحيان أن تضرب ضربات غير عادلة.

فكرتُ بأسماء مثل شاكا زولو، أو ربّما المهدي المنتظر. أو ماو-ماو. أكان هذا ما أخافه؟ أم أنّ تلك كانت إحدى هجماته الجانبية المراوغة، بينما ما أرادّه حقّاً هو أن أخبره أنّنا كنّا سنسمّي الطّفل على اسم الجنرال جوردون، أو الكابتن كوك؟

أجبتّه: «إنّها فتاة. وكنا نفكر في تسميتها بوكاهونتاس».

«أوه»، قال بتعجّب، ثمّ دعاني إلى التّزّه في حديقتهما الفسيحة. عندما صرنا في الخارج، وقف للحظة يحدّق في سرب طيور يحلّق في السّماء. ثمّ أردف: «إنّها تطير في الاتّجاه الخاطي، نحو الجنوب. ما الذي تعتقد تلك الطّيور أنّها ستجد هناك؟»

غير أنّه ما أمكن لذهنيك الخلاف والاكتئاب أن يستمرّا بالطّبع، ومطوّلاً قبل مجيء أميليا المنتظر، تلقّينا منهما العديد من الضّروريات. فعندما آن الأوان لتحاول إيما كتابة أطروحتها مرّةً أخرى، اقترحت السّيدة ويلوبي أن تأتي للبقاء مع أميليا طوال اليوم كلّما استطاعت، وفي أيّام أخرى، كانت إيما تضعها في بلاكهيث في طريقها إلى الكلية. عدّة أيّام في الأسبوع، كنت أعود إلى المنزل لأجد السّيدة ويلوبي تهتمّ بكلّ شيء وتسيطر على الوضع، الشّقة مرتّبة ومغيّرة بطريقة ما دقيقة، ربّما بإضافة آنية زينة جديدة، أو التخلّص من علبة قصديرية قديمة

استخدمناها كمزهريّة، استبدلت بشيء أكثر ملائمة وأعلى ثمنًا. اقتنت لنا هدايا من أطعمة أسعارها جنونية لم تكن نفكر عادةً في شرائها، واعتقدنا أنّه ليس بإمكاننا تحمّل تكاليفها: فطيرة من المارينغ، أو علبة معجنات دنماركية، أو رطلٌ من العنب (شككتُ في كونه مستوردًا من جنوب أفريقيا)، أو كعكًا مزيّنًا بشكل مبالغ فيه ابتهجَتْ به هي وإيما. في غالب الأوقات، كنت أجد العشاء يُطهى على النّار، أو ببساطة ينتظر أن يُسخّن في الفرن، وأميليا تحبو على الأرض فرحةً مثل فرح بزّاقة في أواخر الرّبيع. وإيما في المنزل أيضًا، منشغلة في أمور تتعلق بالرّضاعة أو منغمسة كليًا في إعادة ترتيب المنزل. حاولتُ فعلاً أن أشارك في تلك الأشياء، فعلاً، أن أنضمّ إليهم وأبدو غير مبالٍ بحضور السيّدة ويلوبي المتعجرف، أن أقنع قلبي بأن يذوب أمام حركات ابنتي وأن أضحك معهم، لكنّ الشّعور بالمرارة من الخراب الذي أصبحته حياتي دُفن تحت ابتساماتي وضحكاتي، واعتقدُ أنّ قلبي لم يذب فحسب، بل انعدم تمامًا. أقول هذا وأنا أشعر بنوع من الخجل.

لم يكن ما في الأمر أنّي لم أحبّ أميليا، أو كرهت أن أترك معها، أو أنّي استأْتُ من الاهتمام المخلص بها، لكنّها كانت غريبةً سلبت منّي حبّي وأحضرت السيّدة ويلوبي لتتدخل في شؤوننا وتهدّد حياتي. أضف إلى ذلك أنّ أطروحة إيما لم تكن تتقدّم كما ينبغي، إذ لم تستطع التركيز في عملها، ولم تكن مقتنعة بوجود أيّ قيمة لها، ولم تستطع تخيل نفسها تنهي كتابتها، ثم ما الهدف من كلّ ذلك على أيّ حال؟ كانت مشرفتها لثيمة، والكلّية بعيدةً جدًّا، غير أنّه استحال عليها رغم ذلك العمل من المنزل بسبب أميليا، كما أنّها سئمت ضيق الحال، والاضطرار للاستيقاظ باكراً، ثمّ لماذا لم يكن بإمكانني أن أستيقظ

ليلاً بوتيرة أكبر للاعتناء بأميليا؟ لأنني كنت متعباً، ولأنها كانت دائماً تسبقني وتنهض من السرير حتى قبل أن أتحرك. صار عملي آنذ كابوساً أكثر من أيّ وقت مضى: فقد كان خبث التلاميذ اللامتناهي محبطاً، وبدا التصحيح مهمة لا ينتهي، كما بدت فكرة التدريس في المدرسة، بل وفكرة المدرسة في حدّ ذاتها مجردة من المعنى. وهكذا، تعالت الأصوات لأول مرة منذ عرفنا بعضنا؛ أحياناً، في بعض الليالي، كنّا نستلقي في السرير نتشاجر بصوت خفيض حتى لا نوقظ أميليا التي كانت تشاظرنا الغرفة نفسها.

في نوبة إسراف، اتّجهت إيما إلى توتنهايم كورت روود ذات ظهيرة في طريق عودتها من الكلية، واشترت كاميرا من علامة بنتاكس. كانت تلك طريقة عدوانية للتعامل مع ضيق الحال، غير أنّ إيما أجابتنني عندما أخبرتها برأيي بأنني لم أكن الوحيد الذي كان قلقاً بشأن المال، واقترحت أنّ الأجدد بي ربّما أن أقلق بشكل أقلّ. عند الاستماع إليها تتحدّث عني، كنت أشعر أحياناً أنّ حياتي عبارة عن قصّة، وأنّي ألعبُ دوري في أحداث تتجاوز إرادتي، أحداث حُدّدت بالفعل ضمن نمط معين لم أكن مستبصراً بما يكفي لاستيعابه. نعم، كنتُ قلقاً بشأن المال، وبشأن الفواتير التي كانت ترد باستمرار، والتي كانت إيما دائماً تنحيها جانباً قائلة: دعها تنتظر. ستصوّف معها لاحقاً. اعتقدتُ أنّ الجميع كانوا قلقين بشأن المال. لم يكن لدينا سوى راتبي المثير للشفقة لنعيش منه، وقد أدهشني عدد الأشياء التي بدت أميليا بحاجة إليها، وكم بدت تكلفتها تتزايد. لذلك نظرتُ إلى ذلك الشيء الباهظ الذي كنت أتعرف عليه للمرة الأولى بشيء من الفزع. حدث هذا مطوّلاً قبل أيّام كؤوس الرّوم الثلاثة بالطّبع، لكن كان هنالك حينها

دائمًا عذرًا لشرب زجاجة من النبيذ في فترة ما خلال الأسبوع، ومثلت تلك الكاميرا عدة أسابيع من العطش الملوح في الأفق.

قالت إيما: «علينا أن نلتقط بعض الصور لأميليا، وإلا فسننسى كيف هي الآن، سيكون من الممتع أن نوثق جميع مراحل حياتها، عندها، يمكننا جميعًا أن نضحك معًا عندما تكبر. لا توجد لي أيّ صور قبل أن أبدأ المدرسة، وأتمنى لو وُجدت حتى أرى كيف كان شكلي... أتفهم؟ وعلى أيّ حال، سيرغب والداك في رؤية صورها، أليس كذلك؟ أم أنك لا تعتقد أنهما سيرغبان في ذلك؟ هل راسلاك منذ أن أخبرتهما عن ولادتها؟»

أومات بالنفي. وشهقت بخيبة متألّمة. ورغم هذا، تشكو من استياء والديّ من كونك أب طفلي. لم تقل ذلك، لم تكن حينها تقول ذلك، لكنني خمنت أن ذلك هو ما اعتقدته. انتظرتني أن أقول شيئًا ما، أن أبني دفاعًا، وعندما لم أفعل، عادت إلى كاميرتها الجديدة بتهنئة تكاد لا تُسمع. أتذكر لحظات جارحة كتلك، والتي لم تفعل شيئًا للتخفيف من وطأتها، وكيف أنها تفاقمت لاحقًا وأصبحت مروعة. وحُسبت تلك عليّ.

لأن الحقيقة كانت أنني لم أراسل العائلة في الوطن بخصوص أميليا، والحقيقة الأخرى كانت أنني لم أراسل العائلة في الوطن عن إيما أيضًا. بالنسبة لهم هناك في مسقط الرأس، لم تكن لا إيما ولا أميليا موجودتين. كما كان من المفترض أن يستمرّ الوضع على ذلك النحو لسنوات. لم أكن أعرف كيف أخبر إيما بهذا - حتى أنني لم أخبرها بعد. عادةً، لم أكن أكتب إلّا لأمي، لكنها لا تستطيع القراءة، ولا يمكنها أن تكتب سوى اسمها. عندما استلامها لرسائلي،

كان يتعين عليها إيجاد شخص ليقراها لها، ثم يكتب لها ردًا، طفلٌ
 سيسعد للقيام بكلّ ذلك مقابل شلن مكافأة. على مرّ السنين، تحولت
 مراسلاتنا إلى طقوس نادرة الحدوث: كلّ بضعة أشهر، كانت ترسل
 لي بضع كلمات تخبرني عن صحّة الجميع، تحياتهم، وأطيب
 التّمنيات، وبعد بضعة أشهر أخرى كنتُ أجيب بشيء ما. الطّقس
 باردٌ جدًّا مؤخرًا، عملي على ما يرام، انتقلتُ حديثًا إلى منزل يقع في
 مكان يسمّى باترسي. في كلّ الأحوال، لم أعرف كيف يمكنني أن
 أكتب لها لأخبرها أنّي أعيش مع امرأة إنجليزية لم أكن متزوّجًا بها.
 في العالم الذي أتيتُ منه، لم يكن بالإمكان التحدّث عن هكذا أشياء.
 بالنّسبة لأمي، كانت إيما ستكون امرأة سيئة السمعة، عشيقه، وإن
 لم يكن من الممكن تجنّب مثل هذه الأمور، كان الأفضل التّعامل
 معها بسريّة وتكتم، لا الإعلان عنها في رسالة من المحتمل أن يقرأها
 لها بصوت عال طفلٌ يعيد الكلام. فكّرت في الكذب، في أن أكتب
 لأخبرها أنّي متزوّجٌ من امرأة إنجليزية، لكنني لم أفعل ذلك أبدًا،
 خوفًا من الخراب الذي سيُطلّق العنان له، خوفًا من اللّعنات التي
 ستعقب ذلك. الآن فقدناك فعلاً، لقد سرقتك منّا، وما إلى ذلك.
 وستُفحّم مفاهيم الله والوطن والثّقافة والتّاريخ فيه، بوم دوم، بلا
 بلا. كما لو أنّي لم أكن قد ضعت بالفعل وسُرقتُ وتحطّمتُ سفني
 وتشوّهتُ لدرجة لم يعد ممكناً التّعرّف عليّ بعدها. كما لو أن الوطن
 والانتماء لم يتجاوزا كونهما مجرد قصص خيال متعمّد في حين لم
 يكن هنالك احتمالٌ (وقتها) أن يصبحا حقيقيّين من جديد. وكأنّهما
 لم يكونا أكثر من مجرد قصص مُنهكة حولت كلّ شيء إلى لحظات
 انتقام أصابت صاحبها بالوهن والعجز.

لذلك لم أقل شيئاً. إذا ما سألتني إيماناً عما قد تكون إجابة والدي بخصوصنا، كنت أطمئنها بكل ما في وسعي من خيال. وعندما كانت تطرح أسئلة أكثر تعقيداً، كنت أتهرب أو أقدم أي إجابة من شأنها أن تنفي بالغرض. بعد فترة، فقدت في الغالب اهتمامها ولم تعد تسأل، لم تعد تهتم بأمرهما، وفي الأخير، نسيتهما، باستثناء كونهما شخصيتين في سياق قصة. أعتقد أنه بمرور الوقت، ومع حياتنا التي امتلأت أكثر وزاد الالتزام فيها، أصبح من الصعب جداً تخيلهما يعيشان حياة حقيقية مثل التي عشناها. على كل، لم أخبرهما أبداً عنها، ومع امتداد مدة صمتي، صار من الصعب إخبار إيماناً.

وأنا أنتظر عودة إيماناً إلى المنزل يوم ذهبتُ لزيارة الطبيب بخصوص قلبي، عرفت أنني سأخبرها بمجرد دخولها. لطالما أخبرتها بكل شيء، وبحث لها به سريعاً مثل الأحمق. عادةً، كنت أول من يعود إلى المنزل، وأكون قد بدأت بإعداد الطعام بحلول الوقت الذي تعود فيه من الجامعة. (لا، لم تكن تعد أطروحتي حينئذ، بل صارت تدرّس فيها). في ذلك اليوم، عادت في وقت أبكر، على غير عادة.

قالت: «خرجتُ لتناول الغداء مع ناشر، ولم أكلّف نفسي عناء العودة للجامعة بعدها». بدت كمن حظيت بغداء ممتع، بعينيها اللامعتين ووجنتيها المتورّدين قليلاً. شعرت بوخز من الغيرة كافحتُ لقمعها، موجة حسد كنتُ أعرف أنني لن أتمكن من تجاهلها. «هل أميليا في المنزل؟»

«لا، وهكذا لدينا المنزل كله لنا وحدنا»، أجبتُها وأنا أومئ لها بحاجبي. شهقتُ باستخفاف وابتسمتُ بما بدا ازدراءً ودوداً،

أو ربّما كان ازدراءً معتدلاً، نسيْتُ الآن ما كان ذاك بالضبط، ثمّ ذهبتُ للاستحمام وتغيير ملابسها. كان من المستحيل التّحدث إليها عند عودتها وهي تحمل في أنفاسها نكهات تلك الأكلات المسرّفة المثيرة للغثيان، وفي عينها ذلك البريق.

«ذهبتُ لزيارة الطّبيب هذا الصّباح»، أخبرتها عندما عادت، متوقّفاً لبرهة كي أضفي قدرًا معقولاً من التّوتر. «أخبرني أنّ قلبي معتلّ».

توقّفت ساكنةً تمامًا للحظة، تنتظر. «ماذا تقصده، بمعتلّ؟»

«هذا ما قاله الطّبيب. ربّما علينا أن نبحث عن المصطلح في قاموس طبي. افترضتُ فقط أنّه عنى أنّ به عيبًا خطيرًا».

«لكن، ألم يقل أين يكمن الخلل؟»، سألت وقد بدت مذهولة نوعًا ما. كان ذلك لطيفًا.

«أخبرني ألا أقلق لأنّ للأفروكاريين قلوبًا معتلةً، لذلك فحالتي كانت متوقّعةً تمامًا»، أجبتها متطلّعةً لانفجارٍ منها دفاعًا عن إخوتي الذين تعرّضوا للافتراء. كان ذلك من الأشياء التي يمكنك توقّعها عادةً من إيما، ومن المسلمّي مشاهدتها عندما تنفجر بالصّراخ الغاضب والسّخط. غير أنّها لم تكن في ذلك المزاج يومها.

«ماذا؟ لكنّك لستَ أفروكارييّا. هل قال أين تكمن العلة؟»

«يجب إجراء المزيد من الاختبارات قبل أن يتمكّنوا من وضع تشخيص دقيق. في انتظار ذلك، لا روم، ولا سجائر».

قالت وهي تكاد تبدو مصدومة: «أعتقد أنّه يجب عليك تفاديها، لكن، ألم يعطك ولو مجرد فكرة عن الخلل؟»

أجبتها وأنا أشعر أنني قد خيبتُ أملها مرةً أخرى بسبب ضعفي في مواجهة المسؤولين وممثلي السلطة، ضعفي في مواجهة الحياة: «بَلْ فَعَلَ، لقد قال إنه قلبٌ معتل».

«توقف عن قول هذا. هذا الطبيب عديم الفائدة، وكذلك أنت. أراهن أنك لم تطلب منه حتى أن يشرح لك ما العلة. من الأفضل لك الذهاب لزيارة طبيب آخر».

أجبتها: «سأنتظر رؤية الطبيب المتخصص».

هممتُ بقول شيء ما ثم توقفت بعد أن هزت كتفيها هزةً طفيفة. إنها حياتك. ربما لم يكن عليّ إخبارها عن التوقف عن شرب الروم. «عليك أن تكون حذرا من الآن فصاعداً»، قالت. «على الأقل حتى نتأكد».

«على كلِّ»، قلت قبل أن تبدأ في الاهتمام المبالغ بالموضوع ووضع قائمة بجميع مُتَع الحياة الصغيرة التي سأحرم منها الآن، «تلقيتُ أيضاً رسالةً من الوطن».

أضاءت عيناها باهتمام جديد عندما قلت ذلك. فقد كان ذلك حدثاً نادراً، وسبباً كافياً كي تبدو متأهبة، فلطالما أزعجتها رسائل والدتي، وكأنها توقعت من هذه أن تحتوي على لوم ومطالب، وكأنها على وشك أن تتعرض للمضايقة ظلماً، وكأن أحدهم ذكرها للتو بشيء مخجل ومن الماضي. أنا فقط أحمّن، لأنها كانت دائماً تقول كلما سألتها: «هذا هراء، أنا قلقةٌ عليك. إذ يبدو دائماً أن رسائلها تزعجك». رأيتها تراقبني باهتمام مدروس، نظرةً كنت أعرفها جيداً، كمن رأت في هذه المعلومة الجديدة خطراً أكبر من ذاك المتعلق بقلبي المعتل.

لذلك، ابتسمتُ وبدأتُ أتحدّث بما اعتقدت أنّها نبرة لطيفة وودودة، لكن ما إن بدأتُ حتّى أمكّنتني سماع أصداء نبرات تعليقاتي كمعلّم: إنّهُ أسلوبٌ إخباري يسعى للإقناع، ويتستّر عن أمور أخرى. وانطلقت في ذلك. كنت معلّمًا، ذاك كان ما كنت عليه. لم أدرك طموحي؛ لم أحقّق ذاتي قطّ.

قلت لها: «أخبرتكَ أنّه حدث تغييرٌ في الحكومة -حسنًا، تغييرٌ خصّ بضع شخصيات رفيعة المستوى. رئيس جديد، نائب رئيس جديد، رئيس وزراء جديد، نائب رئيس وزراء جديد، سفير جديد لدى الأمم المتحدة، مدير برتوكول جديد، هذا النوع من التغيير، لكنّ الحشد القديم نفسه ظلّ يشغل المناصب أسفلهم، يعيش في الأرض فسادًا ويهدّد الجميع. تحاول هذه الحكومة الجديدة تخفيف القيود، والتخلّص من القوانين الأكثر حقْدًا التي ستّها سابقاتها. وقد اعتلت سدة الحكم بعد موجة من الاستنكار الشعبي التي ناهضت الرئيس السابق، والذي فتح بحمقٍ منه أو ربّما بدافع من الغرور موجات الأثير للمواطنين الساخطين أصحاب المظالم، وأعدّا بأنّه لا يجدر بأيّ كان الخوف من الانتقام. لذلك انهمرت الرسائل على محطة الإذاعة، وقرأ المذيعون بفرح كلّ واحدة منها. كانت انتقادات لاذعة وحانقة، لدرجة أنّ الرئيس بدأ يخشى على منصبه من عصابته عصابة الفرسان الفرحين، ولا بدّ وأنّه شكّ في أنّ أحدهم كان سينتهز هذه الفرصة لحبسه، أو ما هو أسوأ من ذلك، أنّه سيُشوى على نار تقاد من خشب القرنفل ليقدّم كطبق رئيسي في مأدبة رسمية. على أيّ حال، استقلّ طائرته الخاصة وهرب إلى البلد المجاور، وألقى خطبًا عند وصوله

إلى هناك عن جحود شعبه ونكرانه للجميل. جاءت الحكومة الجديدة في هذه الموجة من الانتصار الشعبي، وبدأت بحكمة وروية في نقض بعض الأشياء التي انتُقدت سالفها الأكثر عليها أو تلطيف حدّتها. تحدّث أعضاؤها عن التّشّيف والتّزاهة في الحكم، أفرغوا السّجون، وأعلنوا، من ضمن أمور أخرى، عفوًا عن الذين غادروا البلاد بشكل غير قانوني على مرّ السنين. إذا كان هذا حقيقيًا، فإنّه يعني أنّ بإمكانني إذن العودة إلى البلاد... متى شئت».

انحنيتُ (كما يفعل الممثل على الخشبة) فيما يشبه الانحناء الافتراضي عند وصولي إلى تلك النّقطة، داعيًا إيّاها لتقدير مدى جسامته تلك الجملة الصّادمة.

«هذا رائع»، قالت، وعيناها تلمعان. في البدء، ظننتُ أنّ ذلك الضّوء في عينيها كان شعورًا بالسّعادة لفكرة كوني قادرًا على العودة إلى بلدي، لكنّ عندها، خُيِّل لي أنّي لمحتُ فيه بريقًا من القلق. هل اعتقدتُ أنّي قصدتُ أنّي أريد العودة والعيش هناك؟ بعد كلّ هذه السّنوات؟ بعد كلّ هذه التّحوّلات، والصّمت؟

«في زيارة»، قلتُ مبتسمًا لها. «قريبًا. في زيارة فقط، لبضعة أسابيع».

أجابت متحمّسة: «بالطّبع يجب عليك أن تذهب، سيكون من الرائع أن تتسنّى لك رؤية أهلك من جديد، ولهم رؤيتك. لقد مرّ ما يناهز العشرين عامًا الآن. إلهي، أنت مليءٌ اليوم بالمفاجآت».

«لستُ متأكّدًا إن كان من الممكن وصف هذا بالرائع. فالفكرة وحدها تملأني بشتّى أنواع الرّعب. سيكون كلّ شيء مختلفًا،

ولا أعرف ما سيكون رأيهم بي. عندما فكّرت بالأمر هذا الصّباح، كان عليّ الإسراع والجلوس على المرحاض لبضع دقائق. لكن يبقى عليّ الذهاب -في القريب العاجل، على ما أعتقد. تقول والدتي إنّها كانت مريضةً للغاية في الآونة الأخيرة، بعد أن ازداد مرض السكري لديها سوءاً، مع كلّ النقص في الأدوية هناك. لم أكن حتّى أعرف أنّها كانت مصابة بالسكري. وها هي الآن ذا تعاني من مشاكل في عينيها -لست متأكّداً من طبيعة المشكلة بالضبط. لا بدّ وأنهما اعتلّتا، مثل قلبي.

قالت إيما متجاهلةً نكتتي السّمجة: «نعم، عليك الذهاب سريعاً، سيكون محزناً فعلاً... بعد أن صار باستطاعتكم الالتقاء ألاّ تذهب. يمكننا تحمّل تكاليف سفرك، أليس كذلك؟ عليك أن تفعل ذلك، وسنكون أميليا وأنا بخير هنا».

أجبتها: «لعلّ الأمر لا يتعدّى كونه مجرد تنفيس عاطفي. بعد مرور كلّ هذا الوقت. الشعور بهذا الارتباط النّابع من نوع من العادة».

أجابتنني وسخط نبرتها مليءٌ بالانزعاج: «لا تكن غيبياً، كم من مرّة رأيته جالساً هنا تبكي وأنت تتحدّث عنها؟»

لم أطلع إيما على بقية ما قالته الرّسالة. كلّ هذه السّنوات التي عشتها في ذلك البلد لوحده، مثل الغول في منزلٍ متداعٍ؛ ستقول إنّ الأمور ليست على هذا النّحو، إنّ حياتك ليست على هذا النّحو. لكنني هكذا أراك عندما أفكر فيك. وقد أكني هذا أكثر ممّا أستطيع وصفه لك. أريدك أن تأتي وأن ترانا الآن بما أنّه صار بمقدورك أن تفعل، وأريدك أن تتزوّج قبل أن تعود إلى ذلك البلد، إن كانت تلك رغبتك. أعلم أنّك رجلٌ بالغٌ، وقد تعتقد أنّ هذا لم يعد من شأني،

لكنّه سيسعدنا جميعاً، وسيصبح لك في حياتك رفيق، وإن شاء الله،
ستصبح لك أسرته. لقد تحدّثت بالفعل إلى عائلة لطيفة قد تتذكّرها،
عائلة الهالالي الذين كانوا يعيشون في منازيني، وهم موافقون.

رجل بالغ. أبلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا. يمكنك أن تتخيّل
ما كان سيكون رأي إيما في كلّ هذا إن عرفت بالأمر. إذا سمعتُ بأنّ
والدتي كانت تخطّط لتفريقنا، وترتب لي زواجًا من طفلة بائسة لم يكن
لديها خيارٌ في المسألة سوى الإذعان والزواج في النهاية من وحش
عجوز مريض بالقلب علاوةً على عدّة أسقام أخرى. ثمّ ما خطبي لا
أستطيعُ إخبارهم أنّي لا أريد الزواج من أيّ كانت؟ ما خطبي؟ لماذا
كنتُ ضعيفًا لهذه الدّرجة؟ ما همّني إن كانت تحتضر. أيّ نوع من
الحبّ الأخرق القاسي هذا الذي يمكنه أن يدفعها للتّصرف على هذا
النّحو؟ من الأفضل لك أن تراسلها في الحين لتخبرها أن تغرب عن
وجهي أو سأغرب. كيف تجرأتُ على هذا!

الأفضل عدم قول أيّ شيء، لأنّ فعل ذلك سيّعني... أوه، أن
عليّ أن أبوح بما هو أكبر من ذلك بكثير، وأنّي سأفتح قبرًا نتنا مليّنًا
بالأكاذيب الملتوية والقصص الجيفة. لم تكن هذه أوّل مرّة ذكرْتُ
فيها والدتي الزواج، ولا أوّل مرّة وصفت فيها حالتي في إنجلترا بأنّي
غول أختبي في منزل متداعٍ، أكُلّ للجثث (لا بدّ وأنّ هذا كان أحد
كوابيس طفولتها)، لكنّها لم تتماذى أبدًا إلى درجة اقتراح شخص
ما من قبل، إحداهن، امرأة، ناهيك عن إيجادها، ومفاتحة والديها
في الموضوع، بل وعلى الأرجح أيضًا الموافقة على مهر والتّخطيط
لحفل زفاف والتّفكير في المجوهرات التي ستهدّيها للعروس كهدية
عرس. بالطبع لم تكن تعرف شيئًا عن إيما، لكن الأمر ظلّ يبدو خطوةً

ديناميكية عدوانية. غنيٌّ عن القول بالطَّبع أنِّي كنت سأرفض الأمر جملة وتفصيلاً. بقي فقط تحديد أفضل السَّبل للتعامل معه بشكل صحيح. يمكنني أن أكتب لها على الفور وأطلب منها أن تلغي كلَّ شيء، لكن ما الذي سيدفعها للاستماع لما أقول؟ سيكون ذلك آخر ما قد تتوقعه مني. فقد سبق لها التحدُّث بالفعل مع عائلة الهلالي أولئك، فهل ستذهب إليهم الآن لإلغاء الزَّيجة والانسحاب انسحاباً مهيناً بسبب احتجاج روتيني من قبلي، أم أنها ستعتقد أنَّ من الأفضل لها عدم فعل شيء وانتظار وصولي إلى هناك؟ كبديل عن كلِّ هذا، يمكنني ألا أقول شيئاً، ثم أخبرها عند وصولي بعبارات أكيدة لا لبس فيها أنَّ هذا أمرٌ غير وارد -وأعتقد أنَّ الظَّرفين غير الأكيدين الوحيدين الموجودين هما إيما وأميليّا. عليّ أن أخبرها بذلك. على ما أعتقد.

أذهلتني أميليّا بطريقة ردّها. كانت آنذاك شابّة فظّة ومشتّّة الذَّهن في السَّابعة عشرة من عمرها، لكنّها بالطَّبع لم تكن على تلك الحال دائماً. رغم طول الوقت الذي أمضته برفقة السيِّدة ويلوبي، إلّا أنّها كبرت لتصبح ذات جمال فائق. ما أن بلغت شهرها العاشر، حتّى صار بإمكانها المشي والتحدُّث وسحر جمهورها المخلص كيفما شاءت. وعندما كبرت، تعاملت مع معظم ما صادفها بتسامح طبيعي كان من المستحيل التنبؤ به عند ولادتها، بعد كلِّ الغضب الذي اكتنف طفولتها الأولى بيننا. لعلّ تأثير السيِّدة ويلوبي كان مفيداً لها في نهاية المطاف، أو لعلّها مرّرت لها بعضاً من قدرتها على الحفاظ على هدوئها دون إظهار الثَّوبات الغادرة التي أبقتها عليها مخبّأة تحت السَّطح. كان كلُّ شيء على ما يرام مع أميليّا طالما لم تُترك لتلعب بمفردها، أو لم تُجبر على أن تأوي إلى الفراش والشَّقة ما تزال منيرة. كما كان لديها عددٌ

من التفضيلات الغذائية الغريبة (وضع المربى على أصابع السمك المقلية على سبيل المثال، وكرة مستبسل لمذاق اللحم البقري، مهما كان مخبأً في الأطباق بمهارة)، لكنها أحببت أغاني الأطفال وأمضت ساعات مع أقلام التلوين وأوراق الرسم تشدو بسعادتها في الحياة وهي تأهل عالمها. دراستها كانت جيدة، وصحتها أيضاً - باستثناء تبولها المفرط - وبلوغها سنّ العاشرة، كانت قد قرأت عشرات الكتب من بين تلك التي رُتبت على أرفف مكتبتنا؛ بعضٌ منها كانت قد علّمتها بأقلام السّمع وهي طفلة، كما لو أنها جهّزتها لتتعرف عليها لاحقاً. تشدق معلّموها وابتهجوا بمواهبها في الدّراسة، في الموسيقى، وفي الصّداقة. كما تمتّع أيضاً بموهبة عاطفية ما أمكن لمعلّميتها تخمينها. ذكرنا أنفسنا بأنّ ذلك من طبيعتها، وألا يد لنا فيه، لكن لم يمنعنا ذلك من الشّعور بالفخر. اعتقد أنّي أصبّت زملائي بالملل بتقاريرتي التي لا تنتهي عن انتصاراتها، وأعلم أنّي تحدّثت عنها للبرابرة الذين درّسّتهم، لأنهم أحياناً ما كانوا يطلبون تقريراً مرحلياً عن بعضٍ من أنشطتها التي أكون قد ذكرت أنّها في خضمّها.

أتذكر عطلةً في لاينك ديستريكت كواحدة من أمتع عطل الصّيف التي قضيناها في حياتنا معاً، ثلاثنا. لم يكن هنالك شيءٌ مميزٌ بخصوصها باستثناء الكثير من الضّحك والوجبات البسيطة، وقراءات لشعراء منطقة البحيرة بصوت عالٍ حتّى وقت متقدّم من الليل، مع شعور بالخيبة لغياب زهور النّرجس (كان ذاك شهر أغسطس)، والمشي مسافات طوال على ضفاف البحيرات الخلّابة اللامحدودة. ما زالت لدي صور عن تلك الفترة، وأعلم أنّي لم أختلق الرّضا المستحيل الذي تظهره.

ثم كبرت، على ما أعتقد. تحدّثت إلى والدتها عن أشياء لا بدّ وأنها اعتقدت أنّه لم يكن بإمكانني مساعدتها بخصوصها. كان أمرًا متوقعًا، لكن مؤلمًا أيضًا بشكل غريب. أرادت أن تقوم بالأشياء بشكل مختلف، بطرق بدت غريبة بالنسبة لي، وعندما أخبرتها بذلك شعرتُ بهوة تتسع بيننا وكأننا أصبحنا غرباء. استغرق ذلك مني وقتًا قبل أن أدرك أنّها لم تعد ترغب في أن أعاملها كطفلي المحبوبة، تلك التي ستستمع بشغف لأفكاري ونصائحي الحكيمة قبل أن تغيّر خططها لتتماشى معها. لذلك، عندما صرختُ لأوّل مرّة في وجهي والغضب يتملّكها، بكيت. أتذكّر ألمها ومعاناتها حينها، لكن ربّما لم بيد أيّ مني حيلة لمنع الهوة بيننا من الاتّسع. لعلّ الخطأ كان خطئي أكثر من كونه خطأها، لأنّي كنتُ بطيئًا في تعلّم كيفية ترك بعض الحرّية والخصوصية لها، والانسحاب بتألّق ومحبة. ثمّ كبرت الهوة لتصبح عادة لا تتخلّلها سوى لحظات من الحنان الحذر تقتحم اليقظة المؤلمة. ربّما أنا أبالغ، لأنّه لا يمكنني عند تذكّر هذا احتواء جماح خيبة الأمل. أفترض إذن أنّي تعلّمت تركها لحالها، باستثناء المرات التي كانت تتغلّب فيها على محاولاتي في أن أهرّم بشرف بما بدا يشبه الاستفزاز الذي كان من المستحيل عليّ تجاهله. نعم، أعلم، كلّ هذا كان متوقعًا أيضًا، لكن في وقتٍ ما، بدا وكأنّ الأمور ستأخذ منحى مغايرًا، وأنّها لن تؤوّل إلى ما آلت عليه.

على أيّ، عند عودتها كنت لا أزال جالسًا على الكرسي نفسه (أتحرق شوقًا لكأس من الرّوم)، بينما كانت إيما في المطبخ تحضّر العشاء. أخبرتها أنّ ذلك لم يكن ضروريًا، فقد كان بإمكانني إعداد عجة لي ولأميليا. فقد قالت إيما إنّها كانت بالفعل شبعى جدًّا ولا يمكنها

الأكل. لكنّها ألحّت، قائلة إنّ عليّ أن أرتاح وأنا في حالتي المضعفة تلك، وإنّها ستعدّ شيئاً ملائماً لهذه الظروف. كنت أمل أن تعدّ فطيرة، فقد كانت تجيد إعدادها بشكل رائع. دخلت أميليا بملابسها المهترئة، ومكياجها المبتذل يلطّخ وجهها، على الأرجح لأنّها داعبت أحدهم في الساعة أو الساعتين الأخيرتين. توقّفت عند باب غرفة المعيشة وأعطتني ابتسامتها المتهكّمة التي كانت طريقتها المعتادة في إلقاء التحيّة. ثمّ أسقطت حقبة الظّهر الموحلة التي تنكّرت في شكل حقبة مدرسية حملت بداخلها المعدّات اليومية لحياتها حياة الشّابة الفاسدة، وانسحبت نحو غرفتها وهي تجرّ الحقبة أرضاً.

هتفتُ: «مرحباً، أيّتها الحليقة، أودّ أن أتحدّث معك». ناديتها بحليقة الرّأس لأنّها كانت قد قصّت شعرها مؤخّراً، ولأنّها بطريقة ما أحبّت ذلك الاسم. جعلها تشعر بأنّها منحرفة وعلى اتّصال بثقافة الشّوارع. تسحّبت عائدةً واستندت على الباب من جديد. «هذا إن لم تكوني مشغولةً جدّاً».

متنهّدةً بصبر رغم انزعاجها، سألتني: «ما الأمر؟»

ابتسمتُ لها، ورفعتُ حاجبيها في استفسار ساخر. ثمّ قلت: «تعالى واجلسي معي. قد يستغرق هذا بضع دقائق».

أخبرتها عن الطّبيب أولاً، والتزمّت صمتاً مندهشاً، محدّقةً في بنظرة رعبٍ وشفقة قبل أن تقول: «أنا آسفة»، وكأنّي متّ لتوي. ثمّ أضافت: «ربّما سيجد الأخصائي أنّ الأمر برّمته مجرد خطأ». لم أفكر في ذلك، وكنتُ ممّتناً للحظة الطّمانينة الوجيهة التي قدّمتها لي. ثمّ أخبرتها عن الرّسالة، فابتسمت بسعادة وحماس.

قالت: «أوه، يمكنك الذهاب في زيارة». واعتقدت لحظتها أنها على وشك معانقتي، أو تقبيلي، أو شيئاً من هذا القبيل. ولكن ذلك فعلاً تخطيطاً كبيراً للحدود بالنسبة لها؛ فهي لم تفعل أي شيء كهذا منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ومن المؤكد أنها استطاعت كبح نفسها والتوقف على بعد أقدام متني. «إنها أخبار رائعة حقاً. بعد كل هذه السنوات... بعد بُعدك عن منزلك طول هذا الوقت، تتحدث كثيراً عنه، ستمكّن من العودة إليه أخيراً. متى ستذهب؟ هل إيما ذاهبة معك؟ هل أخبرتها؟»

وبقولها هذا سارعت لوالدتها، وأمكنني سماع صوتها المتحمّس وهي تروي الأخبار الرائعة. سألت عند عودتها: «هل يمكنني الذهاب معك؟»

هزرت رأسي بالنفي.

فألحّت: «لمَ لا؟ إنه بلدي أنا أيضاً». بدت في غاية الجدّة والحماس لدرجة أنني لم أجروّ على الضحك. «لماذا تبتسم؟ إذا كان بلدك، فهو إذن بلدي أنا أيضاً».

أجبتها: «أعتقد أنّ الأفضل هو أن أذهب بمفردي هذه المرة، بعد كل هذا الوقت. دعيني أولاً أرى كيف تجري الأمور هناك».

في الأيام التي تلت، خلال أسابيع التحضير للرحلة، وفيما ساعدت إيما بالتفاصيل العملية، بالتسوق لاقتناء الهدايا، بطمأنيتي وتقديم النصيح لي، مستمعة لكل الفظائع والإذلال الذي توقعت أن أجد هناك، كانت أميليا من أضفى على رحلتي طابع الرومانسية والمغامرة. وقد أذهلتني بحماسها وفرحها المتفاني. ابتسمت إيما وهي ترى سخافات

ابتتها، لكنّها لم تقل شيئاً لتبدّد أوهامها، لم تذكر شيئاً عن الحرمان والحاجة اللذين توقّعتُ أن أجدهما هناك بعد عديد السنين من الحكم الفوضوي والمضطغن.

ابتسمت السيّدة ويلوبي عند سماع الخبر. ثمّ قالت: «حسنًا، سيكون الأمر جيّدًا لو الدتلك». لم تكن مهمّمة، وما أمكنها أن تهتمّ. لعلّها كانت ستحمّس أكثر لو شكّت في أنّي قد لا أعود، لكنّها صارت تعلم جيّدًا الآن بعد مرور كلّ هذا الوقت أنّي كنتُ عاجزًا تمام العجز عن الإقدام على شيء حاسم إلى هذا الحدّ. لم يستطع السيّد فهم الأمر في البداية، إذ فقد السّمع وتقهقرت صحّته بسرعة؛ وحدهما عيناه دارتا وحدّقتا بذلك التّعطّش القديم. لكنّه حينما فهم أخيرًا أنّي عائذٌ إلى الإمبراطورية المفقودة، هزّ رأسه حزينًا على عبثية مهمّتي. وقال: «لقد فات الأوان».

كلّما باغتتني أميليا متأملاً، غارقاً في أفكارٍ (أي مصاباً بالذّعر في صمت) كانت تقول: «ما الذي تفكّر فيه؟ تذكرُ الرّحلة. لماذا لا تفكّر في العودة؟ سيرفع ذلك معنوياتك. في أيّ فصل هم هناك الآن؟ هل سيكون الحرّ شديداً؟ تمنيت لو تمكّنتُ من مرافقتك».

«في المرّة القادمة».

الجزء الثاني

وإن لم تكن دائم الاهتمام بنفسك الشبيهة بالكلب⁽²³⁾.

«منطق الطير».

فريد الدين العطار النيسابوري

مكتبة
t.me/soramnqraa

(23) والمقطع كاملاً: «يا من مكانك تنوره الغفلة، لقد أحاطت بك رغباتك من كل زاوية وطوّقتك، إنّ الدمع القاني أسرار القلب، أما الشّيع فصداه، وإن لم تكن دائم الاهتمام بنفسك الشّبيهة بالكلب، فإنّها تكون أدنى مقاماً من خنيثِ الجواهر. (المترجم)

بعد حمى التحضير وكل مخاوف الترقب، جلستُ بالمطار في بهو المغادرة منتظرًا بداية الرحلة بهدوء كثيب ومستسلم. شابهت اللحظة تلك التي تسبق الاضطهاد. لم يبق الآن إلا ذلك الشيء وحده. ضف إلى ذلك، عديد الأمور الأخرى التي عليّ الاهتمام بها. لم أسافر حقًا منذ وصولي إلى إنجلترا: أسبوعُ عطلة في فرنسا، وآخر في إسبانيا، في كلتا المرّتين كنتُ جزءًا من حشد كبير مطيع جُمع ووُجّه في الاتجاه نفسه. في حالة من التحليل المفرط، أثار كل شيء في بهو المغادرة اهتمامي. بدا أنّ هناك العديد من المسافرين الهنود والأفارقة، ربّما كان ذلك راجعًا لمصادفة الوجهة: والظاهر أنّ معظم الرحلات الجوية في تلك السّاعة من الليل كانت متّجهة إلى أماكن مظلمة.

أتى رجل بشعر كثيف مشطه في شكل دائري على جبهته ليجلس بجواري. كان يرتدي بذلة مخطّطة دبلوماسية المظهر راقية، كتلك التي يرتديها شباب اليوم، لكن في حالته بالذات، غطى نوعٌ من قساوة الشارع على عدم ملاءمة في أسلوبه، ووُجد نوعٌ من التأتأة في اللّغة التي تحدّث بها ذلك الجسد وهو يرتدي ذاك الزي. عندما نظرتُ إليه مرّة أخرى بشكل عرضي، التقت أعيننا. بدا وكأنّه يقفز باهتمام، فيما أشحتُ على الفور بنظري بعيدًا عنه. في مظهره، وُجد شيءٌ من هيئة الشيطان المترهل وشكله الطفيلي، شيءٌ من عميل الحكومة أثناء خروجه عريضة. كنت أخاف أمثاله، فورًا وربّما ظلّمًا. إذ كان بإمكانه بسهولة تخيّل ينزل عند أيّ حفرة جحيم كانت اكتسبَ فيها أحقيّة السفر حول العالم بمثل ذاك الامتياز، وهو يخلع بذلة القرد خاصّته

ليقتل حذاء المطاطي ويرتدي زيّه، قبل أن يتوجّه إلى غرفة التعذيب ليقتل خصيتين بكمّاشة ويوصل أقطاب كهربائية بأجزاء ضعيفة أخرى من جسم إنسان ما. وإن لم يكن يفعل ذلك بالضبط بنفسه، فمن المؤكّد أنّه كان يعرف أشخاصًا يفعلون ذلك أو يأمرّون آخرين بفعله؛ وكان يجلس ليضحك برفقتهم وهم يشربون النبيذ المعفى من الرسوم الجمركية الذي يكون قد أحضره معه من رحلاته، بينما يتحدثون عن المضحك. عملية الاحتيال التي تمكّنوا جميعًا من إيقاع ضحاياهم البؤساء فيها.

كان المسافر بمحاذاتي ودودًا، وجهه مستديرٌ ولامع، بدا أنّه لم يكن في وسعه غير الابتسام. في معظمه كان اللّمعان عرقًا مسحًا بمنشفة يد كبيرة حملها على كتفٍ مثل شال حريمي. توقّعتُ ألاّ أستمتع برفقته، لكنّه كان ساحرًا وممتع الصّحبة، حتّى وجدّني أخبره عن رحلتي وحياتي في إنجلترا، وأتحدّث معه بحريّة كادت تكون مسكّرة. حتّى أنّي أخبرته عن إيما، رغم أنّي بسّطت في الأمر كثيرًا. أمّا من جانبه، فقد تحدّث عن كلية الحقوق التي كان يدرس فيها في لندن (وقد بدا أكبر سنًا من أن يرتادها) وعن زواجه الوشيك. وكان ذلك سبب عودته إلى الوطن. سألتُه عن رقم هذه الزّوجة في سلسلة زواجاته، فضحك بلطف وقال إنّّه فقيرٌ جدًّا ليسمح لنفسه بالتعدّد. حتّى الآن، لم يكن الزّواج فكرته، لكنّ والديه صارا قلقين من كونه آخره كثيرًا، لذلك وافق عليه بهدف الحفاظ على السّلام في العائلة. كان سخيًّا في تقديم النّصائح والأخبار حين اكتشف طول المدة التي غبّ فيها، الشّيء الذي لم يزعجني بالقدر الذي توقّعتّه. لكن عندما تطرّق إلى مخاوفي غير المبرّرة -قائلًا إنّ كلّ شيء مختلف الآن، فقد رحل الجميع،

لا تشعر بالذنب لأنك لم تعد في وقت أبكر- جعل محتوى بطني يتميه من الخوف، وتوجّبت عليّ الهرولة إلى المرحاض.

كان الليل قد حلّ عندما غادرنا لندن، لذلك لم نر شيئاً أثناء تحليقنا فوق إفريقيا، غير ضوء بين فينة وأخرى بدا من تلك المسافة وكأنه نارٌ مشتعلة أو دخان غاز ملتهب. عند الصّباح، بدت الأرض أدناه قاحلة خالية، ومخيفة من شدة قساوة مظهرها. حلّقنا فوق ما بدا نهراً صغيراً قدراً متعرجاً بين رمال بنية صوانية تشبه الطّين المطبوخ، وأخبرنا الطّيار أنه نهر النيل. التّصقت مجموعات صغيرة من المنازل بحافتيه هنا وهناك، مثل زوائد أو تشوّهات على خطّ النهر المستقيم. لاحقاً، صدمنا مشهد بحيرة توركانا لما طوّقها من جميع الاتجاهات من فراغ خال حجري. بعد ذلك، تغيّر المشهد فجأة عندما غادرنا كليمنجارو منعطفين يميناً واقتربنا من السّاحل الذي تناثرت فيه بين مكان وآخر أدغالٌ، وأحياناً مساحاتٌ شاسعة من الزّمرد. أخيراً، لمحنا المحيط اللامحدود ورأينا أفواجاً وكتائباً من أشجار جوز الهند تسير نحو الشّواطئ الفارغة. ثمّ عبرنا مياه القناة الرّمادية الرّاكدة الفاصلة بين القارة وجزيرتنا. بدا كلّ شيء مألوفاً للغاية عندما حلّقنا على مقربة من الجزيرة لدرجة أنني شعرتُ بعينيّ تدمعان من شدة وضوح الذّكرى التي حافظت على هذه الصّور بسهولة، دون تجديد أو عناء.

بينما كنّا ننتظر للنزول، عاد رفيقي لمسح عرقه بمنشفته، مبتسماً لتوتري، متمنياً لي حظاً سعيداً مع فرحة لطيفة شابها خبثٌ على محيائه. صدمتني حرارة الأرض ورائحتها وكأنّها أوّل مرّة تصعقني. لم أتذكّر الأشياء على ذلك النّحو، لم أتذكّر الأبخرة الرّطبة الخائفة للنبات المتحلّل والترّبة المختمرة التي جعلتني ألّهث وأكافح لأتّنفس.

كان مبنى المطار جديداً، خفيضاً، لا يشبه شيئاً بالتحديد، كله زجاج وفولاذ، بشرفة مطلّة في طابقه العلوي. في مكان ما على جانبه الأيمن، وقف مبنى المطار القديم، وقد بدا أصغر منه، مزخرفاً بسقفه المغطى بقرميد قرمزي وسوره الخشبي الثقيل، مثل رواق في حديقة زينة، أو وسط فيلا بُنيت على جانب تلّ متوسطيّ. عندما سرنا على المدرج، شعرتُ بأنّي مكشوفٌ كما لو كنت قد نزلت من الطائرة عارياً، أو كما لو كانت ملابسني فضفاضة جداً أو ضيّقة جداً، أو مزركشة جداً ومدعاة للسخرية، أو كما لو كنت لاجئاً هرب لتوّه من السّيرك. بحثتُ عن وجوه مألوفة في الشّرفة، ورأيتُ وجهاً بدا وكأنّه وجه زوج أمي. بعد كلّ هذا الوقت، ومن مسافة بعيدة كتلك، لم أستطع الجزم، لذا لوّحت بيدي لأكون على الجانب الآمن في حال ما إذا تبين أنّه هو. حدّق الرّجل الذي لوّحت له برهةً ونظر خلفه، ثمّ التفت نحوي بنظرة من تفاجأ. كان أصغر بكثير من أن يكون زوج أمي، أمكنني رؤية ذلك الآن.

ربّت أخي غير الشقيق أكبر على ظهري حين كنت واقفاً أنتظر استلام أمتعتي. لم ألحظ اقترابه من خلفي، وبعد الالتباس الذي وقع مع الرّجل الذي ظننته زوج أمي، توقفتُ عن البحث بين الوجوه بتلك اللّهفة والترقب، لئلاّ أخرج نفسي مرّة أخرى. بدا أصغر بكثير مما توقّعت. تصافحنا وكأننا نلتقي من جديد بعد انفصال قصير، مبتسمين بخجل أحداً للآخر، ونحن نردّد كلمات التّحية الطّقسية دون تشديد ولا مبالغة. أشار إلى البوابة، ومن خلال السّياج، رأيت أمي تقفز صعوداً وهبوطاً بحماس، تتبسم وتلوّح وهي تقول شيئاً لم يسعني سماعه. بجانبها وقفتُ شابةٌ لم أتعرف عليها، لكنني خمنت

أنها لا بدّ أن تكون أختي غير الشقيقة حليلة. تركتها صغيرة جدًا عندما غادرت. كانت تلوح بدورها، بجنون. فجأة، شعرتُ بالارتياح بسبب هذا الترحيب وهذه المودة والمحبة. لستُ أدري ما الذي توقّعتُ، لومًا في الغالب على ما أعتقد، ونظرات عبوس.

جلستُ بين أمي وحليمة في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة المهرثة، بينما جلس أكبر في المقدمة، بمحاذاة السائق. أمي بدورها بدت لي وكأنها تغيّرت أقلّ ممّا توقّعتُ. غطّى رأسها بويبوي⁽²⁴⁾، رغم أنّه شدّ إلى الوراء بما يكفي لأرى أنّ شعرها أصبح رقيقًا وخطه الشيب. لكنّ وجهها بدا ثابتًا ومفعمًا بالحياة، كما بدا لي ضحكها وصوتها مألوفين كما هو صوتي. فقدت القليل من وزنها، وبدت لي أكثر رشاقة وأكثر ثقة بنفسها ممّا كانت عليه في ذاكرتي. أبقت نظرتها عليّ حين تحدّثت، وأطلعتني عن أخبارهم، وسألتنني عن أخباري، وهي تداعب شعري الرمادي بين جملها والابتسامات. لفّت انتباه سائق سيارة الأجرة في مرآة الرؤية الخلفية، رجلٌ في مثل سنّ محرّكه وشييه، وقد بدا متوترًا مشغول البال، وعلى ما يبدو غير متأثر مطلقًا بمشهد لم الشمل هذا.

صادفنا أوّل حاجز على بعد حوالي نصف ميل من المطار. بالقرب من الحاجز، لم يكن هنالك أحد، لكن وُجد بمحاذاة الطريق مبنى تذكّرتُ أنّه كان مركزًا للشرطة فيما سبق. هذه المنطقة الواقعة على بعد ثلاثة أميال من المدينة، كانت جيبًا أوروبيًا قبل الاستقلال. لا مجال للشكّ أنّه بني على جانب المطار من المدينة ليكون عمليًا، لكن ربّما أيضًا لتسريع وتيرة الأمور في حال ما إذا أصبح الإخلاء السريع

(24) وشاح أسود يشبه الخمار يعرف أيضًا بالبويوي السواحلي، ترتديه النساء في زنجبار.

الضروري حالة طارئة. أتذكر أنني كنت أمر من هنا على متن الدراجة لأزور أطلال قصر السلطان علي بن حمود، والتي كانت على مشارف البحر، على بعد ميل أو ما يقارب من الطريق الرئيس. تنازل علي بن حمود عن عرش آل البوسعيد سنة 1911 أثناء وجوده في باريس، بعد رحلة إمبراطورية فخمة إلى لندن حضر خلالها مراسيم حفل زفاف ملكي أو تنويع أو ما شابه، والذي استدعي إليه جميع أعضاء أعظم إمبراطورية شهدها العالم على الإطلاق من رؤساء وراجات وسلاطين حتى يتمكنوا من رؤية إنجازات إنجلترا ويأسها. كان السلطان علي قد رأى من قبل إنجازات إنجلترا، كونه تلميذ وترعرع هناك، ولأنه لم يعد إلى مملكته الجزيرة إلا لحكم أباطرته العمانيين المتزمتين وأتباعهم السود عند وفاة والده. حين لم يبق له مجال للمزيد من الحفلات، ولا للخمور وسباقات خيل أو علاقات عابرة مؤلمة، فقط لبس أردية منسدلة ومكائد عائلية وصلوات ومحظورات. بعد عامين من كل هذا، وبعد أن شيد السلطان لنفسه أثناءهما قصرًا حديثًا مطلقاً على البحر، عاد إلى أوروبا لحضور احتفالات وليّ أمره، وصيّته وحاميه، ثم رفض العودة. من المناسب بطريقة غريبة أن تكون المنطقة المحيطة بقصره المهجور قد أصبحت موطنًا لمستعمرة أولئك الذين اختارهم ليكونوا شعبه وناسه. ولا بدّ وأنّ الأشباح قد وجدت في هذا الخراب رفقاءها بهيجين ودودين وبسطاء.

لم يكن أول فرد في عائلته يهرب إلى أوروبا. فقد فرّت قبله بضع سنوات عمّة أبيه سلمى مع دبلوماسي ألماني. كان الألماني قد لمحها على إحدى شرفات المنزل المجاور للمنزل الذي استأجره، ووقع

في حبّها. وقد خشي كلاهما أنّ انكشاف ذلك يعني انتقامًا فظيعًا بسبب العار الذي ستلحقه علاقتها العاطفية بعائلتها، وثبت أنّهما كانا محقّقين بهذا الشأن. إذ حملت عشيرتها هكذا الأشياء على محمل الجدّ. لذلك هربا سويًا. غيرت اسمها ليصبح إميلي، وانتقلا للعيش في برلين، لكن في غضون بضعة أشهر، دهست عربية ترام هير رويتر، وتُركت سلمى بذكرياتها وفقدتها. غير أنّ حدسها كان في مقامه عندما قرّرت كتابة سيرة ذاتية حقّقت مبيعات عالية، وهو الشّيء الذي لم يفعله علي بن حمود.

مباشرةً بمحاذاة أنقاض قصر علي بن حمود حديث المعمار، وُجدت كنيسة المطران ويستون ونُزله. كان فرانك ويستون بطل زمانه، كاهنًا فيكتوريًا صالحًا جاب ربوع البلاد داخل الجزيرة وخارجها، قاطعًا البحر بحثًا عن عبيد يمكنه إنقاذهم وجعلهم يعتنقون ديانته. وقد آوى أولئك الذين اختاروا الهروب، وبشرّهم بكلمات الرّب التي أحبّها، كما علّمهم القراءة حتّى يتمكنوا من دراسة الكتاب المقدّس. شعر بحزن عميق عندما تناهت إلى سمعه الممارسات الجنسية الوحشية التي نفّذها أتباعه من الشّباب في النّزل الذي قدّم لهم فيه الملاذ الآمن، غير أنّه لم ييأس. كما أنّه لم يعتقد أنّ من الضّروري إبلاغ الطّيبين في الوطن الذين كانوا يجمعون الأموال لمهمّته في أسواق الكنائس وما شابه عمّا كان يحدث. كنتُ أزور الكنيسة عند ذهابي للتّجول في أرجاء القصر المدمّر. وقد أخبرني حارس الحيّ الكنسي ذات مرّة أنّ هنالك نفقًا أسفل القصر يمتدّ إلى غاية الميناء، خُفر حتّى يتمكّن السّلطان علي بن حمود من جلب العبيد لمتعته الخاصة، رغم أنّ الاتّجار بالبشر صار غير قانونيّ بحلول العام 1910.

إذا كان هناك بالفعل نفق، وقد أصبح الحارس متهرّباً عندما سألتُه عن مكانه، فالأرجح أنّ السلطان أمر بحفّره حتّى يتمكن من الهروب إلى أوروبا في جناح إحدى الليالي الحالكة. في المتحف، توجد صورة لفرانك ويستون وهو يتناول العشاء؛ عندما رأيتها، لم أنس أنّه إنجليزيّ في مستعمرة، يرتدي ملابسه كما لو كان في هامبشاير يتناول حلوى البودنج.

متجاوزاً الفيلات طوال تلك السّنوات الماضية على متن درّاجتي، كنتُ أتأمّل حداثتها الأنيقة وألوانها الزّاهية، الوردي منها والأزرق وحتّى (وأنا أتذكره جيّداً) ذاك الذي يشبه رقعة الشّطرنج في تصميمه. بُنيت كلّها من قبل دائرة الأشغال العمومية التابعة للحكومة، والأرجح أنّ ذلك تمّ وفقاً لمخطّطات رسمها مهندسٌ معماري في مكتب ما في لندن، ولم يشغلها غير الأوروبيين من الموظّفين. وبالطّبع، كانوا بحاجة إلى مركز شرطة قريب منهم، حال اندلعت فوضى وأعمال شغب، أو ما هو أسوأ. وقتها، بدا مركز الشّركة بمثل أناقة الفيلات، مطلياً باللّون الأبيض بشكلٍ جميل، تزيّنه شجيرات ممتلئة وأزهارٌ ورقية ملوّنة بشكل مشعّ لنبات الجهنمية المصطّف على طول الممرّ الممتدّ إلى غاية المدخل الأمامي. حتّى رجال الشّركة في المخفر بدوا عنصرياً من الديكور ومهندمين بأناقة، بسرّويلهم القصيرة الكاكي، المتصلّبة اللامعة بفعل النّشأ، وشرابات طرابيشهم المتألّثة والممتلئة الممشّطة بعناية. كما أحفظ جيّداً بذكري سارية علّم كان أحد رجال الشّركة دائماً يرفع عليها علماً، رغم أنّي لم أشهد ذلك المنظر أكثر من مرّة أو اثنتين. أمّا الآن، فتناثرت على الجدران بقع الطّين، وصارت الحديقة أمام المبنى عاريةً جرداء مثل أرضية طوبية. لم تبقى لا شجيرات

ولا نباتات الجهنمية ولا سارية العلم ولا الأحجار المطلية بالجير الأبيض لتعليم الممشى، ولا حتى السلسلة المستنة الشائكة المزخرفة التي أدرك فقط الآن أنها كانت محاولةً واثقة للإيحاء بمظهر إحدى حدائق الضواحي الإنجليزية تحت هذه المناخات الاستوائية.

أعطى أكبر بعض المال لسائق سيارة الأجرة عند الحاجز، ثم انتظرنا داخل السيارة في صمتٍ قلق. بعد المركز، وعلى الطريق الترابي المؤدي في نهاية المطاف إلى قصر علي بن حمود، وقفت مجموعة من الناس تحت شجرة وكأنهم ينتظرون حافلة؛ حشد صغير، لا يتحدثون، كلهم ينظرون في اتجاهنا. سألتُ: «ماذا يعني هذا؟» وأنا فقط أريد أن أعرف ما كان يجري.

قال أكبر: «انتظر» كمن كان يحذرنِي من الإقدام على فعل أي شيء متهور.

أكد السائق بمرارة: «إنها نقطة نفثيش، إن لم تتوقف فسيطلقون النار. إنهم هناك يراقبون. عندما يجهزون، سيخرجون، وإن لم تعطهم نقوداً فسيفتشون الأمتعة ويصادرون هذا وذاك. ثم سيتعرفون عليك، وفي المرة القادمة التي تمرّ من هنا في سيارتك الأجرة، سيجدون خطأ ما أو مشكلة بشأن السيارة، بشأن رخصتك، وركابك...»

سكت فجأةً لأن أحدهم ظهر على الشرفة. تمدد الشرطي ثم تقدّم نحو السيارة وهو لا يعتمر قبّعته. عندما دنا، رأيتُ أنّ ما أمكنه أن يتجاوز العشرين عاماً من عمره، ولم أعتقد أنّ هناك أيّ تظاهر في طريقة فركه لعينيّه كأنّه استفاق لتوّه من النوم. كان زيّه نظيفاً لكن مجعّداً، دون أن يظهر عليه أدنى أثر للنشأ أو لطيات مشعة لمكواة

ساخنة، وبالطبع، لم يكن يعتمر أيّ طربوش. فقد اختفى هذا الأخير قبل الاستقلال حتّى. حيّاه السائق بحفاوة مبالغ فيها، قافزاً من السيّارة ليدور عليها ويفتح له صندوقها. لا بدّ وأنّ تبادل الرّشوة حدث لحظتها، لأنّه عاد في غضون لحظات قصيرة، صارخاً للشرطي وداعه فيما أنهض محرك سيّارته الأوستن القديمة. قبل أن يقول: «ملعون، ليسوا سوى لصوص، لكن ماذا بوسعك أن تفعل؟ إذا لم تعطِ الكلاب شيئاً، فستسلبك كلّ شيء».

«على الأقلّ ليس عليك أن تدفع لها من حرّ مالك، مزي حمزة»، أجاب أكبر مبتسماً، لكن مذكّراً في الوقت نفسه السائق بحزم بأنّ خسارته في كلّ هذا كانت أقلّ من خسارة الركاب. ضحك مزي حمزة بسعادة، بما يكاد يكون نوعاً من الفخر.

«من كنتَ تعتقد أنّك تلوّح له؟ سأل أكبر، وهو يلتفت من مقعده ليتسم لي ابتسامةً عريضة. «عندما كنتَ تقطع مدرّج المطار، من كنتَ تعتقده؟» بدا مندهشاً.

هزرتُ كتفي. «لست أدري، ظننتني تعرّقت عليه».

«كنتُ هناك على الشّرفة، ويمكنني إخبارك أنّه بدا مندهشاً. من اعتقدته؟» ظلّ يتسم، لكن تحت الابتسامة العريضة رأيتُ شيئاً أشدّ قسوة: استعداداً لجعل الموقف مُخرّجاً. لم أستطع تذكّر هذا بخصوصه، أنّ بذاته قسوة. لعلّ ذاك كان تعبيراً على ثقته بنفسه ونضجه، أو إشارةً لكراهيته لي ومعاداته.

حينها، عادت أمّي للتحدّث من جديد حتّى وصلنا إلى الحاجز التّالي، حيث اضطررنا لتكرار التمثيلية ذاتها مرّةً أخرى. أدركتُ عندما

نظرت من نافذة السيارة أنني توقعتُ تغييراً أكبر من الذي رأيت. فقد بدا كل شيء مألوفاً، إن لم يكن أسوأ مما تذكرت. لم أكن سأرى التغيرات إلا في وقت لاحق، عندما دخلنا إلى المدينة القديمة، ثم لاحقاً عندما مررت بما كان يُعرف بالخور القديم. كانت المدينة القديمة المكان الذي عاش فيه العرب والهنود والأكثر ثراءً من البقية. بُنيت المنازل هناك على الطراز الساحلي التقليدي، من حجر المرجان والجص. كان بعضها قصوراً ضخمة متشعبة البنيان، بشرفات وأفنية، وحتى حدائق مغلقة. حتى المنازل الأكثر تواضعاً بُنيت لتبقى قائمة لأطول مدة، بأبواب ضخمة منحوتة زُيّنت بمقابض صنج متقنة الصنع، وأحياناً زخارف صفائح من الصُّفْر⁽²⁵⁾ على طول حواف أطر الأبواب. شيدت جميع المكاتب الحكومية، والمستشفيات، والمدارس على هذا الجانب من المدينة الذي تبرز تضاريسه على شكل رأس يحيط به البحر. كاد أن يقطع هذا الرأس في وقتٍ من الأوقات جدول، وصارت حينها القوارب الطريقة الوحيدة لبلوغ الضفة الأخرى. وأصبحت المنطقة تسمى «الضفة الأخرى». على الجانب الأبعد، بُنيت المنازل في معظمها من الأغصان والطين، رغم أن الناس بنوا هناك منازل أكثر ثباتاً وأشدّ صلابةً مع ثرائهم وتحسّن أحوالهم. بعض المناطق لم تكن موصولة بخطوط الكهرباء، وانعدمت للمياه الجارية أو قنوات الصرف الصحي. ملأ البريطانيون الخور وطمسوه حتى كاد يختفي تقريباً كلياً في الوقت الذي كبرت فيه، إلا أن الاختلافات ظلّت ولم تختف. ما رأيتُ عندما تجولتُ في المدينة القديمة هو بالذات ما حُذرتُ من توقعه: مناطق بأكملها تُركت فيها المنازل لتنتهار، شوارع قائمة كثيبة

(25) سبيكة من النحاس والقصدير.

ومغلقة كانت ذات يوم أسواقاً صاخبة، قنوات مكسورة تسربت منها مياه الصّرف مباشرة في شوارع ضيقة، متعرجة في جداول نتنة تخطأها الناس. كان الأمر متعمّداً ومنتشراً للغاية ليكون مجرد إهمال، بل كان أشبه بالتّخريب. كانت للضّفة الأخرى شوارع فسيحة جيّدة الإنارة، مجمّعات سكنية حديثة، وحوادث، وما إلى ذلك. لو لم يكن أكبر يرافقني لتُهتُ هناك في غضون دقائق. لم يتطلّب الأمر الكثير من الذّكاء لرؤية حلاوة انتقام الحكومة التّافه في كلّ ذلك.

عندما وصلت سيارة الأجرة إلى المنزل، قال أكبر: اذهب وألق عليه التّحية. إنّه في المتجر. سأحمل أغراضك للأعلى. كان زوج أمي يدور على مكتبه عندما بلغت أبواب المتجر الواسعة، بوجه لا يحمل لا تعبيراً ولا ابتساماً. هرولت بسرعة نحوه وانحنيتُ لأقبل يده. لمسني على كتفي، بتردد. ظننتني شعرتُ باشمئزازه عند تلك اللّمسة، لكن ربّما لم يكن ذلك إلّا جنون ارتياب. أعلمُ أنّي طأطأتُ رأسي من الشّعور بالذّنب والعار، وأنّي حاولت أن أتخيّل أيّاً من جرائم أثارَت اشمئزازه الأكثر. بعدها استدارَ وعاد خلف مكتبه. حللت أهلاً. لم يبد بخير؛ أنحف بكثير من سابق عهده، ضعيفاً جدّاً. قال: «اذهب واغتسل»، جاعلاً إياي أشعر وكأنّني عدتُ من جديد طفلاً صغيراً. «اذهب لتأكل شيئاً، لا بدّ وأنهم أعدّوا لك شيئاً في الطّابق العلوي».

استدرت وفعلت كما طلب، وتمنّيت لو أنّي قاومت وسألتُ عن حاله، وأخبرته أنّي سأصعدُ بعد حين، لكن أيمكنني الجلوس والحديث معه أولاً؟ وبينما سنتحدّث بتلك الطّريقة، سأسأله: هلاًّ شرحت لي لماذا لا يمكنك حتّى تكليف نفسك عناء الابتسام لتطمئنني بأنّي لستُ مجرد شيء مثير للاشمئزاز عاود الظّهور في حياتك مرّة أخرى؟

ألا يمكنكِ حتّى أن تحمد الله لعودتي سالمًا؟ بدا مريضًا جدًّا. لماذا لم يخبرني أحدٌ بشيء؟ بدا المتجر فارغًا جدًّا، معرّى، لم يبق فيه الكثير. هل كانت الأمور سيّئة إلى هذا الحد؟ غير أنّي لم أقل شيئًا من هذا القبيل، لم أقل شيئًا البتّة، استدرتُ وسرّتُ على جانب المنزل حيثُ الباب الأمامي المؤدّي لشقّة الطابق العلوي.

سألتُ أمّي عندما صعدت: «ماذا قال والدك؟»

أجبتها: لقد قال: «اذهب لتغتسل. وكُلّ شيئًا»، ووجدوا ذلك مضحكًا.

أجدني الآن مجبرًا على الرّجوع إلى تاريخ أسبق. وما باليد حيلةٌ للأسف، لأنّي سأضطرّ لسرد هذه القصّة بشكلٍ مختلف تمامًا. مات أبي قبل ولادتي. هذا ما اعتدتُ قوله، بل وحتّى اعتقاده، رغم أنّي كنتُ أعرف أنّه لم يكن صحيحًا. لا أملك عنه أيّ ذكرى أو وصف، أو صورة فوتوغرافية، ولا حتّى قصاصة ورق عليها خطّ يده. عندما علمتُ بأمره، كان قد اختفى، وكانت لأمّي طريقةٌ في الحديث عنه وكأنّه مات. كلّ ما أعرفه هو أنّه كان معلّمًا، وأنا عشنا في الشقّة التي بها الشّرفة التي نمت فيها ذات زمن شجيرات الورد والخزامى في صناديق كيروسين قديمة. ما زلتُ أرى ومضات من تلك الشقّة التي عشنا فيها حتّى بلغتُ السّابعة من عمري، وغرفة الاستقبال بنافذتها الوحيدة المطلّة على البحر. أتذكّر أنّ والدتي كانت تبسط في بعض الأمسيات حصيرًا على الشّرفة لتستلقي في الظلام، والضوء القادم من المطبخ يكتف شكل جسدها، عيناها مفتوحتان واسعًا حينما تحدّق

في السماء المرصعة بالنجوم. كما أتذكر صعود أصوات ضجيج الناس الذين كانوا يتحدثون، والموسيقى البعيدة المنبعثة من مذياع المقهى أسفل الشارع. ورغم كون تلك الأصوات عامة، إلا أنه كان بخصوصها شيء حميميّ وشامل، يشبه دفئ أصوات البيت.

إذا ما شعرتُ حينها برغبة في الاستماع لأُمِّي وهي مستلقية في الظلام، وإن لم أكن شقيًا أركض في جميع الاتجاهات محدثًا الضوضاء، كانت تروي لي قصصًا عن حياتها في الريف، عن والدها الذي لم يسمح لها بالذهاب إلى المدرسة، عن أختها الكبرى التي ماتت أثناء الولادة، وأمها الحبيبة التي ماتت بعد ذلك بفترة وجيزة. بدت مثل تلك المصائب في تعاقبها الواحدة تلو الأخرى وكأنها إداة، مثل لعنة حلّت بهم. لكنّها إذا ما أسرت بذلك لإحدى القربيات اللاتي جنن ليرافقنها في فترة الحداد، كنّ يسألنها: «ألا تؤمنين برحمة الله؟ سيجعل تفكيرك هذا منك كافرة».

انكسر فؤاد والد أُمِّي الذي كان اسمه ناصر عبد الله، وغمّه اليأس لفقدانه زوجته، رفيقته على مدى جيلٍ كامل. في محاولة متهورّة للهروب ممّا قد يذكرّه بالحياة التي فقد، باع أرضه وقرّر الانتقال للعيش في المدينة وممارسة التجارة. استأجر الشقة ذات الشرفة التي عاشوا فيها، ثمّ بدأ الاتّجار. كانت تلك أوّل مرّة سكنت فيها والدتي المدينة. وكان هناك الكثير ممّا يمكن رؤيته من مواكب وموسيقى في الشوارع، ونزهات على طول الشاطئ، لكن لم يكن والدها يتركها تخرج من المنزل بمفردها لأنّها مع حلول ذلك الوقت كانت قد صارت في سنّ لا تسمح لها بذلك.

لم يبق الاثنان وحدهما سوى فترة وجيزة، حين قرّر ناصر عبد الله الزواج مرة أخرى. خَمَنت والدتي أنّه سيفعل. فقد كانت تلك طبيعة الرجال. تمّ الأمر بهدوء، يكاد يكون بصورة شبه سرّية، بحضور حفنة فقط من الضيوف برفقة الشّيخ لتلاوة ما هو ضروري من كلمات، وبعدها وجبة متواضعة. كان اسمُها نورو، أرملة في الثلاثينيات بالكاد خرجت من فترة حدادها، امرأة صغيرة نحيفة لديها شغفٌ بالمجوهرات والعطور. أحضرت معها نصيبها الخاص من زواجها الأوّل، وهكذا أمكنها الانغماس في شغفها بالذهب والمسك دون استشارة زوجها الجديد. عرفتُها لاحقًا بالطّبع، وسمعتُ بعضًا من هذه القصص منها أيضًا؛ يمكنني بسهولة أن أتخيّلها وهي تتولّى دون عناء زمام الأمور في المنزل. كانت من ذلك النّوع الذي يستحوذ على كلّ شيء في خطوتها الواثقة، ويتحدّث بلا توقّف بطريقتها المحسوبة، لا تتوانى عن تقديم رأيها في أيّ موضوع قد يُطرح. حتّى لاحقًا، ظلّت تتحدّث إلى والدتي كما لو كانت طفلة لا تعرف ما الأفضل لصالحها، طفلةً لامبالية في تعاملها مع العالم.

ما حدث أنّ والدَ أُمّي كان أكبر من أن يتعلّم في سنّه المتقدّمة تلك مبادئ العمل الجديد الذي اختاره لنفسه، ولم ينجح في ذلك أبدًا. خسر أموالاً طائلةً في صفقات سيّئة، بل حتّى أثقلت الديون كاهله. قالت والدتي إنّ الكثير من حيّتان السّوق اقتحموا تجارته، وإنّ والدها لم يتعلّم أبدًا كيفية التّعامل معهم. كانت بي نورو هي من فتحت موضوع تزويج والدتي. إذ لم يكن أبدًا من اللاّئق لامرأة في سنّها أن تجلس مكتوفة الأيدي في المنزل (أعتقد أنّها كانت في السّابعة عشرة من عمرها). ولن يورّطها ذلك سوى في المتاعب. لذلك أصبح والد

أمي مهووسًا بإيجاد زوج لها قبل وفاته، وهو ما أتمّه فعلاً حسب الأصول، ومات حسب الأصول.

لم يدم زواج بي نورو إذن سوى بضعة أشهر، عادت بعدها للحداد مرة أخرى. كنتُ في حوالي الخامسة أو السادسة من عمري عندما بدأت والدتي تخبرني بهذه الأشياء، وأنا أصغر من أن أفعل أي شيء غير الاستماع كما يمكن لطفلٍ مشّت الذّهن الاستماع. لاحقاً، وجدتُ أنّ تفاصيلاً مهمة مفقودة تنقص ممّا تذكّرت من قصصها، تفاصيلاً لم ترسخ نفسها بما يكفي من القوّة في ذهني، أو أنّها ببساطة اندثرت تحت ضغط أحداث أخرى. بعد ذلك بوقت وجيز، كانت قد تزوّجت من زوج أمي، ولم تُعدّ حكي تلك القصص عن والدها وبي نورو أبداً، حتّى أنّها كانت بالكاد تذكره، إلّا بإيجاز وبشكل عرضي. كانت بي نورو قد غادرت الشّقة في وقتٍ سابق. لا أتذكر بالضبط متى، لكن لم يسبق ذلك بفترة طويلة مغادرتنا لها. في كلّ الأحوال، سأظلّ دائماً أتذكر حساء السمك السائل الخفيف جدّاً مع شرائح كبيرة من المانجو الأخضر السّابحة به، والذي دائماً ما قدّمته لنا مرفقاً بأرزٍ متكتّل في كلّ وجبة غداء. غادرت لتتزوّج مرةً أخرى، هذه المرّة من شاب طموح، بناءً قوارب يصغرها بسنوات عديدة، ولأنّي كنت أخطبها كجدّتي، فقد طُلب منّي أن أنادي ذلك الشاب الجذاب جدّي أيضاً. ورغم مغادرتها الشّقة، لم تكن بي نورو أبداً بعيدة تماماً عن حياتنا في البداية. إذ اعتادت على الرّجوع كلّ يوم، والبقاء حتّى ما بعد وقت الغداء، لكن مع مرور الوقت أصبحت زياراتها أكثر ندرة، ثمّ كادت أن تتوقّف كلياً بعد أن تزوّجت والدتي زيجتها الثّانية وتركنا الشّقة. لعلّها كانت تزور الأوقات التي قضتها هناك، بقدر ما كانت تزورنا أمي وأنا.

كنت أعرف مَنْ كان زوج أمي قبل أن يصبح زوجها. كما عرفه الجميع. كان اسمه هاشم أبو بكر، تاجرٌ ثريٌّ ومرموق ذو مال وصيت، لديه مصالحٌ وعلاقات في جميع أنحاء المعمورة، كما بدا لنا. وقد أبدت ذلك هيئته، على الرغم من أنه لم يظهر في تقديره لأهميته أيّ تفاخر أو غرور. لم يتباه يوماً بنفوده، ودائماً ما كان ينتظر أن يسقه الآخرون، حتّى يصرون على أن يتقدّمهم ويخرج قبلهم تكبيراً لمقامه. تحدّث بعناية واعتدالٍ ذاك الذي يعرف أنّ الناس يستمعون له، وكان ينقّط حديثه أحياناً بمقاطع شعرية واستعارات متعالية. لكنّ شهرته الأكبر عادت لكونه رجل أعمال ثريٍّ وناجح. آخر تحركاته الذكيّة في الوقت الذي صرّت فيه على اتّصال حميم به كان المتجر الجديد للسّلع الكهربائيّة الذي افتّحه، والذي شغل بالكامل الطّابق الأرضي من منزلٍ بناه خصيصاً لذلك، ومعه شقّة في الطّابق العلوي سكّنها. ولم يسع الطّفل الذي كنت إلّا أن ينبهر بالمتجر الجديد والأدوات اللامعة المعروضة فيه.

في فترةٍ ما، حين كنت في السّابعة من عمري، تزوّجته أمي وانتقلنا للعيش في الشّقة الواقعة فوق متجره الجديد. كانت أكبر من شتّنا القديمة، وعوض الشّرفة، أطلّت فيراندا منها على الطّريق الرئيسي. شاب العيش في منزل التّاجر الشّهير نوعٌ من السّحر، رغم حنّبي للغرفة المطلّة على البحر. أحياناً، كنت أذهب خلف طاولة المحاسبة في المتجر، دون أن أتمكن من كبح الشّعور بالملكيّة وأنا أقف وسط البضائع الغريبة. لم يكن زوج أمي يبيع في المتجر بنفسه، بل استأجر شابّاً ليقوم بذلك عنه، بينما كان يجلس في مكتبه في ركن يدرّش مع أيّ ممّن مرّوا عليه، أو ينكبّ على أوراقه ودفاتر حساباته الضّخمة.

في شقة الطابق العلوي، غطى سجّاد الأرضية، ووجد بها أثاث خشبي ثقيل، مروحة سقف في غرفة الاستقبال (والتي كان بالإمكان جعلها تدور في دوامة ضبابية عندما لم يكن هنالك أحدٌ في الجوار)، ومذياع ومصباح أرضي شكّل مصدر خطر عليّ وأنا في تلك السن. غطى جدران الحمام البلاط، وكان المرحاض لامعاً، لدرجة أنّه لا يسعك إلا أن تشعر بالخجل من الحاجات التي كان عليك أن تقضيها في غرفة بمثل ذلك الإشراق واللمعان. بأدب كبير عاملني زوج أمي -الذي كان عليّ مناداته بأ، وهو الشيء الذي لم أتمكن أبداً من فعله، وذلك طوال حياتي، معتبراً نفسي أحداً من أقربائهم كان يقيم عندهم. لا أعتقد أنّه كان قلقاً كثيراً من جهتي. لم يقل شيئاً من هذا القبيل على مسمع مني مطلقاً، لكنني أتخيّل أنّه اعتقد أنني مسؤولةٌ تقع على عاتق أمي. شعرتُ بنفسني ضيقاً هناك، كما لو كنت في عطلّة.

ثم وُلد أكبر، وبعده حليمة، ومن حينها تغيّر زوج أمي. صار يذهب مباشرةً لأبنائه عند صعوده، ولم يبد أنّ كان يملّ أبداً من النّظر إليهما، والابتسامات تعلوا وجهه، بينما كانا يتلويان ويتناغيان. كان رجلاً نحيفاً، متوتراً في العادة، بطبع فخم ومتساهلٍ في العلن، كما سبق لي أن وصفتُ، لكنّه يصبح مقتضباً ودقيقاً في تعامله عندما لم يوجد في الجوار غيري وأمّي، كما لو كان استعراضه أمام بقية العالم تنكراً لمواجهة الأعباء التي كان عليه تحمّلها في خصوصيته. لذا، وعندما افتحمتُ الابتسامات وجهه، غيّرته كلياً. وبدلاً من أن يجلس في غرفة الاستقبال يستمع للأخبار على المذياع لساعات متتالية، وهو يحتسي القهوة كواجب مفروض ويعبس إذا ما قاطع جلسته أحد، أصبح يحبو على الأرض مع أكبر وحليمة، وهو يصدر أصواتاً حمقاء، ويفرقهما

بالقبل. بدأت والدتي تضايقه، ورأيت أنّ حياتهما معًا قد تغيّرت أيضًا. حتّى أنّ وزنه زاد، صار أكثر حريّة في عناقّه ومداعباته، وبدأ أنّه ينسى نفسه في العلن بما يكفي ليضحك بنوع من العفوية التي كان من الواضح أنّها زائفة هدفها طمأنة أو استرضاء البائس الذي قصده في خدمة أو نصيحة. في السّابق، كان يخصّص لأولئك العملاء أسلوبه المبالغ في الرّسميات. حينها، بدأ يبدو بالنسبة لي مثل عمّ لطيف وعطوف؛ وأكبر وحليمة بيدوان مثل ابني عمّي اللّذين كثيرًا ما كان يُطلّب منّي مراقبتهما والاعتناء بهما.

ما كان ذلك ليديم على ذلك النّحو طويلاً، مع زوج أمي في دور ربّ أسرة مسلوب العقل، إلّا أنّ صمته في المنزل أصبح آنذاك تساهلاً جديداً، نوعاً من الرضا والقناعة. كما وصارت صورة شخصه في الخارج أعظم وأكثر روعة، بسبب الكرم الذي جعلته سعادته قادراً على زيادته. عندما كان يرتمي ولداه في حضنه، يضحك ويعانقهما مبتسماً لزوجته. كان يحضر لهما هدايا صغيرة من الفاكهة أو الحلوى، وأحياناً لعبة رخيصة استرعت انتباهه. معي أنا، يظهر دائماً لطيفاً، طيباً ومهذباً، كما لو كنتُ يتيماً كان قد قبل تحمّل مسؤولية رعايته. لم يكن يغضب منّي إلّا نادراً، ويصادف ذلك عادةً إنّ اعتقد أنّي ألحّ على شيء بدا واضحاً له، أو إنّ لم أنتبه بما يكفي عند اعتنائي بأكبر وحليمة. المرّة الوحيدة التي ضربني فيها كانت عندما اصطدمتُ دراجةً بأكبر وهو يلعب في الشّارع حين كان من المفترض عليّ مراقبته وتشتت انتباهي، أو أنّ أكبر تهوّر ولم ينتبه. لا أتذكّر. لكنّي أتذكّر أنّ زوج أمي أتى لبحث عني عندما سمع عن ذلك بعد ساعات من وقوع ذلك الحادث الصّغير، ورفعني عن الأرض حين أمسكني من رأسي قبل أن يصفعني بقوة على خدي الأيسر. ما زلت أتذكّر هذا.

ثمّ بالطّبع فقدتُ أمّي، أو على الأقلّ فقدتها كما عرفتها من قبل. بعد أن صارت شديدة الانشغال، مع أطفالها، مع زوج أمّي، مع من قصدوها لتحية زوجة التاجر وأمّ أبنائه، ولكسب نقاط تُحسب لهم لليوم (حفظهم الله من وقوع ذلك) الذي تجبرهم فيه الحاجة على التماس المساعدة. وقد أصبحت إحدى الزائرات صديقة حميمة. كان اسمها رحمة، وكانت نوعاً ما قريبةً من أقرباء زوج أمّي. لستُ متأكّداً من طبيعة قرابتهما بالتحديد، غير أنّي أرجح أنّها لم تكن قرابة دم. قد تكون طبيعة الصّلة أنّ والدتها كانت حاضنةً تعمل لدى الأسرة. ومع تشارك البعض لحليب أمّ واحدة، تكاد تصبح العلاقة رابطاً أخوياً. على أيّ، بدت مختلفةً تماماً عن زوج أمّي وأقاربه الآخرين، وقد سكنت في غرفة وحيدة في الجزء الفقير من المدينة، على الجهة الأخرى من الخور، على الضّفة الأخرى، مع زوج كان يعمل دهّان منازل. عند انطلاق الحركة السّياسية، أصبحت من أشدّ المحرّضين على التّمرد لصالح القوميين، وقادت الهتافات السّاخرة في المسيرات، كما كانت في الطّليعة خلال المسيرات الزّاحفة على معاقل المعارضة. هي بالذّات من كنتُ سأجدها فيما بعد في مضجعها على السّرير برفقة مدرّب كرة القدم، عندما سيثيرني جمال جسدها. غالباً ما كانت رحيمة تأتي للزيارة، لساعة أو ساعتين في الظّهيرة، وتملأ المنزل بالضّحك.

ما أمكن لأمّي إلّا أن تكون في أواخر العشرينات من عمرها آنذاك، حين اكتملت حياتها أخيراً. وهذا ما أعنيه عند قولِي إنّني فقدتها. ظلت عذبة الكلمة، وضحكتها الدّافئة لم تكن أبداً بعيدةً عن سطح تقاسيمها، تتصاعد كما هو حالها دائماً من تحت كلّ ما تقوله تقريباً، لكنّ ما قالته

لي خصّ غالبًا المشتريات والمهام التي أرادت منّي إنجازها. كان على شخص ما القيام بها، وأفترض أنّها شعرت بالسوء تجاهها كما فعلت. كنتُ أذهب إلى المتجر لشراء الخبز والكعك قبل الالتحاق بالمدرسة، ثمّ إلى السّوق لشراء السّلطة والفاكهة عند عودتي من المدرسة، كما كنت استمع بصبر كبير ومترقّع لأمّي وهي تخبرني أنّه كان باستطاعتها القيام بذلك بشكل أفضل منّي بكثير، هي التي لم تكن تبحر المنزل قطّ، مثل بزّاق محكوم عليه بالعيش في قطعة من العشب، قضت فيه وجودها اليومي، أو حيثُ عاشت مثل حيوان أُسر من غابة واحتُجز وأُجبر على أداء المهام التي تؤذيها البهائم. ثمّ أُخرجُ أكبر وحليمة للعب بعد عودتي من المدرسة القرآنية بعد الظّهيرة، وأذهب إلى المتجر لشراء السكر والشاي ومسحوق الغسيل، أيّا كان، أساعدُ في الغسيل، أكنُس، وما إلى ذلك. بعدها، كنتُ أذهبُ إلى السّجن يوميًا لتسليم غداء زوج أمّي وملابسه، يوميًا بعد المدرسة، بينما كان يتلقّى ابنا التّاجر مداعبات التّعاطف والدّعاء بسبب المصيبة التي حلّت على والدهما ظلماً. لم تشأُ أمّي جلب خادمة إلى المنزل - لا أعتقد أنّها كانت ستعرف كيف تتعايش مع واحدة - على الرّغم من أنّ زوج أمّي ظلّ يلحّ عليها أنّ الأجدد بها أن تفعل. «خادمةٌ ستسرق، ولن أشعر بالراحة مع وجود شخص غريب في المنزل»، كانت تجيبه.

أحيانًا، كانت تلفت انتباهي بنظرة اعتراف. قبل أن تقول شيئًا يعبر عن قلقها. «هل أنت بخير؟ ما خطبك؟ أنت هادئٌ جدًّا. لماذا كلّ هذا التّحديق؟»

ولم يكن لديّ خيار غير الكذب، وإخبارها بأنّ شيئًا ما حدث في المدرسة، أو أنّ معدتي تؤلمني، وأسألها إن كان بإمكانني أن أتغيّب

عن المدرسة القرآنية بعد الظّهر، أو شيئًا من هذا القبيل؛ بعض المزايا الصّغيرة التي سأجنيها من اهتمامها وقلقها عليّ. بعد فترة، اعتدتُ على الحال الذي آلت إليه الأمور، ولعبتُ الدّور الذي أُسند لي بأكبر قدر ممكن من التّهذيب، بل حتّى أنيّ نلتُ الثّناء من زوج أمي على أخلاقي الحميدة وانصياعي. ربّما حتّى أنيّ تعلّمت ألا أبالي كلّ ذلك القدر حين أصبحت حياتي أكثر امتلاءً بعيدًا عن المنزل بالأصدقاء الذين عرفت في المدرسة، وإشادة معلّمي بي، وكوني اخترتُ ضمن فريق كرة القدم المدرسي. لكن من حين لآخر، كنتُ أتذكّر أمي كما كانت في سابق عهدها، وأفتقد العناق السّريع الذي كان أحيانًا مكافأتي لقولي أو قيامي بشيء مبكر على سنّي أو مسلّ، وطريقتها الغريبة تلك التي كانت تستلقي بها في الظّلام على الشّرفة بينما تختلط كلماتها بأصوات العالم الذي عشنا فيه. أعلمُ أنيّ اعتقدتُ وقتها أنيّ لن أتزوّج عندما أكبر، ولن أنجب. لم أستطع أبدًا أن أتخيّل كيف يمكن أن يُفقد حبّ مثل حبّ أمي لي. بدا ذلك حيّفًا كبيرًا.

لم ألعب دور الطّفل-الضّحية-البطل الآتي من إحدى روايات ديكنز، فالأمور لم تكن سيّئة إلى ذلك الحدّ. إلّا أنّه كان باستطاعتي أن أتصرّف بما هو أفضل. كان بإمكانني أن أكون أوسع حيلةً، ساحرًا، شجاعًا. لم أكن شجاعًا. كان بإمكانني أن أفعل ما هو أفضل. لعلّ ذلك هو السّبب الذي جعل زوج أمي لا يكثرث لأمر. أتاحت لي الفرصة، وكانت لديّ الرّوابط، والظّروف الملائمة، والعلاقات (علاقاته)، لكنّي رغم كلّ هذا اخترتُ أن أتصرّف مثل ربيب. ما لا يعني مطلقًا أنيّ أتذكّر تلك الفترة بشكل مأساوي. أوجدت قصص، في المقام الأوّل، قصصٌ لملء السّاعات والعقل في التّنافس ضدّ الحياة، ولرفع ما هو

عاديّ إلى مقام الاستعارة، لجعل الأمر يبدو وكأنّ الوقت العابر كان خياراً بين يديّ، وأنّ هناك منهجية في طريقة ذهابي ومجيئي. هذا ما يمكن للقصص تحقيقه، يمكنها أن ترمي بالفوضى التي نعيشها بعيداً جدّاً عن الإدراك.

بدأت جدران الشّقة أشدّ قتامة من سابق عهدها، وبحاجة إلى طبقة من الطّلاء دون استثناء؛ كما أنّ بعضاً من ألواح السّقف في الرّدهة انتفخت وتشوّهت بسبب التسرّب. وما أدركتُ فعلاً مدى التّغيّر الذي طرأ على الأشياء إلّا حين دخلت الحمام لأغتسل كما أمرتُ. كان المرحاض مسدوداً، ولم يلمع أيّ شيء داخل ذلك الحمام. حذرتُ من قبل بالفعل أنّه لم تعد هناك مياه جارية، لذلك اغتسلتُ بأسرع ما أمكني من الدّلّو وهربت، وقد أصابني ذلك المرحاض التّن المسدود بالغثيان. لاحقاً، عندما فاتحتُ أكبر بالموضوع، وسألته بغضب لم أشعر بمثله منذ وصولي لماذا لم يفعلوا شيئاً حيال الوضع القذر، هزّ كتفيه وقال: «لا توجد مياه. قناة الصّرف نفسها مسدودة، وكذلك المجاري. من أين تريدني أن أبدأ؟»

لم تكن الكهرباء متوقّرة إلّا لبضع ساعات في اليوم، كما عمّ شعّ في مادّة الصّابون، حاله حال بهار الفلفل والسكر ومعجون الأسنان والأرز وكلّ ما قد يخطر ببالك. قالت حلّيمة: «كان الأحرى بك أن تجلب لنا هذه الأشياء بدل الشوكولاتة وزجاجات العطور». قالت ذلك بابتسامة، غير أنّه لم يسعني إلّا سماع اللّوم في كلماتها، وقد عاشوا طوال تلك السّنوات على هذا النحو ولم أكلف نفسي عناء السّؤال، ناهيك عن التّفكير في فعل أيّ شيء حيال ذلك. توقّعتُ

همس تأنيب من والدتي أو من أكبر على فظاظة حليلة ووقاحتها، إلا أنهما التزما الصمت، ولعلهما اعتقدا أنها كانت محقة بكلماتها. كانت عذبة الكلام ومليئة بالابتسامات مثل أمي، رغم أنها لم تكن تشبهها إطلاقاً. لكنّها حازت علاوة على ذلك على حماسة، نوع من الثقة في الحياة لم أستطع أبداً تذكرها عند والدتي.

أجبت: «لم أكن أعرف».

فقالت وادتي: «بالطبع لم تكن تعرف، وحتى لو أحضرت شيئاً لكانوا سلبوه منك في الجمارك. يأخذون كلّ ما يريدون، ويفعلون ما يحلو لهم. لا يوجد قانون هنا».

«حتى وإن أخبرت الناس في الخارج عن هكذا أشياء، فلن يستوعبوها حقاً»، استطرد أكبر مضيقاً، مبتسماً بدوره، مبدئياً تفهّمه، مشيراً ضمناً إلى أنه يدرك أنني لستُ من صنف أولئك الأشخاص، أو على الأقل، منعه الأدب واللباقة من قول ذلك. «من أين لك أن تتخيل هذا النوع من الصعوبات التافهة وأنت تعيش في مكان لا تفكر فيه في احتمالية وجود نقص في المواد كهذا؟ إذا نفذ منك أي شيء، تذهب وتشتري المزيد منه. إذا تعطل شيء ما، تستبدله أو تتصل بأحدهم لإصلاحه. كيف يمكنك تخيل ما سيكون عليه حالك عندما تقضي صباحك تبحث على أمل شراء بضعة أونصات من الملح؟ أو تبحث عن نجار لأسابيع عدة ليستبدل لوحاً من ألواح السقف؟»

جلستُ في صمتٍ أثقله شعورٌ بالذنب فيما تحدّثوا عن حرمانهم وبؤسهم. قلت لهم: «رغم كلّ شيء، مذاق الطعام جيّد»، وهو ما جعل الجميع يتسمون لهولة. ثم، وبعد أن خفّ إلحاح شكواهم مؤقتاً،

طلبوا مني أن أخبرهم عن حياتي في إنجلترا. بدت الغرفة مكتظة. رقية، زوجة أكبر، بين الحضور، تحمل أصغر أطفالها الثلاثة بين ذراعيها. بينما جلس طفلاهما الآخران أرضاً، يستمعان إلى كل شيء وكأنهما يسمعهان للمرة الأولى. كان زوج حليلة يعمل في جزيرة أخرى، وقد جاءت بمفردها لترحب بي، قبل أن تعود بعد يوم أو يومين.

لم يكن زوج أمي جالساً معنا عندما تحدثنا هكذا. فقد كان ينزل كل صباح إلى متجره الفارغ بعد استماعه للأخبار، ويجلس هناك منتظراً أيّاً من أراد التوقف للدردشة معه. لم يبق المقهى أسفل الشارع على سابق عهده. فقد تغير مرتادوه، وصار مذياع المقهى مضبوطاً على بث إذاعة الحكومة التي تضاربت تعليقاتها اللامتناهية جذرياً مع أفعالها. كنت أذهب وأجالس زوج أمي بعد الإفطار؛ وكنا نتحدث دون عناء جهيد، نتطرق لهذا الموضوع أو ذاك بحذر. توقف الناس عن الحديث وطلب منهم تخمين من أكون، ما فعله الجميع. كانت لعبة من الواضح أنه استمتع بها كثيراً، لأن الابتسام اعتلى وجهه حتى قبل أن يخرج السؤال من بين شفثيه. ثم كان لنا ذلك الحديث المندھش المتوقع. كم من الوقت غبت عن الديار؟ ظننا أنك نسينا. كنت مجرد صبي عندما غادرتنا والآن ها أنت ذا تعود والشيب يغطي رأسك. ما شاء الله⁽²⁶⁾. لم أر زوج أمي على تلك الحال من قبل، مبتسماً، عابثاً وسط أنقاض حياته، وقد اختفى لديه كل التوتر والحدة. جعله ذلك يبدو قادراً على كرم روحي لم أره في الرجل الصّارم الذي عرفته صبيّاً. عند انصراف أحد زوّاره، كان يغرق في تفكيره لبرهة قبل أن نتابع دردشتنا التي لا طائل من ورائها، ولعله كان يثرثر قليلاً عن الرجل الذي غادرتنا للتو.

(26) بالعربية في النص. (المترجم)

في فترات ما بعد الظّهر، كان أكبر يصطحبني لزيارة أشخاص اعتقد أنّي أودّ لقاءهم، ليعرضني على أصدقائه، لرؤية أماكن تغيّرت وأخرى عرفتها من قبل كان يوصلني إليها كما لو كان الأمر بسحر ساحر، ثمّ يراقبني و ينتظر مبتسمًا تعبيري عن الإعجاب. ذات مساء أخذني لزيارة بوبوبو، وأراني المنازل الجديدة التي بناها النّاس بأنفسهم خارج المدينة. كنت أتذكّر بوبوبو، وأعرف أنّ والذي درّس في مدرسة تلك القرية قبل رحيله. لفترةٍ من الزّمن في مطلع القرن، ربطتُ خدمة القطارات بين المدينة وبوبوبو، والتي كانت بطريقة ما قلب الاحتلال العماني. الآن، ونظرًا لتوسّع المدينة الكبير، صارت بوبوبو ضاحية من ضواحيها يمكن الوصول إليها برحلة قصيرة على متن قطار الدّولار-دولار، وهو الاسم الذي سيُطلق لاحقًا على حافلة الأجرة الثّابتة. فسّحني أكبر عبر الفيلات الجديدة التي كان لبعضها أعمدة وشرفات ورخام، ووصفَ مفتخرًا مصادر خاماتها وكأنّها ملكه الخاصّ.

بعدها، وفي إحدى لفتاته الكبرى التي اعتدتُ عليها، أخذني لزيارة منزل السيّد حافظ، أحد لوردات العصور الغابرة. هناك، التقينا برجلٍ يقرب السيّد من بعيد، والذي استردّ ملكية المكان العتيق بالمقاضاة والمال. أثناء تجوالنا في أرجاء المبنى المتداعي بنافورات الصّامته، حمّاماته النّتنة، وشققه المخصّصة للمحظيات والسّرايا، بدا المكان استعارةً واضحةً للتّغييرات التي مرّت بنا. وتبيّن جليًّا أنّ لورداتنا الجّدّد لصوصٌ مسرفون، يبترون أوصال جثثٍ مثل منزل السيّد حافظ العتيق بلامبالاة بهيجّة؛ غير أنّه كان لهم مثالهم ليحذوا حذوه.

لكنّ الأمسيات كانت ما تطلّعت إليه الأكثر. كانت والدتي تقول: الآن، أخبرنا بالمزيد. كلّ ليلة، كنّا نجلس في الغرفة الكبيرة ونتناوب

في الحديث عمّا فاتنا من حياة بعضنا البعض. من مات، من تزوج ممّن، من قال ماذا أو فعل شيئاً أو شيئاً آخرًا. من خان وغدر، وقاد أهله إلى الخزي والخراب. توفيت بي نورو منذ ست سنوات، وانتقلت رحيمة إلى مومباسا حيث وجدت لنفسها زوجًا جديدًا، وهكذا. عندما صعود زوج والدتي إلى الطابق العلوي، كان يتجه مباشرة إلى غرفته ليشغل راديو الترانزستور (بعد أن كان الراديو غرام قد تعطل قبل ذلك بسنوات)، حيث كانت تنتظره صينية من العشاء الخفيف جدًّا، والتي التقط منها لقيمات ريث تجواله بين موجات أثير العالم. لم يكن أحدٌ يدخل عليه في ذلك الوقت. إذ كانت الأصوات المرتفعة من جهاز الراديو بمثابة أوامر صارمة بالابتعاد. كانت والدتي دائمًا آخر من يغادر، وفقط بعد أن أقول إنه وقت الخلود للنوم. عندها، نجلس بضع دقائق إضافية بمفردنا، فيما أبدأ بتجهيز نفسي بهدوء لزيارة أخيرة للحمام.

في وقت متأخر من إحدى الأمسيات، بعد أن كنتُ قد حللتُ هناك لعدة أيام، وبعد أن سارت المحادثة بشكل جيّد مرةً أخرى، قلت لها عندما صرنا بمفردنا: «أخبريني عن والدي».

سألتني: «ماذا عنه؟» وابتسامةً على وجهها الذي أدارته قليلًا في اتجاه غرفة نومهما، والأصوات الصاخبة القادمة من هناك. لمستُ شعرها في حركة توحى بالرضا، تسترجع ذكرى الحبيب.

أجبتها: «والدي». افترضتُ أنّها كانت ستفهمني من الوهلة الأولى، وأنّها ستداري الأمر بحذر. لم أكن أتوقع متعة إعجابها بزوجها غير المنتبهة والمنغمسة في الذات. لكنّها فهمتني بعدها، ربّما لأنّي تحدّثتُ بنبرة تشديد. فارقت الابتسامة وجهها في الحين، واتّسعت

عينها من الدهشة. بعد هنيهة، أشاحت بنظرها بعيداً عني، وغطى علينا الصمت لفترة طويلة. جلستُ هناك وعيناها مسمرتان في الأرض؛ وشعرتُ لحظتها بأنِّي جرحتها بطريقة لم أفهمها. حسناً، فهمتُ شيئاً منها، أنه وبعد مرور كلِّ هذا الوقت، بعد صمتي، صمتي الطويل... تمنيت لو أنِّي وجدتُ طريقةً أقلَّ جديةً لسؤالها، لكنني انتظرتُ عدة أيامٍ للانفجار بذلك السؤال، وكانت تلك الطريقة التي خرج بها. لستُ مثاليًا. لم أحقق ذاتي.

«ما الذي تريد أن تعرفه؟» سألت في الأخير؛ صوتها ناعم وعيناها تلمعان بحزن متفاجئ.

فأجبته: «كلَّ ما تريدان إخباري به».

نهضت وواربت الباب، ثم عاودت الجلوس. بحدة في صوتها، قالت: «أبعد كلِّ هذا الوقت، تطرح هذا السؤال». صمتت لبرهة أخرى، ثم أردفت بنظرة حازمة وعيناها تنظران إليّ مباشرة قبل أن تشيحا من جديد: «سأخبرك. تزوجنا لما لا يزيد عن عام، وبعدها رحل. لستُ أعرف بالضبط سبب رحيله. فهو لم يقل أبداً أي شيء بهذا الخصوص. رحل فقط، قبل ولادتك بوقت قصير».

شبكت يديها برفق، وأمالت رأسها قليلاً كمن يستعدّ لتلقي ضربة. قالت وهي تشير إلى غرفة نومهما: «كان المنزل الذي كنا نعيش فيه ملكاً لوالدك، والد أكبر وحليمة. سمح لنا بالعيش فيه دون دفع الإيجار لسنوات، بي نورو وأنا. وقد وُلدتُ هناك. تحمّلت بي نورو مصاريف البيت لوحدها. فأنا لم أكن أملك شيئاً، لا مالاً ولا أقارب ألجأ إليهم. لم يترك والدي رحمة الله عليه غير الديون».

لم أكن أعلم أنّ زوج أمي سمح لنا بسكن الشقة دون دفع الإيجار، أو عن تحمّل بي نورو لجميع المصاريف. بإمكانني أن أتخيّل والدتي وبي نورو تتحدّثان عن ذلك أمامي، لكنني لم أحتفظ بأيّ ذكرى عنه. سألت: «لماذا تعتقدين أنّه... فعل ذلك؟ لماذا تعتقدين أنّه سمح لك بالسكن في الشقة دون مقابل؟» توقّعتُ منها أن تحتجّ دفاعاً على شرف زوج أمي، أن تقول إنّه رجلٌ صالح تفهّم محتتهم وفعل ما في وسعه لمدّ يد العون.

تنهّدت ثمّ ابتسمت بضجر، باستسلام. «أنت حقّاً تودّ البحث في كلّ هذا، أليس كذلك؟ حسناً. ربّما ذلك أفضل. لقد عشتَ بعيداً لفترة طويلة، ولا بدّ أنّ هذه الأشياء قد أفضّت مضجّعك».

أجبتها قائلاً: «كنتُ أصغر من أن أسأل عندما غادرت. وربّما لم تكوني ستخبريني بأيّ حال».

نهرتني: «لا تتكلّم هكذا، فأنتَ تجعلني أعتقد أنّك تلوم...»

«لا، لا،» قاطعتها. «لا تعتقدي هذا. قصدتُ فقط أنّنا لم نكن نتحدّث عن الأشياء هكذا. كنتُ سأجد صعوبةً في سؤالك، وأظنّ أنّك كنتَ ستجدين صعوبةً في قول أيّ شيء. لماذا سمح لك بالعيش في الشقة؟»

«كان والدك قريب هاشم؛ ابن أخته»، قالت ثمّ توقّفت ونظرت إليّ لترى إن كنتُ قد فهمت. «والدته كانت بي حبيبي. هل تتذكّرها؟ كنّا نزورها أحياناً عندما كنتُ صغيراً. كانت تعيش في كيكواجونى بمحاذاة ملعب كرة القدم القديم. هل تتذكّر؟»

هزرت رأسي بالتقي. مرّت نظرة تعاطف عبر عينيها. واستطردت:
«لقد خدعك الوقت كثيراً. على أيّ حال، كنتَ صغيراً جداً، رغم أنّي
اعتقدت أنّك ستتذكّرها. كانت تحبّك جداً، وترحب بك كثيراً. لا بدّ
وأثما توقّيت عندما كنتَ في السادسة أو السابعة من عمرك... كان
زوجها رجل عليم، درس في جامع الأزهر في القاهرة، وعند عودته،
أصبح عالم دين معروف. لكنّه ماتَ والدك ما يزال في المدرسة، ولم
يترك لعائلته سوى القليل، لذلك اعتنى هاشم بهم بشتّى الطرق».

توقّفت، وظننتُ أنّها ستقول، أترى كم هو رجل صالح؟ كان الجوّ
مثقلاً بالكلمات، غير أنّها لم تنطقها، وبعد هنيهة تابعت: «عندما جاء
والدي إلى المدينة، تاجر مع هاشم. وعندما ساءت أموره وتدهورت
أوضاعه، اقترض المال من هاشم. ثمّ جاءت بي نورو لتعيش معنا،
وأصبح كلّ ما استطاع كلاهما التحدّث عنه هو تزويجي. لذلك وفي
النهاية، قصد والدي هاشم وعرضني على ابن أخته، وبدلاً عن مهر لي،
قبل هاشم أن يمسح ديونه. لم يكن ديناً ثقيلاً، لذلك فقد ربح كلّ طرف
شيئاً من هذا الترتيب. وكان هذا كلّ ما في الأمر، هكذا جرت الأمور».
ابتسمت بمرارة ابتسامة طفيفة، وكأنّ الكلمات لم تكن تؤلمها.

بعد صمت طويل، عندما اعتقدتُ أنّها لن تتابع كلامها، عندما
كنتُ على وشك أن أقترح التوقّف عند ذلك الحدّ، أكملت: «كنتُ
قد رأيته، بالطبع. والدك. رغم أنّهم عاشوا في كيكواجوني، كان لديه
أصدقاء هنا. أتذكّر مرّة كنتُ فيها أنا وبي نورو ذاهبتين في زيارة ما،
حين مرّ بنا في الشارع برفقة أصدقائه. نادته بي نورو وسألته عمّا إذا
كان نجل بي حبيبي. فأغرق في الاعتذارات وعبارات المجاملة، قائلاً
إنّه لم يرنا، رغم أنّي لا أظنّ أنه كان يعرف من نكون. أو لعلّه كان فقط

محرّجاً أمام أصدقائه. بعدها، مازحتني بي نورو حول الطريقة التي نظر بها إليّ. قالت: «هذا هو زوجك. ربّما هذا هو ما زرع الفكرة في رأسها». ابتسمت والدتي لهذه الذكّرى. «كان أحياناً يمرّ أمام المنزل بعد لقائنا ذاك في الشارع، وإذا رأته بي نورو، كانت تضايقني بعدها لأيّام. كان في كليّة المعلمين حين تزوّجني، يكاد ينهي دراسته. بعدها وبعد بضعة أشهر، رحل. لست أدري لم».

انهمرت الدموع على وجهها للحظة قبل أن تمسحها بعناية، دون مبالغة. بدا مفاجئاً للغاية بكاء امرأة في سنّها بصمت هكذا، بكاؤها هكذا على رجلٍ هجرها منذ سنوات. «كان والدي قد توفيّ بحلول ذلك الوقت، رحم الله روحه، وكنت على وشك أن تولد. أخبرنا هاشم أنّه ما من داعٍ أن نخلق بشأن مكان نسينه، وأنّ بإمكاننا العيش في الشّقة طالما احتجنا ذلك. وأنّه لم يكن علينا أن نتردّد إن احتجنا أيّ شيء في قصده، وأنّه سيبدل قصارى جهده. أخبر بذلك بي نورو التي كانت ستعرف كيف تسهّل عليه قول هذه الأشياء. وبقينا إذن، وكلّما تحدّثنا عن الانتقال، كان يرفض بحزم. فقد أصبحنا جزءاً من عائلته الآن، كما أخبرنا، بسببك. هكذا جرت الأمور».

وعند هذه النقطة أوقفنا الحديث ليلتها. شعرتُ بنفاذ صبرها في اللّيلة التي تلت، وظننتُ أنّها لن تتباطأ في البقاء مثلما كانت تفعل عادة. وبّخت أبناء أكبر مرّتين، وفي لحظة ما غادرت الغرفة لعدّة دقائق. لكن في النّهاية، على ما أعتقد، كان نفاذ صبرها يستبق انصراف الجميع. بدت متوتّرة، وظننتها ستكون غاضبة منّي بسبب الأشياء التي قالتها، لأنّها سمحت لي بالتّقيّب في حياتها، حسب كلماتها هي في المساء الذي سبق.

أُسرّيت لها عندما صرنا أخيراً بمفردنا: «لقد سمعتُ قصصاً».

سألتني: «عن والدك؟ ما الذي سمعته؟»؛ عيناها متبهِتان تترقبان، ورأسها مائلٌ بنوع من الاهتمام الاحترافيّ اللامبالي. كانت حركتها المعتادة حين تركّز في أمرٍ ما.

«أنّه فرّ على متن سفينة متجّهة نحو إنجلترا».

«هذا ما سمعناه أيضاً. اعتاد القول إنّّه يريد الدّراسة، وكان يحبّ الحديث عن إنجلترا. كانت لديه صورةٌ علّقها على الحائط قطعها من مجلة، مثلت الرّيف الإنجليزي على ضفاف بحيرةٍ يحاذيها قصرٌ أو ما شابه. اعتاد القول إنّّه سيذهب إلى هناك يوماً ما. لذا قد تكون هذه القصة صحيحة». ابتسمتُ. «قد يعرف شخصٌ ما مكانه، ويمكنك الذهاب لزيارته... وزوجته الإنجليزية. لكنّه ربّما لم يصل إلى هناك أبداً. لا بدّ وأنك سمعتَ ما يُروى عمّا يحدث للمسافرين إذا ما قبض عليهم خلصةً، عن أشخاص يُلقى بهم في عرض البحر أو ما هو أسوأ، حماه الله من أن يكون قد حدث له شيءٌ من هذا القبيل».

قلت لها: «سمعتُ روايةً أخرى تقول إنّّه يعيش في ألمانيا».

هزّت أُمّي كتفها، «لا يهتمّني حتّى إنّ كان يعيش في الجحيم».

قلت لها: «أخبريني عنه».

لا بدّ وأنها كانت مستعدة لهذا السّؤال، كونها لم تتردّد. «كنّا صغيرين جداً. هو في العشرين من عمره، وأنا في الثامنة عشرة حين تزوّجنا. بدا حينها كلّ شيء ممكناً. عشتُ كلّ حياتي في الرّيف، ولم أكن أفقه في الحياة شيئاً؛ وحتّى عندما انتقلنا إلى المدينة، مكثتُ في المنزل.

لم أذهب إلى المدرسة قطّ، ولم أستطع قراءة كتاب. إذا استمعتُ بالصدفة للأخبار على المذياع، لم تكن لديّ أيّ فكرة عما كان يقال، أو عن موضع جميع تلك الأماكن. اكتفيتُ بالاستماع فقط لما قاله الجميع من حولي، ولم يكن لديّ خيارٌ غير قبوله، مثل حيوان أو طفل. أمّا هو فقد بدا وكأنّه يعرف كلّ شيء. أوه، وكان يحبّ التحدّث. اعتدنا أن نجلس على الشّرفة في الأمسيات، وكان يخبرني عن جميع الأشياء التي قرأها في الكتب، وكلّ الأشياء التي سمع معلّميه يقولونها. قال المذياع هذا، في السّينما رأى ذاك، لديهم في أوروبا كذا وكذا. حتّى بي نورو كانت تجلس معنا أحياناً، مقاطعةً والدك بملاحظات مشكّكة، على الرّغم من أنّها كانت جاهلة تماماً مثلي أنا. لكنّها كانت فقط كذلك، كان بإمكانها أن تعظ حتّى في التّجوم إن كانت في المزاج المناسب. أحياناً، كنّا نتمدّد في غرفتنا نتحدّث حتّى يؤذّن منادياً لصلاة الفجر. جعلني أضحك كثيراً، كان عادةً هادئاً في تعامله مع النّاس، تفهم ما أقصده، مهذباً ومنعزلاً خجولاً - كيميّة كيميّة⁽²⁷⁾. مثلما كنتُ عندما كنتُ أصغر سنّاً. لكن إذا ما كنّا في خلوتنا، فقد كان يتحوّل إلى شخص مختلف تماماً، مليء بالقصص والنكت والمزاح. دلّته بي نورو كثيراً. وعاملته مثلما يعامل الابن المفضّل. كلّ شيء له وحده، وكنتُ دائماً مخطئةً في نظرها لأنّي لم أفكر في هذا الأمر أو أقدم ذاك. كان السّبب أسلوبه اللّبق وضحكه السّاحر. لم تستطع مقاومة ذلك. ومظهره الوسيم...

«تسألني كيف كان شكله؟ كان نحيفاً، كما هو حال الشّباب، لكنّه لم يكن فارّه الطّول. أطول منّي بقليل. اعتدتُ أن أقول له إنّّه ما زال

(27) هادى صامت بالسواحيلية. (المترجم)

في طور النمو. كان شعره ناعماً ومجعّداً يكاد يكون لامعاً، لا أشعثاً خشناً مثل شعرك. وجهه أيضاً كان نحيفاً، بذقن صغير مستدير. عندما ابتسامه، يبدو صغيراً جداً، مثل صبيّ لطيف وبريء. وكان هذا ما أحبّته بي نورو كثيراً فيه على ما أعتقد. أحبّته بي نورو. كانت تضايقه دائماً قائلةً إنّه في حال ما إذا سئم منّي، سستظلّ في انتظاره دوماً. ثمّ رحل».

«في البداية، ظننّا أنّ مكرّوهاً أصابه عندما لم يعد إلى المنزل تلك الظهيرة»، تابعت بعد ما بدا صمتاً لا ينتهي. «حادثٌ في طريق عودته من العمل، ربّما. كان يدرّس في مدرسة في بوبوبو، لذلك كان عليه أن يستقلّ الحافلة ذهاباً وإياباً كلّ يوم، وأنّ تعرف حالة تلك الحافلات آنذاك. في البدء إذن اعتقدنا أنّ الحافلة تعطلّت وأنّه عالقٌ في مكان ما في الطّريق. لكن عندما لم يظهر بعد حتّى بعد حلول الظّلام، ذهبّت بي نورو إلى منزل راشد سليمان لتسأل ما الأخبار؛ مدير مدرسة بوبوبو، لستُ أدري إن كنتَ تتذكّره. كان يسكن هناك أدناه، في أرجاء بوندينّي، بالقرب من محطة البنزين. أخبرنا رشيد سليمان أنّ والدك لم يحضر إلى العمل صباح ذلك اليوم. قال إنّه فكّر في الاتصال ليسأل عنه، لكنّه كان قد سمع في المقهى في وقت سابق من المساء أنّ أحدهم رآه بالقرب من أرصفة الميناء، وبعدها رآه يركب على متن الزورق المتّجه نحو القوارب الكبيرة الرّاسية في ذلك اليوم. لم نصدّق ذلك في البداية، لكنّ بي نورو سمعت بعدها شائعات أخرى؛ لذلك لم يبق أماننا في النّهاية خيارٌ سوى مواجهة الحقيقة. بدا الأمر وكأنّه مات، ولعدّة أشهر تمّنيّت أن أموت بدوري، سامحني الله».

جلستُ لفترة طويلة في صمتٍ محبّطة لدرجة أنّي قلت لها في النّهاية إنّ علينا أن نتوقّف إنّ كانت تشعر بالألم. سمعتُ زوج أمّي

يطفى المذيع، وكانت تلك عادةً إشارة لها كي تلتحق به. لكنها هزت رأسها بالتقي عندما ذكرت المذيع. «يعلم هاشم أنني أحدثك عن كلّ هذا. من الأفضل أن تسمع كلّ ما تريد معرفته. لقد خُذتَ بما يكفي إلى غاية الآن. هل تعلم ماذا فعلتُ بعد ولادتك؟ أتلفت كلّ ما أمكنني وضع يدي عليه من أغراضه. كتبه، صورته، ملابسه. لم أردك أن تعرف أيّ شيء عنه. أردته أن يكون ميتًا. أردته ألا يكون قد عاش أبدًا».

قلت لها: «لقد أخبرتني بي نورو أشياء عنه»، ورأيتُ من تعبير وجهها أنها لم تكن على علم بذلك. «لم تقل الكثير. حكّت فقط بضع القصص، والباقي كلّهُ من تخميني. قالت إنّ اسمه عباس وأنه مات، لكنني سمعتُ الناس يقولون أشياء مختلفة في الخارج، خاصّة عندما كبرت. لماذا تعتقدين أنّه غادر بتلك الطّريقة؟»

أجابت فجأةً: «لا أعرف»، ومن الواضح أنها لم تكن ترغب في أن تُسأل هذا السؤال.

فقلت بإصرار: «لكن لا بدّ وأنك فكّرتِ في الأمر».

عندما عاودت الحديث، كان وكأنّها نسيت سؤالِي، أو وجدت طريقةً ما للتّهرب منه. «كنا قد تزوّجنا منذ ما يقرب الثلاثة أشهر عندما أرسل إلى ذلك المنصب في بوبوبو. كانت مدرسة جيّدة، وقريةً من المدينة، لذلك أسعدنا الأمر. فقد أرسل بعضُ من أصدقائه إلى أماكن أبعد من ذلك بكثير، ما اضطرّهم للعيش في الأماكن التي أرسلوا إليها والاستقرار بها. لم يكن يحبّ التّدرّس. إذ عبّبه الأطفال ولم يفلح في إقناعهم بالاستماع إلى أيّ من تلك الأشياء التي أحبّ التّحدث عنها. عند عودته إلى المنزل، كان يجلس بهدوء ويراجع ما حدث له. ويقول

إِنَّ كُلَّ يَوْمٍ كَانَ يَجْعَلُهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ أَصْغَرُ. لَمْ أَخِذْ الْأَمْرَ عَلَى مُحْمَلِ الْجَدِّ. كُنْتُ مَتَاهُونَةً وَمَقْصُورَةً. ظَنَنْتُ أَنَّهُ كَانَ فَقَطْ مُتَعَبًا، وَأَنَّهُ سَيَعُودُ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهِ مَا إِنْ يَتَعَوَّدُ عَلَى الْعَمَلِ. لَمْ أَتَحَدَّثْ عَنْ هَذَا لِأَيِّ كَانَ. تَعَوَّدُ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ وَتَرِيدُنِي أَنْ أَعِيشَ كُلَّ تِلْكَ الْأَوْقَاتِ مِنْ جَدِيدٍ. لَا يُمْكِنُنِي تَحْمَلُ وَقَاحَةِ هَذَا».

«أَنَا آسَفُ»، قُلْتُ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّكَنَ مِنْ قَوْلِ الْمَزِيدِ، قَبْلَ أَنْ تَتِمَّكَنَ مِنْ إِغْلَاقِ الْمُحَادَثَةِ إِلَى الْأَبَدِ. «دَعِينَا نَتَوَقَّفَ هُنَا. إِنْ كُنْتُ تَعْتَقِدِينَ أَنَّ هَذَا خَطَأً... إِنْ لَمْ تَكُونِي تَرْغِبِينَ. أَنَا آسَفُ أَنَّكَ تَعْتَقِدِينَ أَنَّ الْأَمْرَ وَقَاحَةٌ، وَأَنَا لَا أَسْتَحِقُّ صَدَقَكَ، فَقَدْ كُنْتُ مُقْصِرًا أَنَا أَيْضًا، لَكِنِّي سَعِيدٌ بِمَا قُلْتَهُ لِي بِالْفِعْلِ. دَعِينَا نَتْرِكَ الْأَمْرَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ».

تَرَكَنَاهُ إِذْنًا، لَكِنْ لَيْسَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ. فِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ، بَعْدَ أَنْ أَنْصَرَفَ الْآخَرُونَ، وَبَعْدَ أَنْ نَظَرَ لِي أَكْبَرَ مَطَوَّلًا بِنَظَرَةٍ مُشْكَكَةٍ، نَهَضْتُ وَكَأَنَّهَا سِتَوَارِبُ الْبَابِ كَمَا اعْتَادَتْ - إِلَّا أَنَّهَا هَذِهِ الْمَرَّةُ أَوْصَدَتْهُ. صَارَ جَلِيًّا أَنَّ الْحِكْمِي وَالِاسْتِمَاعَ أَصْبَحَا قَهْرَيْنِ. كُنَّا كِلَانَا مَنْغْمَسِينَ فِيهِمَا كُلُّ لُغَايَتِهِ وَغَرَضِهِ، لَكِنِّي أَدْرَكْتُ أَنِّي وَجَدْتُ سَبَبًا لِأَحَبِّ أُمِّي بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، لَا كَطِفْلٍ فَقَدْ أَحْضَانَهَا وَشَعَرَ بِالْهَجَرِ، بَلْ لِأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ مَا كَانَ بِإِمْكَانِهَا التَّوَقُّفَ، وَلَا بِإِمْكَانِهَا إِخْفَاءَ أَلَمِ كُلِّ تِلْكَ السَّنِينَ، وَلَا بِإِمْكَانِهَا إِخْفَاءَ الْأَلَمِ الَّذِي تَسَبَّبَ فِيهِ فَشَلَّ حُبَّهَا. فِي جَدَّةِ كُلِّ ذَلِكَ الْأَلَمِ كَمَنْ شَيْءٌ مَأْسَاوِي. بَلَا، فَعَلَ. وَفِي مَعْرِفَةِ أَنَّ أَلَمًا كَهَذَا لَا يَنْتَهِي أَبَدًا، أَلَا شَيْءٌ بِمِثْلِ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْأَهْمِيَةِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَنْتَهِيَ أَبَدًا. كَانَ مُشْهَدًا بِغِيضًا، وَبِقِيْنًا فُظِيْعًا.

«عِنْدَ رَحِيلِهِ دُونَ أَيِّ تَفْسِيرٍ كَمَا فَعَلَ، لَمْ يَسْعَنِي التَّفَكِيرُ فِي سَبَبِ دَفْعِهِ لَذَلِكَ. وَمَا أُمْكِنُنِي تَخِيلُ مَا الَّذِي كَانَ يَدُورُ فِي خُلْدِهِ. كُلُّ مَا

شعرت به طوال النهار والليل كان العار والفقد... والرعب. ثم عندما فكرت في الأمر لاحقًا، بدأت أرتب الأمور في مواضعها حتى تمكنت من الرجوع إلى اللحظة التي غادر فيها.

«حقًا؟ وهل نجحت في ذلك؟»

نظرت إليّ بغرابة. تخيلتُنا جالسين هناك نتحدث عن هكذا أشياء، وصعقتني غرابة الأمر. كان بإمكاننا أن نجلس في تلك الغرفة المعتمة نتحدث عن جمال المساء، أو عن كيفية تمكّنا من إيجاد طرق لنسيان بشاعتنا وقبحنا ولؤمنا، أو عن كيفية تمكّنا بالرغم من كلّ شيء من أن نتحدث بحريّة عن أيّ شيء دون هدف معيّن، دون أن نرغب فعلاً في أن نعلم. بدل ذلك، كنتُ أجبرها على فتح جراح قديمة يكون من المستحيل عليّ مساعدتها على إغلاقها بعدها.

«هل توصّلتِ إلى اللحظة التي... رحل فيها؟» سألتها وسمعتُ دويّ الكلمة وهي ترتطم في أرجاء الغرفة.

«لا، لم أفعل»، أجابت. «لكنني تذكرتُ بعضًا من الأشياء التي حدثت لنا. تذكرتُ كم كان مصدومًا عندما أخبرته أنني حامل».

«مصدومًا؟»

هزت كتفها. «لم يقل شيئًا. فقد كانت بي نورو تتحدث نيابةً عن الجميع، وأفترض أنني لم ألاحظه. لاحقًا، تذكرتُ أنه صار يخرج ليتمشّي في وقت متأخر من الليل وقتها، وامتدّت فترات صمته. أو إذا ما تكلم، أن كلامه صار في تلك الفترة أكثر حدة ممّا سبق. أحيانًا، كان يكتفي بالجلوس في غرفة النوم لساعات، وفروض تلاميذه أمامه، لا يفعل شيئًا. لستُ أعرف ما ربط هذه الأشياء ببعضها؛ فأنا لم أُولي أيّا

منها اهتمامًا كبيرًا وقتها. ظننتها فترة عابرة. ثم رحل. أردتُ أن أغضب منه، أن أكرهه؛ لكنني لم أستطع فعل ذلك لفترة طويلة. لم أستطع فقط أن أفهم سبب إقدامه على ما فعل. كان وكأنه انتحر، لا سمح الله».

«لم أغادر المنزل لأسابيع. اهتمتُ بي نورو بكل شيء. لم أستطع حتى أن تخيل كيف بإمكان ذلك الوقت أن ينتهي يومًا. لكنه انتهى. انتهى. مثل معجزة. لم تتعافى والدته قط من رحيله. بل مرضت ولم يفهم أطباء المستشفى علتها. انكسر قلبها. لم تكن تخرج قط، وأصبحت ستائرهما مسدولة على الدوام. لعلها لولا الأكل الذي كان يبعث به هاشم لها من مطبخ داره كل يوم، ما أكلت إطلاقًا. كلما ذهبتُ لزيارتها، نشجت وتوسلت طالبةً مني أن أغفر لها. هزلتُ ونحفت لدرجة أنك كنت تعتقد أنها على وشك الموت في أي يوم وأي لحظة. غير أنها تشبّثت لخمس سنوات أو ستّ أخرى. وفي آخر تلك السنوات، صارت دائمة الفزع، تنتفض خائفةً عند أدنى ضجيج، تنوح طوال الوقت. قالت إنّ بأحد جدران منزلها صدعٌ، وأنه ما انفكّ يكبر مع كلّ يوم، وإنّ المنزل سينهدّ عليها عمّا قريب. سمعت صوت الجدران وهي تتصدّع ذات ليلة. داتا. في نهاية المطاف، رفضت الطعام ورفضت نقلها إلى المستشفى. بعد أن فعل جيرانها وشقيقها ما في وسعهم لإقناعها بالعدول عن جنونها، لكنها كانت مصمّمة. جوعت نفسها حتى الموت».

قالت: «لم يرسلها أبدًا بعد رحيله. لستُ أدري ما إذا كان قد راسل أيًا كان. ثلاثة أشهر بعد وفاة بي حبيبي، أرسل هاشم في طلبي»، وعندها ابتسمت قبل أن تضيف: «كان ذلك من عمل بي نورو، وقد أكرم الله علينا».

حاولتُ أن أتخيّل ما الذي دفعه للرّحيل هكذا. حاولتُ ذلك وما زلتُ لسنوات، لكنّ جسامة الفعل كانت دائماً تهزمني. لأنّ ما فعله كان شيئاً جليلاً، أن يترك حياته بأكملها خلفه ليختبئ في بطن سفينة تحمله إلى برّية مجهولة. أمن أجل الحرّية أم من أجل الهروب أقدم على ذلك؟ مهما كانت طبيعة القمع الذي هرب منه، كيف يمكن لرحيل كهذا أن يؤدّي لأيّ شيء عدا العواقب الوخيمة؟ إن لم يكن ذلك فقط من أجل الهروب، إن كان قد فرّ من أجل الحرّية، فما الذي رغب فيه كلّ ذلك القدر حتّى تصرّف بمثل تلك الثقة القاسية؟ اعتقدتُ أنّه لا بدّ من وجود شخص آخر في القضية، أنّه تورّط في شيء ما تجاوز مستواه بكثير، وأنّه فرّ عندها ببساطة. لم يذكر أحد أبداً شيئاً من هذا القبيل، وفي مكان بمثل هذا الصّغر، سيكون من الصّعب فعلاً مقاومة موضوع محطّ للشائعات كهذا، لكنّ هذا لم يعن أنّ ذلك مستحيل.

عندما بدأت أفكّر في أنّي قد أرغب في الرّحيل شخصياً، كان لديّ حلمٌ سرّي. كنت سأكتشف عنوانه، لا بدّ وأنّ شخصاً ما يعرف مكانه إذا ما كنتُ مثابراً في البحث كفاية. عندها، سأراسله وسيجيب ليقلول: حسناً، تعال. كانت تلك أسوأ سنوات اضطهادنا بعد الانتفاضة، وقد عشناها على أحلام الخلاص والهروب. لم أكتب له أبداً، ولم آت على ذكر سيرته لإنسان. مهما كان ما سمعتُ، فقد قاله لي أشخاصٌ كانوا قد عرفوه، وربما أرادوا التعليق على شيءٍ رأوه فيّ ذكرهم به. عندما آن أوان مغادرتي، تكلف زوج أمي بكلّ شيء: جواز السّفر والتّذكرة والمال، وحتّى قريب أحد معارفه الذي كان يعتني بي ويدير نفقاتي. لم تكن القصّة التي أخبرت إيما عنها بخصوص أحمد حسين الذي درس في ليستر والذي عشت معه، بعيدة عن حقيقة ما جرت عليه الأمور

حينها. (نعم، أعلم جيدًا أنني لم أذكر إيمانًا منذ وقتٍ طويل، لكن هذا لا يعني أنني لم أكن أفكر بها).

«ما الذي تريده منها؟» سألني أكبر في اليوم الذي تلا محادثتي الأخيرة تلك مع والدتي. «وما الذي تفعله لبناً؟» كنّا في جولتنا المسائية اليومية؛ بعد أن عاد من العمل، تناول طعامه، أخذ قيلولته الإلزامية واغتسل لفترةٍ طويلة بشكلٍ لا يُعقل في الحمام المثير للغثيان، ثم ارتدى ملابسه ببطء شديد كما اقتضى العرف. كنتُ أعلم أنّه كان يكبح نفسه من التحدّث ليوم أو يومين، بعد أن رأيتُ نظرات الحزن العالق في مقلتيه وهو ينظر إلى أمّه، لكنني عرفت أيضًا أنّه لن يصبر مدّة أطول. كنّا نتمشّى على طول الواجهة البحرية، مكان تفسّحه المفضّل، بلا وجهة محدّدة، وهي حالة ما بعد الاستعمار.

«ماذا فعلتُ له؟» سألتُه ورأيتُه يعبس.

«ما الصّعب في مناداته بأ؟» سأل بحدّة، وقد بدا على وشك قول المزيد.

«بأ»، قلتُ متداركًا بسرعة، قبل أن يشرع فيما خشيتُ أنّه على وشك قوله، قبل أن يبدأ في الحديث عن جحودي ووقاحتي. لم يعبرَ عن ذلك أبدًا من قبل، غير أنّ ذاك كان ما خشيتُ أنّهم اعتقدوه جميعًا. واعتقدتُ أنّه ما أن يبدأ فلن يستطيع منع نفسه من الحديث عن زلاتي الأخرى. كان أكبر يصغرنى بثمانى سنوات. وقد أمضيتُ كلّ سنوات طفولته أجرة من مكانٍ إلى آخر، أسنّ القوانين على كلّ ما أمكنني التّحكّم به. الآن، أستطيع أن أرى ثقته في تعامله معي وأشعر، بل وأدرك أنّه أصبح ذاك الذي بإمكانه أن يتعامل بسلطةٍ طبيعية لا كلفة فيها، فيما شعرتُ بنفسى غريبًا ومذنبًا.

أنا أكتب حواراتي هذه مع والدتي وكأنّ لا شيء آخر يحدث بينها، وكأننا كنا شهرزاد وشهريارها الوحش البغيض، نعيش اليوم في عتمة ضبابية قبل أن نعود كلّ ليلة إلى سرديات كانت حقًا صراعات حياة أو موت؛ إلى قصص لم يشأ لها كلاهما أن تنتهي. غير أنّ والدتي لم تكن شهرزاد، لم تكن أميرةً عذراء تحاول إنقاذ حياة طاغية فاسد. فقد أمضت أيامها تصليّ، تساعد زوجة أكبر في المطبخ، تستقبل الزوّار، توجه وترشد، تنصح كلّ من كان على مسمع منها، تبسم. وبعد كلّ سنوات الغياب هذه، امتلأت أيامي بالاصطدامات، امتلأت بمفاوضات معقّدة مع أشخاص وأماكن عرفت بها بوجه مختلف. شعرت أنّه تعيّن عليّ البقاء يقظًا متأهبًا على الدوام، وكأنّ الجميع يتطلّع إلى الإمساك بي متلبّسًا في أيّ نوع من الإهمال كان، والتحقّق من كيفية رؤيتي لنفسِي، في الطّريقة التي تحدّثت بها، وحفاظي على الطّقوس الاجتماعية، ليروا كيف سأكشف عن مدى ابتعادي عنهم. كنتُ حريصًا على ألا أرى وكأنّي تغيّرتُ إلى درجة لا يمكن عندها التعرف عليّ، ألا يظنّوني غريبًا. لكنّي أردتُ أن أحكي قصّة والدتي عن هجرها في جزء واحد، مثلما أعدت بناءها في ذهني بعد ذلك، لأوصل شيئًا من قوّة السرد التراكمي.

«ماذا فعلتُ لبا؟» سألتُ أكبر.

«أخبرني أنت»، أجاب.

في اليوم الذي وصلت فيه، بعد أن اغتسلتُ وأكلتُ كما طُلب مني، ذهبتُ وجلستُ مع زوج أُمّي، وتحدّثنا بتلك الطّريقة التي لا

هدف لها، والتي وصفْتُها آنفًا. تحدّث عن المصاعب التي كان عليهم تحمّلها على مرّ السنين، غير أنّه لم يفعل بنبرة الشكوى الشخصية التي كنتُ سأسمعها لاحقًا أعلاه، بل بنبرة رجل أعمال: عن عدم كفاءة السُلطات، عن سلسلة الفشل التي لا تنتهي، عن التئمّر الطائش لمن تولّوا المناصب وروح الانتقام غير العقلاني المنغرس لديهم. كانت محادثة عامّة، وكان بإمكان الناس أن يجلسوا وينظّموا للحديث دون تطفّل، بعد توقّفهم ومرورهم بروتين التّحية المندهشة أمام عودة الابن الضّال. يقع متجر زوج أمّي على الطّريق الرئيس، تكون حركة الزّوار العرضيين كثيفة في فترة الصّبيحة، قبل أن تتضاءل تدريجيا مع اشتداد قسوة أشعة الشّمس. بحلول وقت الأذان الذي يدعو المؤمنين لأداء صلاة الظّهر، كنّا نجلس بمفردنا فيما كنت أقدم بحذر تقريرًا مبسّطًا عن حياتي في إنجلترا. نصمت أثناء الأذان، بعدها ينهض زوج أمّي، يضع سترته ويهمّ بالخروج من المتجر نحو جانب المنزل. أمشي بجانبه بضع الخطى، متابعا قصّتي حيث أوقفني المؤدّن، حين يقول لي زوج أمّي دون النّظر نحوي، اذهب وأدّ صلاتك.

يقول هذا بقسوة، بشيء يشبه الازدراء والترفع. كان عليّ أن أتوقّع ذلك. فهو وقبل كلّ شيء وهابيّ، من عشاق كلمة الله غير المزخرفة أولئك، المتعصّبين للسّنة، الموحدين. كان الوهابيون الأصليون أصولي الأصوليين، وبإمكانهم استحقاق مكانتهم بين المجانين المتعصّبين لأيّ ديانة عن جدارة واستحقاق. فقد حظروا الموسيقى، والرقص، والشّعْر، والحرير، والذهب والمجوهرات، وربّما أيضًا بعض الملذّات الصّغيرة الأخرى التي لا تسمح لهم قداستهم بذكرها علنًا. أبغضوا التّصرّع للصّالحين وتبجيلهم. وإذا كان أعظم أعمالهم التّخريبية في التّاريخ هو تدمير قبر الإمام الحسين، حفيد النّبي

(صلى الله عليه وسلم) في كربلاء؛ فقد خصّصوا أكثر اضطهادهم استمراريةً للمشكّكين والفلاسفة، وللطّرق الصّوفية. لبعض من الإخوان المعاصرين شكوكٌ حول ما إذا كان الله سيحرّم الهاتف أو التّلفاز، ناهيك عن إطلاق الصّواريخ إلى القمر.

لم يتمّ زوج أمي لهذا النوع من الوهابيين، لكن كان الأفضل لي أن أعرف أنّه لم يكن هناك من مجال للعبث بالصّلاة. وأعتقد أنّ كلّ ما حاولتُ فعله كان تأجيل تلك اللّحظة. على أيّ حال، بعد أن أصدر أمره بحزم، استدرتُ واتّجهت نحو المسجد. لم يكن سوى على بعد بضع مئات من الأمتار خلف منزلنا، بعد شجرة البواباب القديمة التي هيمنت على المقاصة؛ قبل الانعطاف يمينًا على بعد خطوات قليلة من الشّارع الضيّق الذي فاحت منه رائحة المجاري المسدودة. لم أدخل مسجدًا طوال المدة التي مكثتها في إنجلترا، ولم أؤدّ صلاةً واحدةً إلّا تهكمًا. كنت أعرف أنّ هذه اللّحظة آتيةٌ لا محالة، وخشيتُ أن أجلب العار لنفسِي، أو أن ارتكب خطأ فادحًا من شأنه أن يفضح إهمالي الطّويل للصّلاة. تركتُ نعلي على الشّرفة الحجرية المرصوفة الواسعة وسرّتُ إلى خزانات المياه الحجرية لأتوضأ. غسلت يديّ ووجهي وذراعيّ حتّى الكوعين، خلف أذنيّ، ثمّ حاجبي وقدمي حتّى الكاحلين. كانت الدّرجات الثلاث المؤدية إلى باب المسجد نفسها مبلّلةً من أقدام من سبقوني، كما كان السّجاد في الدّاخل داكنًا وإسفنجيًا من أثر الأقدام نفسها. تناثر الناس في مساحة صغيرة، جالسين فرادى، متكئين على الأعمدة الكبيرة التي توسّطت المسجد، أو على الجدران. من حين لآخر، كان أحدهم ينهض ليحيّي وافدًا جديدًا ويتبادل معه بضع كلمات، لكن لم تكن هناك أيّ محادثة.

جلست مسنداً ظهري إلى الحائط الخلفي، مبقياً نظري مسمراً على الأرض، وأنا خائفٌ من أن تقع عيني في عيني شخص قد أخفق في التعرف عليه، والذي قد يغتاظ من عدم تحيتي له، أو أن أحیی شخصاً أكون قد تعرّفت عليه لكنّه لا يتذكّر مطلقاً من أكون، والذي سيبدو مندهشاً مثلما بدا ذلك الرجل في المطار. جلستُ هناك ضائعاً في قلقي، منتظراً أن يُكتشف أمری، خجلاً من نفسي بسبب ضعفي. ولما صدح نداء إقامة الصلّاة، اصططفنا خلف الإمام وردّدنا كلماته سرّاً، ثمّ ركعنا وسجدنا في وحدة منسجمة. عندما نهضت للمغادرة بعد الصلّاة، ربّيت يدٌ على كتفي. وبعدها بلحظة أقبل شخصٌ آخر عرفته منذ سنوات ليحييني أيضاً، ومرّ آخرون ممّن تعرّفت عليهم بابتسامة أو كلمة ترحيب. جلب المسجد والصلّاة معهما اندفاعاً من الشعور بالمألوف، لذلك، ورغم قلقي من الإقدام على شيء أخرق، وجدّثني أبتسم سرّاً للذكريات التي أعادتها لي رائحة السّجاد على الأرض، والبياض المزرقّ الباهت الذي غطّى الجدران، وهممة الصلّوات المهموسة اللّطيفة. شعرتُ بفخر مفاجئ بالنسبة لرجل في سنّي يجزّ ثقل ماضيّ، عندما سمعتُ أحدهم يقول في همس مسموع: إنّ ابن هاشم. وأوّل شيء فعله بعد نزوله من الطّائرة هو المجيء إلى هنا ليصلّي. لم يعتبروني غريباً.

بعدها، لم أعد بحاجة لتشجيع كي أذهب إلى المسجد كلّما أذن المؤذن، باستثناء أنني بقيت عاجزاً عن الاستيقاظ لصلّاة الفجر. لم أكن قادراً على الاستيقاظ قبل العاشرة صباحاً، رغم أنني تخلّيت (بل اضطررت للتخلي) عن كؤوس الرّوم الثلاثة المسائية، وأنّي نمت بعمق اللّيل بطوله من الإرهاق. لسنوات، اعتدت على الاستيقاظ

على السادسة صباحًا لالانتهاء من تحضير بعض الدّروس أو تصحيح الفروض قبل الانطلاق للمدرسة. أمّا الآن، فوجدت أنّي أتبع الجدول الزّمني لمراهق، وشعرتُ بنفسِي مرهقًا ما أن أستفيق. للوصول إلى الحَمّام المتفشّرة جدرانها، كان عليّ تجاوز غرفة أمّي وزوج أمّي، والتي يبقى بابها دائمًا مفتوحًا طول النّهار وطول المساء، حتّى يأويان إلى الفراش. وُضع كرسيّ زوج أمّي، مع منضدة صغيرة ومذياعه بجانبه مقابل الباب مباشرة، حتّى يتمكّن من رؤية حركة الدّاهيين والقادمين في البهو. تزامنت زيارتي الأولى إلى الحَمّام (أو ذاك ما بدا) مع آخر فنجان قهوة كان يشربه قبل أن يطفئ جهاز الرّاديو وينزل لمشاهدة الحركة المارة أمام المتجر؛ وكأنّه كان ينتظر استيقاظي قبل أن يبرح مكانه. ولأنّ الحَمّام ظلّ شديد القذارة، كنت أخلع ملابسِي في غرفتي وأستتر برداء الحَمّام لتفادي توسيع ملابس نومي. غير أنّ رداء الحَمّام الذي جلبت معي كان مبالغ القصر، مخيطًا من قماش الفوطة، ذلك النوع الذي قد ترتديه على الشّاطئ (ما لا يعني أنّي ارتديته من قبل لأنّي لم أذهب أبدًا إلى الشّاطئ في إنجلترا). أن أتمشى متجاوزًا غرفة زوج أمّي كلّ صباح في تلك الحالة من العري، وأنا في مثل سنّي، وعلى علم بأنّه قد استيقظ منذ الرّابعة صباحًا وأدّى صلواته قبل الاستماع إلى الأخبار على نصف محطات العالم الإذاعية، جعلني أشعر بأنّي أستحقّ نظرة الازدراء التي تخيلته يسمّرها على ظهري وأنا أسارع أمامه. لم أجرؤ على النّظر جهته أبدًا.

بيد أنّ تردّدي المنتظم على المسجد أكسبني ابتسامات واستحسانًا، حتّى من قبله. وبمرور الأيّام، ومع جلوسنا سويًا في المتجر كلّ صباح، نشرب عددًا لا يُحصى من أكواب القهوة التي كنّا نسكبها من الترمس

الضخم الذي أعطوني إياه لأنزله في طريقي، تغيرت محادثتنا. أثناء الفترات الفاصلة بين مرور الزائرين، والذين بدأت أفهم أن بعضهم كانوا يمرّون يوميًا وبانتظام، تحدّث بصراحة لم أتوقّعها منه بالنظر لبداياتنا المتعثّرة. لم يكن ذلك راجعًا لكونه تحدّث بشكل أكثر حميمية، أو لأنّه قال أشياء كنت أجهلها تمامًا (رغم أنني كنت أجهل بعضها تمامًا بالفعل)، بل لأنّه تحدّث عنها دون توتّر، وبسخاء مغدق في التفاصيل. وعندما طلبت منه أن يشرح شيء ما، بدا عليه أنّه يفعل ذلك دون تملّص.

لم أكن على علم بأنّ والده كان حفّار قبور، أو بأنّ عائلته نُبذت لهذا السّبب. كان والده ضعيف البنية⁽²⁸⁾، واهنًا، ما كنت تظنّه بقادر على القيام بعمل كذاك، واستعمال المعاول والمجارف بتلك المهارة والدقّة. غير أنّ المساجد كانت دئمًا تلجأ إليه لأنّ حفّاري القبور كانوا ندرًا، ناهيك عن أولئك الذين كانوا يشعرون بالحاجة لإرضاء من هم أرفع شأنًا منهم، والذين شعروا بتلك الرّغبة الجامحة في عكس الازدراء الذي احتجّزوا فيه لدرجة أنّهم لم يكونوا حتّى يجادلون بشأن ما كانوا يؤتون من أجر على عملهم. حمل والده رائحةً معيّنة نصحت منه، اعتقد زوج أمّي عندما كان صغيرًا أنّها كانت رائحة الموت، ميتة⁽²⁹⁾، أو رائحة الجثث المنبعثة منها وهي تجفّ وتحلّل في الحرّ، أو رائحة تربة المقبرة النّدية. تلك الرّائحة، وتلك الأدوات الخرقاء، والسّخريّة المعتادة التي رأى أباه يُخصّص بها- تلك كانت الأشياء التي جعلته يقرّر قبول أيّ عمل صادفه، وأن يجد الشّرف والمجد والازدهار

(28) حفيف، بالسّواحيلية في النصّ (المترجم).

(29) بالعربية في النصّ. (المترجم).

في هذه الحياة، وكذلك مغفرة الله ورحمته في الحياة الأخرى، لكنّها جعلته أيضًا يقرّر ألاّ يتبع أبدًا المسار الذي سلكه والده.

لاحقًا، اكتشف أنّ الرائحة لم تكن رائحة الموت في الحقيقة، أو على الأقلّ كما اعتقدها، بل رائحة ورم في باطن فخذ والده الأيمن، والذي غدّاه طوال الاثني عشر عامًا الأخيرة من حياته. في النهاية، بتر الأطباء الرّجل من جذعه- وقد قال زوج أمّي مرافقًا ذلك بحركة قطع جانبية عنيفة براحة يده المبسوطة -لكن بعد فوات الأوان. فقد مات مباشرة هناك، على طاولة العمليات.

حدث ذلك وزوج أمّي غائب. فقد كانت الأوضاع خلال تلك السّنوات سيّئة جدًّا، بعد أن وجدّ يائسًا ومُجبّرًا عملاً على متن مركب شراعيّ أبحر على طول السّاحل باتّجاه الخليج وبلاد فارس. غاب لما يقرب العامين، وهو يقتات على بقايا الطّعام والدّخن، مثل متوحّشي المناطق الدّاخلية. على الأقلّ كان هذا ما أكلوه وقتها. في أيّامنا هذه، يأكل الذين لم يعد يُسمَح لنا بعد الآن بتسميتهم متوحّشين ما يرسله لهم الأوروبيون في أكياس وطعام معلّب. غادر الدّاؤ⁽³⁰⁾ في بومباي، لأنّ التّاجر الذي استأجر السّفينة أراد من النّاخوذه أن يتّجه بها إلى سيّام وجاوا، وكان حينها زوج أمّي قد سثم من العمل كبَحّار بعد تلك الفترة. بعد أن تحصّل على أجره، أمضى ثلاثة أشهر سائحًا في بلاد الهند - ورأى دلهي، أجرا، حيدر أباد، ومَدَراس. بقيتُ صورٌ عن تلك المدن شديدة الوضوح في ذهنه، على الرّغم من مرور زمن طويل،

(30) الدّاؤ سفينة شرّاعية عربية تقليدية ذات شرّاع مثلث واحد أو أكثر تُستخدم بشكل أساسي على سواحل بحر العرب وشرق أفريقيا. (المترجم).

ومن أنه لم يحظ بفرصة العودة لها أبداً. في مدراس، انضم إلى طقم سفينة شراعية (داو) أخرى كانت تشق طريق العودة في فترة الرياح الموسمية.

حدث قائلًا: «لم تبدأ التجارة في الانتعاش من جديد إلا قبيل السنوات التي سبقت الحرب مباشرة. وأثناء الحرب نفسها، مع نقص الإمدادات، أمكن لتاجر فطن أن يربح دائماً شيئاً هنا أو هناك. بالطبع كانت رؤوس الأموال الحقيقية في أيدي التجار والدائنين الهنود. فقد وهبهم الله ملكة للتجارة، لكنه حرّمهم من روح الإحسان وصنع المعروف. كانوا الوحيدين القادرين على توفير السلع التي اشتدت الحاجة لها، والتي اشتراها التجار عنهم مستدينين، وسدّدوا ثمنها بفائدة فيما بعد. منذ البداية، عندما نصّب العمانيون أنفسهم أسياداً على هذه البلاد قبل مائتي عام، أحضروا معهم المصرفيين الهنود لرعاية شؤونهم وأعمالهم. كان التاجر توبان في زمانه أغنى من السلطان نفسه، وكانت أراضي نصف أمراء الجزر الصغار مرهونة له. إذ أجادوا إدارة أعمالهم؛ وفهم أولئك التجار غرور الأمراء والسلاطين. لذلك، مولّوا استعراضهم الباذخ - من قصور فخمة وحفلات زفاف فاخرة ومخططات عظيمة، وجياد أصيلة وأغمد مذهبة لخناجرهم الطويلة - واستحوذوا على سندات الملكية التي منحها العمانيون لأنفسهم بعد احتلالهم للجزر. عاجلاً أم آجلاً، انتهى الأمر بالدائنين أن امتلكوا الأرض، وعاش الأمراء والملّك في زيف الازدهار الذي حرص التجار الهنود على تمويله بحذر وحكمة. وفي الوقت الذي تبختر فيه السلاطين ونبلاؤهم في حللهم الباهتة، وخطّطوا ونصبوا ودبروا المكائد لبعضهم طوال الوقت، تحكّم التجار في زمام الأمور.

بحلول الوقت الذي أراد فيه الأمراء والملأك استعادة ممتلكاتهم، كان محامو الدائنين قد رتبوا كل شيء وقيدوه، وحضر البريطانيون لضمان الامتثال لتطبيق القانون.

عندما اشتعل فتيل الحرب، صار من الممكن القيام بنوع مختلف من التجارة. (ابتسم ابتسامة عريضة عند هذه النقطة، وعلى الرغم من أنه لم يقل ذلك صراحةً، إلا أنني كنت أعلم من مصدر لم يعد بإمكانني تذكره أنه قضى في أوائل أربعينيات القرن شهرًا في السجن بتهمة التهريب). وقد عمّ النقص وخصّ جميع الموارد التي احتاجها البريطانيون لشعبهم الذي كان أكثر أهمية منا بكثير. لذلك، أصبح كل ما أمكنك وضع يدك عليه - من أرز، وسكر، وسمسم ودُخن - حتى وإن كان رديء النوعية، قابلاً للتسويق بأرباح جيدة دائماً. وتعلّم الناس وقتها أكل سكر النخيل والأرز البني والمحار، رغم أنهم كانوا يعتبرون هذا النوع من الطعام لا يصلح إلا للخدم والوثنيين.

كان من الصعب الحصول على أخبار الحرب. إذ لم تكن هنالك أجهزة راديو حينها، أو القليل جداً منها، وأولئك الذين امتلكوا أجهزة أبقوا الأمر سرّاً لخشيتهم من أن تُصادر. أضحى التوتر سمة البريطانيين بشأن كل شيء، لذلك خمنّا أنّ الأمور لم تكن تسير كما أرادوا لها. ولم يكن ذلك بالأمر المفاجئ، فقد كنّا نعرف الألمان، وطريقتهم في الحرب. تجنّد بعض الرّعاع هنا، وكذلك فعل بعض الشباب وهم بعد متمدرسون، لأنّهم وُعودوا بإرسالهم للدراسة في جامعات كبيرة فور عودتهم، وبأنّهم سيصبحون جميعاً أطباء ومحامين. من الجيد أنّك

لم تصبح محاميًا، فكلّ عملهم خداعٌ في خداع. أو شرطيًا، لأنك لو كنتَ شرطيًا وأمروك باعتقال والدتك، فلا خيارَ لك سوى أن تطيع، وقد قال الله تعالى: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياي وبالوالدين إحسانًا». لو أصبحتَ شرطيًا إذن، فأنتَ تعني أنك على استعداد لعصيان الله إذا دعت الحاجة لذلك. على أيّ، أرسلوا إلى الحبشة لمحاربة الإيطاليين، وإلى بورما لمحاربة اليابانيين، ولم نرهم بعدها حتّى نهاية الحرب، على الأقلّ أولئك الذين عادوا منها. طالب الذين تجنّدوا بعد أن تركوا مدارسهم بالالتحاق بجامعاتهم الكبيرة، وأرسلوا إلى مدرسة المعلمين في بيت الرأس، فيما أصبح آخرون رجال شرطة في نهاية المطاف.

كنّا نعرف الألمان وكيفية خوضهم للحرب، غير أنّنا لم نكن نعرف الروس، ولا أنّهم كانوا أشجع منهم وأكثر وحشية. عندما تحولت الحرب لصالح البريطانيين، بدأ يردنا المزيد من الأخبار، وتزامن ذلك مع سماعنا لأوّل مرّة عن الروس. رفض البعض تصديق إمكانية خسارة الألمان للحرب مرّة أخرى. فقد كنّا نعرف الألمان. حتّى بعد انتهاء الحرب، بعد أن راحت عربات السينما تتجول في كلّ مكان وتعرض صور الاستسلام الألماني، صور تدمير مدنهم، والمعسكرات التي قتلوا فيها اليهود، رفض البعض تصديق ذلك. وقالوا إنّها الدّعاية البريطانية. كانت الدّعاية كلمةً جلييلة في تلك الأيام. وكانت نهاية الحرب دعاية، وانتصار اليهود في فلسطين دعاية، وكذا المجازر في الهند وباكستان عند استقلالهما. لكنّ نهاية الحرب جلبت أيضًا معها الرّخاء والازدهار لفترة، حتّى مقدّم السياسة.

قلت لأكبر: «أنا لا أفعل له أي شيء، إنه يتحدث عما شاء، واجلس وأستمع إليه. اليوم مثلاً، أخبرني كيف أقنعت عائلة محمد ساني السلطات بإعادة منزلهم لهم. وقد حكى لي ذلك بتفصيل دقيق، مثل جميع الأدوار بنفسه: فمرة لعب دور العائلة، ومرة دور أحد الكتاب الصغار في وزارة الإسكان، ثم دور السكرتير الدائم، ثم الوزير، حتى تقمص في الأخير شخصية الرئيس نفسه، السيد الرئيس شخصياً، زيموي من قصر كيونوني».

ابتسم أكبر. «هل حكى لك قصة استدعائهم إلى قصر كيونوني؟ حدث ذلك في الوقت الذي أُجبرت فيه فتيات من مجتمعات مختلفة على الزواج من الأفارقة السود، وعلى وجه الخصوص منهم الأفارقة السود البُدن الذين شغلوا مناصب ضباط سامين في الحكومة، وأعضاء مجلس الفداء الثوري، لعنة الله عليهم».

أجبت قائلاً: «أتذكر. لقد سمعت عن ذلك».

نظر إليّ أكبر مطوّلاً. «لقد راسلتك لأسأل ما إذا كان بإمكانك التّشهير بهذه... الجريمة والإبلاغ عنها. أرسلتُ لك بعض المستندات والصّور».

لقد حاولت. وكتبتُ إلى الصّحف، غير أنّ ولا صحيفة أبدت اهتمامها بالموضوع. على أيّ، راسلتُ الغارديان التي ردّت بحذر، وبعثتُ بالموادّ إلى مراسلها في المنطقة. سمعتُ لاحقاً أنّه كان صديقاً شخصياً لرئيسنا الفدرالي، ومن النّازلين المنتظمين على قصر المجلس التشريعي. لذلك، كان من السّهل تخيل ما حدث لتلك الوثائق عندما وصلت بين يديه. لفترة من الوقت، خفتُ على أكبر

وقلقتُ بشأنه، وبخصوص ما إذا ما كانوا سيتعقّبون أثر الأوراق إلى غاية الوصول إليه، لكن كان عليّ أن أعرف أنّه من المستبعد أن يحوز المتممّرون المثيرون للشفقة الذين أداروا أجهزتنا الأمنية على مثل هذا الذكاء. فموهبتهم الحقيقية كمنت في النهب والتعذيب والاضطهاد الحقيقير.

«لم تردّ أبدًا على رسالتي»، أجاب أكبر قبل أن يشيح بنظره بعيدًا ضاحكًا وكأنّ الأمر يسليه. «مشهد تلك النسوة الإيرانيات أو العربيات أو الهنديات الشابات الجميلات اللواتي كنّ ممنوعاتٍ عليهنّ دفع أولئك المنحرفين المسنّين إلى الجنون. عذبتهم بشرتهنّ الفاتحة وشعرهنّ الحريريّ الطويل اللامع. لذلك ألقوا واحدةً من خطبهم المجنونة في المجلس الثوري لخلاص الأمة، وقرّروا أنّ تلك النسوة كنّ عنصريّات، بحقّ الله. هذا ما توصّل إليه هؤلاء العنصريين الذين ألحقوا العار بجميع العنصريين كطريقةٍ لإجبار تلك النسوة على مضاجعتهم، أصابهم الله بكلّ الأمراض الخبيثة في كبرهم. العنصرية شرٌّ لا يمكن أن تتحمّله أمّتنا، أعلنت الإذاعة في الليلة نفسها. كانت تلك مقدّمةً لتسمية النساء بأسمائهنّ واشتراط تسليم فلانة إلى منزل عضو مجلس الفداء الثوري فلان، حيثُ سيقام حفل الزواج بعد ذلك. وصلت وقاحة أولئك الوحوش أن توقّعوا من الآباء والأهل أن يسلموا بناتهم بأنفسهم إلى وليمة آكلي لحوم البشر تلك.

«على أيّ حال، كما يمكنك أن تتخيّل، رفضت معظم النساء الانصياع. اشتكى أبائهنّ ونحبت أمهاتهنّ، ورُتبت الزيجات على عجل لاستباق وقوع تلك الكارثة. غير أنّ المنحرفين المسنّين -تركّ

اللّه أرواحهم الدّنيّة تتعقّن-رفضوا الاستسلام، وجاءت الشّاحنات العسكرية لأخذ العرائس المحظوظات من منازلهن. وصل الأمر حتّى سمع أب الأمة بهذه الشّكوى من آبائهن وأمهاتهن؛ هو الذي كان يتزوّد ويطلق كما يحلو له، دون الحاجة إلى شاحنات عسكرية، فقد كانت كلمة هادئة واحدة تكفي ليسلم الوالدان الابنة المحظوظة إلى عرين الوحش، كي يغتصبها المخلص ويلعب بها على هواه. لكن وقتها، كان للرئيس سلطة التعذيب والتشويه وما هو أسوأ، دون أن يحتاج حتّى أن يقوم من ديوانه⁽³¹⁾. عندما سمع بالتدمير، استدعى ممثلي شتى الطوائف، حسب المنطقة، والطائفة الدّينية، البلد الأصلي، أو أيّ فئة أخرى أمكنهم تخيلها. لا بدّ وأنّ رئيس المراسم أو رئيس الأمن أو أيّا كان من تكفل بهكذا تفاهات قد أمضى أسبوعاً بأكمله منشغلاً بذلك. المهمّ في كلّ هذا، هو أنّه تمّ استدعاء با، رغم أنّي لا أعرف من كان يمثل، وابنته الوحيدة كانت متزوجة آنذاك. اجتمع هناك إذن ذلك الحشد من ذوي اللّحي الشّائبة جالسين حول مائدة رسمية أو ما شابه في القصر، يتلون صلواتهم، ولم يعلم أحد ما الذي كانوا يتوقعون. دخل أب الأمة عليهم، وجعله مشهد المسنين المرتعدين من الخوف يضحك ضحكته الهادرة المروعة التي تشبه ضحكة الغول.

قال أكبر: «سمعتُ أنّ بعضكم يتدمّر»، جاعلاً صوته أجشاً ومهدّداً، قبل أن ينفجر ضاحكاً ثمّ يضيف: «يجب أن تسمع با يقلّده».

أجبتّه: «سأفعل».

(31) بالعربية في النص. (المترجم).

عندها إذن، وبينما ظلّ صدى صوته يتردّد في جميع أرجاء الغرفة، فكّ الرّجل الضّخم سوستة سرواله، أخرج قضيبه ووضعه على الطاولة. ترك الجميع ينظرون إليه جيّدًا قبل أن يقول: ما الذي تشتكون بشأنه؟ إنّه ليس بذلك الكبير. يمكنهنّ ابتلاعه بسهولة. الآن، عودوا إلى دياركم وتوقّفوا عن إحداث المتاعب. أنظّون أنكم متميّزون؟ عهد تلك الأيام قد ولّى وانقضى. تمقت حكومتي العنصريّة وستمحوها بأيّ وسيلةٍ في نطاقي، بما في ذلك هذا. بعدها، ربّت على قضيبه وستره، وأعطى الجمهور ضحكته الهادرة القاسية قبل أن يعود إلى أيّ عريضة كان قد قاطعها من أجل هذا الجزء من التّسلية.

كان هذا رجلنا الكبير الذي لم يكن يستكبر أيّ فظاعة، ولا يستصغر أيّ لؤم. ربّما لن يجد أولئك الذين قطعوه إربًا إربًا بالرّشاشات الآليّة -والذين كانوا أوغادًا أشرارًا بدورهم- عند الله إلّا رحمةً عظيمةً منه عندما ستحين ساعتهم. لكنّي أتمنّى أن يكون رجلنا الضّخم بصدد الاحتراق الآن في جهنّم، وأن يُدخّل إليها مبكرًا كامتياز يُخصّ به، وأنّه يجربّ بالفعل عيّنات من ذلك العذاب الأليم الذي وعد الله به بعضًا منّا في الحياة الآخرة.

لاحقًا، ريثما سرنا عائدين إلى المنزل والمؤدّن يدعو الجميع بعد صلاة العشاء (لم يكن أحدٌ يطيل البقاء في الخارج بعد حلول الظّلام في تلك الأوقات)، قال أكبر: «تقول إنّه يتحدّث. أعلم أنّه يتحدّث. إنّه يجلس هناك مع جميع أولئك الشّيوخ كلّ يوم ولا يفعل غير ذلك. لكنّه لم يعد الآن يقول شيئًا عند عودته إلى المنزل، بل يكتفي بالجلوس في غرفته. وهذه ليست عادته».

لاحظتُ أنه كلما أراد أن يقول شيئاً قاسياً، نظرَ أكبرَ بعيداً، وأصبحت تعابير وجهه تكشيرةً ضراوةً وازدراءً. وهذا ما حدث أثناء كلامه. «رأيتُه جالساً هناك قبل ليلتين فدخلت وسألته، ما أخبار اليوم؟ شيءٌ من هذا القبيل. لكنّه حدّق فيّ بتلك النظرة القاسية، وكأنّي أكبرَ أحرق على وجه الأرض. ثمّ قال، أنا فقط أفكّر. فيم؟ سألت. هل تعرفُ ماذا قال؟ أشياءٌ تؤلمني. لم أسمع قطّ يقول أشياءً كذلك. أشياءٌ تؤلمني، وقد قالها بنظرةٍ فارغةٍ من التعبير. هذا ما قصدته حينما سألتك ما الذي تفعله له. وكلّ تلك المحادثات السّرية مع ما، بإمكانني سماعكما تنهماسن حتّى أولى ساعات الفجر. ما الذي يحدث؟ ما الذي تنوي عليه؟»

أمكّني رؤية غضبه وسماعه، وخمّنت أنّ ما عنى قوله كان شيئاً أشدّ عنفاً، شيئاً سيجعلني أتوقّف عن زعزعة حياتهم. أو لربّما كان الأمر أكثر بساطة من كلّ هذا. لعلّه كان ببساطة مجروحاً بسبب ما شعر به من إقصاء، بما قد يبدو إعادة إحياء حبّ قديم قد تعزله عواقبه تماماً.

«سألْتُها عن والدي. والدي عبّاس الذي فرّ».

لم ينظر أكبر نحوِي ولم يبطئ اندفاع مشيته. توقّعت أن يلتفت لي، مذعوراً فزعاً، وكأنّي رفعت الستارة عن إحراج حميم.

ثمّ أضفتُ: «هذا ما كنّا بصدد التّحدث عنه في الغالب. أردتُ فقط أن أعرف عن كلّ هذا. عندما غادرت قبلاً، كنت صغيراً جدّاً على أن أسأل».

أوماً برأسه متّفهماً، وعلى الرّغم من أنه لم يقل شيئاً، إلّا أنّي شعرتُ باستهجانهِ للأمر واستنكاره له. هل عدتَ بعد كلّ هذا الوقت لتجبرها

على اجترار كل ذلك الماضي؟ ثمّ أوماً من جديد، لعلّه لم يكن معارضاً في الأخير، فقط متردّداً عما قد يقوله عن شيء حقّه عديد الاحتمالات الجارحة. دون أن يدرك، بدأ وجهه يتغيّر. امسح عبوسه السّاخر تدريجيّاً، ورأيتّه يأخذ نفساً عميقاً ثمّ يزفر في تنهّد بطيء.

قال مبتسماً: «ظننتك ستعود لتتزوّج، لا لتبدأ في التّنقيب ضمن مشروع أثري».

«توقّف عن سيرة الزّواج هذه»، أجبته، وهكذا تجاوزنا مبتسمين تلك اللّحظة العصيبة المحرّجة.

في وقتٍ ما بحر أسبوعي الثاني في الديار، زارني ضيفٌ لم أتوقعه. أتى قبل الغداء بقليل، وكلّه اعتذارٌ بسبب الإحراج الذي تسبّب به توقيت زيارته، غير أنّه سمع للتوّ من أكبر أنني عدتُ، فاعتقد أنّ من واجبه المرور علينا في طريق عودته من العمل، وكلّه أسفٌ لأنّه لم يحظ بما يكفي من الوقت ليجلب لي ولو هدية رمزية ترحيبًا بعودتي. بالكاد تمكّن وهو في عجلة من إحضار بعض الصّور للواجهة البحرية القديمة، قبل أن يدمرها قصف البحرية الملكية سنة 1890. هل صادف أن رأيته من قبل؟ كان قد عثر عليها في أرشيف الوزارة باحثٌ من مشروع تاريخ الجامعة، وطبع منها بعض النسخ. في إحدى الصّور، وقف حفاةً ثلاثة من مشاة البحرية من فوج أيرلندي، يحملون بنادقهم مائلةً على صدورهم، أمام تذكّار الانتصار الذي كان جسدًا أسودًا منبسطًا. فيما وضع أحدهم قدمه الحافية على رأس القتيل.

قال زائري إنّّه رأي في المسجد ذاك اليوم من بعيد، ولم يكن متأكدًا، إلى أن أكّد أكبر له هذا الصّباح أنني كنت بالفعل أنا، لذلك اعتقد أنّ من المستحسن له أن يأتي ويحييني، رغم أنّه جاء خالي الوفاض. كم هذا لطيفٌ منه، لكن لا، لن يبقى لتناول الغداء، شكرًا⁽³²⁾. كنّا واقفين أمام الباب الأمامي مباشرة؛ لكن لا، لن يصعد ويتنقل في وقت مماثل. هل سيكون لديّ الوقت لأزوره في مكتبه، في اليوم التالي؟ أو اليوم الذي بعده، إن كان ذلك أكثر ملاءمة، سيسعده ذلك

(32) بالعربية في النص. (المترجم)

كثيراً إن فعلت. كان لدينا الكثير لتحدث عنه. لا، لا⁽³³⁾، لا، إنه فعلاً يرفض البقاء لتناول الغداء. فعائلته بالفعل في انتظاره ليبدووا الغداء، أحسنت صنعاً*. إلى الغد، إن شاء الله.

كان زائري السكرتير الدائم لدى وزارة الثقافة؛ ورغم أنني سمعتُ اسمه يُذكر، وقد كنت في الصّف نفسه مع أحد أشقائه أو أبناء عمومته الذي يصغره سنّاً، إلّا أنني لم أقابله أبداً من قبل. لم يكن بإمكانني تخيل الأشياء التي قد يمكننا التحدّث عنها في مكتبه. أعلاه، لم يهتم أحد بزائري، باستثناء أكبر.

«بإمكانه أن يكون مفيداً، سوف آتي معك».

«لماذا؟»

أجابني: «لن تعرف الطّريق إلى هناك».

فسألته: «ماذا عن عملك؟»

«عن أيّ عمل تتحدّث؟ نحن لا نقوم بأيّ عمل هناك. نكتفي بالذهاب إلى المكتب، نقضي الوقت هناك ثم نعود إلى المنزل». كان أكبر يعمل في وزارة البيئّة، وصحيحٌ أنّه لم يبد عليه قضاء وقت طويل هناك. كلّ ما في الأمر أنّه كان يعود إلى المنزل ثلاث مرّات أو أربع، بأوهى الذّرائع والأعذار. مثلاً أنّه سمع أنّ بعض اللّحم البقري الطّازج جيّد النوعية يباع في السّوق، لذا أتى ليشتري منه قبل نفاذ الكميّة. أو أنّ أحد قوارب الصّيّد أحضر صيداً وفيراً من سمك التّونة في غير موسمه، وأنّه كان سيذهب للشّاطئ ليرى إن بقيت بعض الشّرائح تباع هناك. أو ظنّ أنّه سيذهب لدفع فاتورة الكهرباء، أو أنّه سيحاول إقناع

(33) بالعربية في النص.

البناء بالمجيء ليلقي نظرة على ألواح السقف التي بدت على وشك الانهيار. كان لا يعود تقريبًا إلى عمله مطلقًا بعد الغداء، رغم أنَّ فترة الدوام لم تكن تنته نظريًا حتى الرابعة عصرًا.

كان السكرتير الدائم يدعى عمر مالك؛ رجلٌ قصير القامة في أوائل خمسينياته، بدأ يميل للسمنة حديثًا. وُجد مكتبه فيما كان سابقًا منزلَ عائلة هندية. لم أكن أعرف تلك العائلة، لكنَّ المنزل يقع بجوار مكتب البريد، وقبل سنوات، مررتُ به عدَّة مرَّات ورأيت العائلة وهي تهتمُّ بشؤونها، يأتي أفرادها ويذهبون، يغسلون سيَّارة، يتحدثون عند المدخل مع زائر لم يكن قريبًا بما يكفي كي يُدعى إلى الداخل. لا بدَّ وأنَّ المنزل صودر بعد الانتفاضة، كما حدث مع العديد من المنازل والمزارع والشركات والسيَّارات وكلِّ شيء لم يكن لا تافهًا ولا عديم الفائدة. كانت للدولة آنئذٍ شهيةٌ نهمةٌ للنهب، وقد قاتل العديد من البارونات والفرسان بحماسة للحصول على نصيبهم من الغنيمة. أحاط جدارٌ بالجزء الأمامي من المنزل مطوقًا فناءً مرصوفَ الأرضية، زُرعت فيه رغم ذلك هنا وهناك شجيرات الياسمين والدُّفلى القزمية ونخلة للزينة. على الحائط، اتَّكَأت أغصان نبتة متسلِّقة زهورها بنفسجيةٌ صغيرة لم أرها من قبل أبدًا. مددت يدي لزهرة إلا أنَّ أكبر طلب متي ألا ألمسها. وقال: «سِلْطَخْ نَسْغُها مِلا بَسْكَ». كنتُ سأكتفي بقطف زهرة واحدة صغيرة، لم أكن سأتمرَّغ فيها، لكنِّي سحبت يدي في حال كان قد قصَد شيئًا لم أفهم مغزاه.

صعدنا السَّلم الحجري الواسع المؤدِّي إلى الشَّرفة، فالبرودة المفاجئة للمبنى. خرج عمر مالك ماديَّ يده، وإنَّ كانت رؤيته لأكثر معي فاجأته فهو لم يبدِ أيَّ إشارة قد تخون ذلك. وأشكَّ في أن يكون

قد تفاجأ - حيث أن المكاتب الحكومية شابهت البازارات التي تتم فيها كلّ معاملةً على الملاء، كما سبق لي اكتشاف ذلك عندما حاولت تغيير العملة أو إجراء مكالمة هاتفية بعيدة المدى. كان مكتب عمر مالك غرفةً واسعةً ومريحة مطلّةً على البحر. لعلّها كانت في استخدامها السابق غرفة استقبال العائلة التي كان يجلس فيها الآباء والأبناء مساءً ليتعلّلوا بالنسيم العذب الطّافي فوق مياه البحر وهم يستمعون إلى الموسيقى على المذياع.

أشار عمر مالك إلى مقاعدنا كي نجلس قبل أن يعاود الغرق في كرسيّ مريح خلف مكتبه الضّخم الفارغ. لهنيهة خاطفة، ارتسمت ابتسامةٌ عريضةٌ ولطيفةٌ على وجهه، ثمّ، وبمنظرة ملؤها التركيز، حكّ طرف شاربه المشدّب بعناية بسبّابته المعقوفة. شاهدته بنوع من الغيرة وهو ينزلق مع أكبر دون عناء في محادثة مرحة وخفيفة. كنتُ أعلم أنّ فعل ذلك كان شيئاً مستعصٍ عليّ، لكن لا بدّ وأنّه راجعٌ لكونهما مرتاحين مع بعضهما، ومع نفسيهما. بسبب عيشي بين الغرباء طوال كلّ هذا الوقت، فقدتُ منذ أمد تلك الثقة الطّبيعية، تلك القدرة على الاتكاء بشكل مريح، حكّ شاربي والدّردشة بتلقائية.

بدأ أكبر في الحديث عن المشروع الذي كان بصدد العمل عليه، وهو ترميم الفندق الاستعماري القديم والحيّ الأوروبي المحيط به لإعادة روعته في فترة مجده. كانت بعض الإصلاحات الهيكلية ستُنجز، لكن لم يكن ذلك بالأمر الكبير إذا ما أخذ بعين الاعتبار قدر الإهمال الذي لحق به في السّنوات الأخيرة. رفعاً عند هذه النقطة حواجبهما إشارةً لتبادل المواساة. قال عمر مالك: «كانوا يتقنون بناء المنازل في تلك الأيام؛ فيما أصدر أكبر صوتاً خفيضاً مستمراً

يشبه هدير ذكر الحمام أثناء فترة التزاوج. كمنت التكلفة الحقيقية في استبدال السبابة والديكور. في هذا الصدد، اهترأ كل شيء وأهمِل: السجاد بال، الحمامات قذرة، والمكابس مكسورة؛ وعليك رؤية الحالة التي آلت إليها المراحض. كان المطبخ في وضع مقرف ومثير للاشمئزاز. اختفى حامل المظلات الذي كان على شكل قدم فيل، المدرج في قائمة الجرد، ونُهبت مكتبة الفندق، كما أكل العث ما تبقى من كتبها. كل تلك الطبعات الأولى الفاخرة من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي، والتي تفاجأ الكثير من الزوار بالعثور عليها هناك وكتبوا عنها في الصحف الأوروبية، العديد منها أُلِف وتضرّر. تلك كانت حالة الفندق وحده، أما عن المنازل الأخرى المجاورة التي عاش فيها أشخاص من أمثال ليفينجستون، ستانلي وبورتون حين كانوا يستعدّون لرحلاتهم الاستكشافية إلى داخل البلاد، فحدّث ولا حرج، مبان شكّلت جزءاً لا يتجزأ من التاريخ، حولها الآن رغم ذلك أشخاص لم يهتموا البتّة بماضيهم إلى أكوخ.

قال عمر مالك: «سيتطلّب ترميم كل ذلك أموالاً طائلة، لكنّه ضروري... من المؤسف أنّ مؤسسة الأغاخان لم تكن مهتمةً بالمشروع. ما أعنيه هو أنّ لهذا الفندق إمكانات سياحية كبيرة».

«لكنّا متأكّدون من أنّ اليونسكو سترعاه؛ ونتطلّع لإرسال فريق لتقصّي الحقائق قريباً».

قال عمر مالك: «إنّه عملٌ شاق، كلّ هذا عمل شاق، لا يوجد ما هو أصعب من جذب التمويل الأجنبي».

وأجابه أكبر: «نحن نبذل قصارى جهدنا».

أبقيت عيني على كليهما، لأرى ما إذا كان في محادثتهما أيّ تهكّم، إذا ما كانا يسخران من نفسيهما، أو أنّهما كانا فقط يستهزئان. هل كانا يتكلّمان بجديّة عن إهدار الأموال على النّوادر الاستعمارية في الوقت الذي كانت فيه البلدة بأكملها تتداعى (حتّى أوشكت أن تغرقهم في قذارتها حرفيّاً)، وصارت المواد الغذائية شحيحة، وقنّوات الصّرف مسدودة، ولم يتوفّر الماء إلّا لساعتين في عزّ اللّيل؛ بينما أمكن للكهرباء أن تنقطع في أيّ لحظة؟ وفي حين كان الرّاديو والتلفاز يذيعان الأكاذيب على مدّ ساعات النّهار واللّيل، وكان عليك من أجل الحصول على أيّ شيء تحتاجه أن تنبطح أرضاً وتجعل من نفسك أضحوكة؟ بحثتُ عن بريق سخريّة أو نبرة تهكّم على وجهيهما وفي صوتهيهما، لكنّهما بدوا منغمسين في جدّيّة مخاوفهما. تاريخُ مَنْ ذاك الذي كانوا بصدد ترميمه؟ ثمّ خطر لي فجأة أنّهما كانا يوجّهان حديثهما لي، وأنّي كنتُ المعنيّ بخطابهما، أنّ ما قالاه لا يهمّ فعلاً منذ أن تلخّص الأمر في الشّيء نفسه: المشروع، الجهات الرّاعية، اليونسكو، عمل الدّول المتشاركة. ولم يكن ذلك لإثارة إعجابي كزائر من أوروبا، بل تعبيراً على التزامهما بالمشاكل العاجلة والملحّة للعالم الذي يعيشان فيه، نعيش فيه. ما أدراني.

مستديراً نحوي، قال عمر: «نعم، نحن نبذل جميعنا قصارى جهدنا، ولهذا، أنا سعيدٌ جدّاً كونك تمكّنت اليوم من المجيء، أخي. هنالك الكثير ليُنجز، ونحتاج من أشخاص مثلك أن يعودوا وينجزوه معنا. سوف أبذل قصارى جهدي لإقناعك بذلك. غادرتُ كلّ كفاءاتنا للعمل في بلدان أخرى، تاركيننا نحن الحمقى وحدنا هنا. نحتاجهم أن يعودوا لمساعدتنا في إعادة بناء الوطن، واللّه بؤانا. هنالك وظيفة في هذه الوزارة بالذّات، وبإمكانك الحصول عليها غداً إن أردتُ.

آمل أنك ستحمّس بما يكفي لترغب في العودة والانضمام إلينا حين أحدثك عنها.

بالطبع شعرتُ بالإطراء - إنهم يحتاجونني هنا - غير أن ذلك لم يكن ولو لثانية واحدة اقتراحًا يؤخذ على محمل الجد. حياتي كانت في مكان آخر؛ بشكل أساسي، إيما كانت في مكان آخر، ولم يكن بإمكانني حتى في أشدّ خيالي جنونًا أن أتصوّرها توافق على التخلي عن وظيفتها كأستاذة جامعية ورفاهية بلايتي لتأتي وتفتح المراحيض المسدودة على زورق نجاة يطفو على أطراف المحيط الهندي، برفقة قبطان وطاقم لا يمكنهم أن يبدوا للعين البسيطة إلّا سقّاحين من أكلة لحوم البشر. ومع ذلك، سألتُ ما كانت الوظيفة، ورأيتُ ابتسامة صغيرة ساخرة تمرّ على وجه أكبر. كنت بحاجة لابتسامة مثل هذه قبل بضع دقائق، عندما كانا يتحدثان بجديّة عن حامل المظلات على شكل قدم الفيل، والتاريخ الذي كان من المقرر ترميمه برعاية وتمويل دوليين.

«نحن نحضّر مشروع ترجمة»، أجاب عمر مالك منحنياً نحو الأمام واضعاً مرفقيه على المكتب، وقد تحوّل الرجل الديناميكيّ صاحب الأفكار العملية إلى ربّ عمل يخفي في جعبته وظيفة. واكتسب عندئذ صوته الذي كان في سماته صفاءً عبقرى نبرةً جشّاء، حدةً سرية ومؤتمنة. «وقد تقدّمنا بطلب لدى مؤسسة ثقافية اسكندنافية، ونتوقع موافقتهم في أيّ وقتٍ الآن. لقد ساعدونا فيما مضى، وهم عادة كرماءٌ جدًّا. سيمولّون المشروع برمّته: من طاقم ومعدّات ونشر وتسويق. من المحتمل أيضًا أن تُنظّم رحلة أو رحلتان إلى كوبنهاغن من أجل تنسيق التفاصيل. أودّ منك أن تكون جزءًا من هذا المشروع».

نظر عمر مالك إلى أكبر نظرة سريعة وابتسم له ابتسامة مشرقة، مستمتعاً ومبتهجاً بشرف محسوبيته. هذا، تخيلته يقول لأ أكبر، هذا ما يعنيه أن تكون السكرتير الدائم في وزارة. أن تكون قادراً على منح مثل هذه الجوائز الفاتنة لمن يستحقها ممن وقع عليهم اختيارك.

«لكن التمويل لم يصل بعد»، قال أكبر مخاطباً إياي، محذراً، كي لا أقع في الحماس المبالغ ترقباً لاحتمالية زيارة أقوم بها إلى كوبنهاغن المشمسة. لعل تسمية الأمر بالتمويل جعله يبدو أقلّ شبهاً بالتسول والتبعية، أقلّ شبهاً بأخذ أموال الشعور بالذنب من أسيادنا لتبيديها على التفاهات والاستعراضات والأبهة المثيرة للشفقة. التمويل. تجاوزت كلمات كهذه التفاق، وأصبحت مثل لغة لاهوتية مَهِيّة تملؤها المعاني الضمنية، لكنها لم تكن بما يكفي من الدقة لتقاوم الاشتقاق المستمر للمعنى.

«ماذا سترجم المشروع؟» سألت. «مع افتراض أن تدعمه المؤسسة الثقافية الإسكندنافية بالتمويل». أردتُ تجربة النطق بالكلمة بصوت عالٍ، لأرى ما إذا كان نطقها يُهدّي من روعي.

قال عمر مالك بجديّة: «سيفعلون، فقد سبق لنا التعامل معهم. أنا متأكد من أنهم سيكونون متفهمين، أخي. لا تخش شيئاً من هذه الناحية. الاسكندنافيون والهولنديون من بين أكثر جهاتنا المانحة موثوقية وضمناً. في الواقع، قدّمنا العرض نفسه لمؤسسة يابانية؛ ونحن نحاول إدخالهم في الصورة أيضاً، غير أنّ هذا يبقى مجرد تطوّر حديث وليست لدينا أيّ نتائج إلى غاية الآن. حسب فهمي، اليابانيون كرماء للغاية ما إن يقتنعوا. لكن كما قلت، هذا مشروعٌ جديد بالنسبة لنا، على الأقل على الصعيد الثقافي».

«حسنًا...»، شرعت بالقول، راغبًا في إعادته إلى موضوع هذا المشروع، إلا أنه قاطعني بابتسامة مشرقة لذلك الذي يعرف جيدًا ماذا يفعل.

أجابني قائلاً: «أعرفُ ما الذي ستقوله»، بابتسامة عريضة اتسعت لتشمل أكبر ثم الغرفة بأكملها بإضاءتها الخافتة والنسيم المنعش القادم إليها من البحر. «لقد كافحت طوال كل هذه السنوات لتحقيق لنفسك حياةً ناجحة، وصارت لديك الآن مكانة جيدة، مع كل وسائل الرفاهية والراحة التي تريد. لا تعتقدُ أنني لا أعرفُ كم كان صعبًا عليك تحقيق كل هذا. يعتقد البعض أن العيش في تلك البلدان يعني مجرد الذهاب إلى البنك مرة في الشهر لتقاضي راتبك، فيما يمكنك أن تكفي باقي الوقت بمدّ رجلِك أمام التلفاز دون أن تفعل شيئًا. اسمع، أعلم أن الأمر خلافُ هذا، وأن الوصول إلى ما وصلت إليه استلزم عملاً جاداً وتفانيًا. والآن بعد أن تحصّلتَ عليه، ما الذي يدفعك للتخلي عن كل شيء والعودة إلى هنا لتبدأ الكفاح من الصفر؟»

عادت تعبيرات وجهه للجديّة، رجل متفهم وصاحب خبرة. وددتُ لو أخبرته أنه كان يبالغ في تقدير نجاحي، لكنني وجدتُ أن من الأفضل لي أن أخاطب بصفتي قاهرًا للظروف على أن أخاطب باعتباري نكرة لا قيمة له.

«حسنًا، سأخبرك لماذا سيكون الأحرى لك أن تعود»، تابع الرجل الذي لا يكلّ. شعرتُ بأكبر يتحرّك بجانبي. أردتُ أن أقول لعمر مالك: أنت تبدو قويًا، وعليك آثار النعمة. لديك شاربٌ أنيق ومثير للإعجاب، ووجه سمحٌ لطيفٌ قد يستجيب لمعظم أوامرك. ما أودّ قوله هو إنك تبدو وكأنك تتأقلم بعقلانية مع الموقف الصعب والمهين

الذي وجدت نفسك فيه. هذه الغرفة المسروقة التي نجلس فيها، والتي تقضي فيها أيامك، لطيفة، بل جميلة؛ ولا يمكن لأحد أن يمنعك من قول ما تريد، ولا من أن تحيك أيّ تخيلٍ يستهويك، أو من اللعب بأيّ معنى ودلالات يمكن لكلماتك أن تحمل. فلماذا عليك إذن أن تتحدث معي كما لو أنّ هناك هدفًا مما قد ننجزه، ممّا تتظاهر بأنك تطلبه مني؟ ألا يمكنك ببساطة القول: أليست هذه الغرفة التي حصلت عليها لنفسي جميلة؟ ألم أنجح؟ أليس هذا يومًا جميلًا؟

لم يكن قادرًا على قول ذلك. «لأننا نحتاجك هنا. واعدني على قولي هذا، لكنهم لا يحتاجون إليك هناك. فلديهم ما يكفي من شعبهم للقيام بكلّ ما هو ضروري، وسيقولون إنّ عاجلاً أم آجلاً إنهم لم يعودوا بحاجة إليك. عندها، ستجد نفسك في أرض غريبة لا يستطيع ناسها مقاومة السخرية من بني جلدتنا. إنّ عدت، فستكون وسط ناسك وشعبك، الذين هم من دينك ويتحدثون لغتك. سيكون لما تفعله معنى ومكانة في العالم الذي تعرفه. ستكون مع عائلتك. وستكون ذا شأن، وسيكون لما ستفعله شأن. كما سيعود كلّ ما تعلّمته هناك بالمنفعة علينا هنا. وسيُحدث فرقًا هنا، بدلاً من أن تبقى -ومن جديد، سامحني على قول هذا- مشاركةً مجهولة أخرى في إحياء الرّقاء والراحة التافهين لمجتمعٍ لا يكثرث أصلاً لأمرك ولا يلقي لك بالاً.

ما كنتُ سأصوغ الأمرَ بشكلٍ أفضل ولو حاولت، غير أنّه ما كان قادرًا على معرفة التفاصيل الدقيقة والتعقيدات التي لغمت حالتني. بالطبع كانوا بحاجة لي هناك؛ فقد ساعدهم ذلك على معرفة من يكونون. نظر عمر مالك إلى أكبر سرعةٍ ذاك الذي فهم مغزى نظرتة وقال، إنّها الحقيقة. وها هما ينطلقان من جديد بحثًا عن الحقيقة.

وافقَ عمر مالك على ملموسية مساهمة أكبر المقتضبة، ذلك أنه أوماً بالإيجاب بحزم، مرةً واحدة، ثم تراجع إلى الخلف واتكأ على كرسيه الواسع، ثم أوماً من جديد.

بعدها قال وقد ارتاح أكثر، وازداد رضاه لاقترابه الوشيك من تقديم الحقيقة: «قد أضيفُ حتى إن هذا التَّقرُّب الذي أخطوه نحوك تمَّ بناءً على طلب من أعلى السُّلطات في البلد. لقد ذكرتُ لرئيس الوزراء قبل يومين أنني سمعتُ - وأوماً نحو أكبر - أنك عدتَ في زيارة. وقد تذكركَ عندما كنتما تلميذَين في المدرسة نفسها. كان يتقدَّمك حينها بعدة سنوات، لكنَّه تذكَّر سمعتك كطالب لامع. كلَّنا ننذكركَ، في الحقيقة، كلَّنا نفعل. قال لي، افعل ما في مقدورك لإقناعه بالعودة وإعادة بناء الوطن ليصبح شيئاً ممَّا كان عليه، ولدفعه قدماً نحو الازدهار. لن يكون هذا المشروع سوى البداية. نحن نتوقَّع منك أن تنتقل إلى أشياء أكبر بعد مدَّة، وليس هذا بالكلام الفارغ».

ظلَّ عمر مالك ساكناً للحظة، نظره نحو الأسفل، متأملاً ما فعل للتو، مقيماً بلا شك في ذهنه ما إذا كان ذلك كافياً لإقناعي. نعم، بالطبع شعرت بالإطراء. والتألُّق شيءٌ يمكن أن يستحسنه أيُّ كان. ويتفوق ذلك على الوقوف وسط مستنقع موحلٍ بارد لأكل الدَّيدان في كلِّ الأحوال. من أحلامي في أولى أيَّام الاكتئاب البارد التي قضيتُ في إنجلترا أنني سأعود في يوم ما لأترأس بلدي المدمر. في البدء، كنت سأقاوم النداءات التي لا تنتهي لأعود وأتولَّى مسؤولية الأمور، إلَّا أنَّ حسَّ الواجب كان سيتغلَّب في الأخير على إحجامي المبرَّر وكنتُ سأوافق. الرئيس-المنتخب، هكذا كنتُ أسمي نفسي أحياناً في أحلام يقظتي وأنا شاب، قبل أن تصبح أحلام اليقظة شديدة السَّخف

أمام تأزّم الحياة الحقيقي وتدهورها. لكنّي كنتُ أيضًا في حيرة من أمري. ما الذي اعتقدوا أنّ بإمكانني تحقيقه؟ لا بدّ وأنّ في الأمر خطأ ما. لستُ سوى مدرّس بحق الرّب. ولم أحقّق ذاتي. أعلم أنّي أوّدّي هذه المهمّة الشائكة في أرض العمالقة والسحرة، وعلى مدار 24 ساعة في القنوات الإباحية عبر الكابل، وفي هذه المدينة المسمّاة «أمّ البرلمانات» وهي أكثر المدن روعةً عرفها الوجود منذ نينوى، وفي قلب الإمبراطورية الأوروبية المقدّسة؛ لكن لا شيء من كلّ يخوّلني لأستحقّ توقّعات كتلك. وعلى كلّ، فقد أمضيتُ جلّ وقتي هناك في الحافلات، أو في انتظار الحافلات، أو في مبنى مدرسة كريبه الرائحة، أو في القلق مضطجعًا في السرير مع امرأة بدأتُ أشكّ مؤخرًا في أنّها تحتقروني. لماذا تحمّل كلّ هذا العناء لإقناع شخص غارق في الرّداءة مثل شخصي بالعودة إلى هذه الدّرجة المتقدّمة من القذارة والتي كانت من الواضح تتجاوز قدرتي وقدرتهم على فعل أيّ شيء حيالها؟ هل كانت مجرد حاجة لا تقاوم للتفوق الأخلاقي؟ تخلّ عن راحتك الخائنة وتعال لتعاني مثلنا؟ ربّما سيدركون خطأهم لو أخبرتهم عن قلبي المعتل.

إيما. كم اشتقتُ لها.

«أرجوك أن تشكر رئيس الوزراء أصالةً عن نفسي»، قلت وكتمتُ ضحكةً على استحالة احتمالية حدوث كلّ هذا. «تشرّفني دعوته. لطفٌ منه أن يعتقد أنّي أستحقّ الإقناع».

«الأمر ليس نكتة»، قال أكبر، مصدومًا من استخفايي. بلا، هو كذلك، أردتُ أن أقول. إنّها نكتة سمجة. ثمّ، أوليست هذه الغرفة المسروقة جميلة؟ أتوقّع أن يكون مكتب رئيس الوزراء أجمل.

«يمكنك أن تشكره بنفسك»، قال عمر مالك مبتسماً للتخفيف من قلق أكبر. «يودّ منك الاتصال بمكتبه وتحديد موعد يمكنك زيارته فيه. في الواقع، يمكنك الاتصال بسكرتيرته في الحين».

مدّ يده لهاتفه العاجي الذي ظلّ صامتا طوال وجودنا هناك، لكنني هزّزت رأسي رافضاً بقوة. توقّف في منتصف الطريق ونظر إليّ بثبات لبضع ثوان. اختفى السيد اللطيف الودود فجأة. وأمكنني الشعور بغضبه؛ ثمّ لثانية من البهجة أو اثنتين اعتقدت أنّه سيهدّدني، أو أنّه سيبدأ في إلقاء درس بائس عن حسن الواجب مؤنّباً إياي. كان من الممتع رؤية كلّ ذلك الغشاء المخاطي يتقشّر ليكشف عن المتمرّ السّاخر الذي اعتقدت أنّه يختبئ تحته.

«ما الذي سترجمه المشروع؟» سألت. «فأنت لم تخبرني بعد بالتفاصيل».

«أمّهات الكتب في العالم»، أجاب. وأعتقد أنّه أجاب ببعض الارتياح والثقة لا بعجرفة التملك، وبصوت نيّته التواضع. «نريد أن نجعل الأفكار العميقة التي تحتويها متاحة لعامة الناس. بالطبع، سيحدّد المشروع أولوياته الخاصة، لكنني اعتقدت أنّ من الأولى عليه البدء بشكسبير، ماركس، تولستوي وهمغواي. كما قد تعلم ربّما، رئيس جمهوريتنا الفيدرالية يحبّ همغواي كثيراً، وقد ترجم شخصياً لشكسبير. أمّا ماركس فنحتاجه حتّى يتمكن الناس من فهم أفضل للاشتراكية الديمقراطية التي تُعدّ الرّوح الحاكمة لدولتنا، وتولستوي لتعاطفه مع الفلاحين والعوام».

عليّ القول عند هذه النقطة أنّه لا علاقة لرئيس جمهوريتنا الفيدرالية بالمتوحّش أكل لحوم البشر ذاك الذي أخرج قضيبه لجمعية الشيوخ

بيض اللّحي الموقّرين في قصر كييوني، ولا بشاغل الوظيفة الأكثر اعتدالاً إلى حدّ ما والذي حلّ (بعد الحملة الإذاعية الفاشلة) محلّ الرّجل الذي حلّ محلّ الوحش المؤسّس. أُجبر الجزء الجزري من جمهوريتنا على الزّواج من دولة الجوار الكبيرة بعد الانتفاضة، غير أنّنا احتفظنا بريّسنا، ومجلسنا الثّوري من أجل خلاص الأّمة الخاصّ بنا، وسجوننا الخاصّة، وأرمادة من المواقع السيّاحية التي يمكن فيها لسلطاننا المريضة نفسياً أن تلعب فيها ألعابها الدنيئة القذرة. تشاركنا العَلَم نفسه رغم ذلك - وإنّ كان علماً آخرًا - واستخدمنا العملة نفسها، مع صورة الرّجل ذاته المطبوعة على الأوراق النّقديّة. وكان ذلك الرّجلُ رئيس الجمهورية الفيدرالية الذي تولّى رئاسة الدّولة المنهارة لعقود، في الوقت الذي هدّأت فيه خطاباتُه الموزونة بعناية عن الأّمة الأفريقية الضّمائر الليبرالية في أوروبا وأمريكا الشّمالية (وكذا مؤسّسة أو مؤسّستين متقدّمتين ضمن البلدان المتخلّفة). في أولى سنوات حكمه، وقبل أن يصبح فعلاً ذلك العنصر الذي صار يستحيل الاستغناء عنه لاستقرار العالم، ترجم مسرحيتين لشكسبير. في ستي الأخيرة في المدرسة (وكان قد تولّى الحكم بالفعل آنئذ)، طُلب منّا تقديم عرضٍ مسرحيّ لترجمته ليوليوس قيصر، والتي خرّبها الجميع ابتداءً من طاقم المسرح وصولاً إلى ممثلي الأدوار الرئيسيّة. حتّى الجمهور لعب دوره في التّخريب، حيث صاح استهجاناً لنا، وحطّم مصاريح القاعة من سخطه على عدم كفاءتنا. كان هذا الرّيس الذي قصده عمر مالك، رغم أنّي لم أكن أعرف عن شغفه بهمنغواي.

«يبدو أنّ جميع هذه الأفكار العظيمة تأتي من أوروبا وتفرّعاتها. هل تنوون ترجمة أفكار رائعة قادمة من أيّ مكان آخر؟» سألت.

ابتسم عمر مالك. «أفهم ما تعنيه، لكن علينا أن نكون معاصرين». قال الكلمة باللغة الإنجليزية. أو ماتُ موافقًا لإياه الرأي بخنوع وانتظرت، وأنا أفكر في كلمة معاصرين. لعلها كانت أيضًا كلمة لاهوتية طقوسية مثل كلمتي الراعي والتمويل، تفهمها المؤسسات الثقافية الإسكندنافية تمام الفهم.

غادرنا مكتب عمر مالك الجميل وقد وعدتُ بالنظر في عرضه (واقترحتُ أن الأفضل سيكون تركه حتى وصول التمويل)، واعدًا بأن أتصل بمكتبه حين أحوز على ما يكفي من الوقت، واعدًا بالاتصال بسكرتير رئيس الوزراء لتحديد موعد، وعلى العموم واعدًا بأن أبقى على اتصال، وبأن أهتم بشعبنا وازدهاره في المستقبل. وقد كان هذا في الأخير ما همَّ فوق كل اعتبار.

«لا يتعدى كل ما قاله هذا الرجل كونه مجرد كلمات»، قال أكبر بعد أن انتقل من المكتب إلى حرّ الشوارع.

اعتقدتُ أنك أحببت كلماته. «إنها الحقيقة»، قلّدتُه مكرّرًا.

«إنها بالفعل الحقيقة. كل ما في الأمر أنه مضبغة للطاقة مع هذه المجموعة التي تحكمنا. على أيّ، كان عليّ قول شيء ما. كنت عابسًا أمام ما كان يقول بشدة لدرجة أنني اعتقدتُك ستُقدم على فعلٍ سخيف. ولا تنس الاتصال بمكتب رئيس الوزراء».

«نعم، يمكنه أن يكون مفيدًا»، قلت.

حكى أكبر وأعاد قصتنا ذاك الصّباح. أو ما زوج أمي بلا مبالاة ولفّ لنفسه سيجارة أخرى. ثم قال: «هذا ما آلت إليه الحكومة الآن، تستجدي الصّدقات. فليرحمنا الله برحمته». بدت والدتي مهمّة

في البدء، لكنها خافت بعدها من أن يظهر أن إعادتي كانت مجرد خدعة حتى يتمكنوا من حبسي. لماذا سيودّون حبسي؟ سألتها. أنت لا تعرف هؤلاء الأشخاص، أجابت. لقد جنّ جنونهم في الأذى. انظر كم هي جافة وجوههم. لقد أفرغ الله قلوبهم من الرحمة، أستغفر الله. أثناء نزهتنا الاعتيادية بعد الظهر لاحقاً في ذلك اليوم، أمتع أكبر مسمع كل شخص توقفنا لتحيته بقصة مهزلة الصباح، وسخر الجميع من الفكرة، ناصحين ألا أضيع مواهبي وفرصتي. بحق الله، قالوا، لا يوجد شيء هنا.

في وقت لاحق من ذلك المساء، بعد أن أطفئ التلفاز وأجبر الأطفال على الخلود إلى النوم، عاد الحديث مرة أخرى إلى عرض العمل. حينها، تعامل معه أكبر على أنه مزحة لا تنضب، في حين بدأت أعتقد أنها صارت مملّة.

«ابق هنا معنا، يا أخي. يمكننا عندئذ تزويجك بسهولة».

بدت أمي مستاءة. فتلّك لم تكن الطريقة التي أرادت بها فتح الموضوع. عندما أُلقيت نظرة سريعة حول الغرفة - إلى والدتي، وأكبر، وزوجته رقية - عرفت أنني كنت على وشك الوقوع في كمين. بدا الأمر مدبراً. أخبروني أنهم لا يريدون التدخل في حياتي، والتّطّقل على شؤوني. يتوقّف الأمر في كونه قلقاً بشأن سعادتي، ومن بإمكانه أن يكون سعيداً دون عائلة؟ مع مرور الأيام، بدأت أظن أن الموضوع لن يُطرح، أنهم قرّروا بعد رؤيتي بعد مرور كلّ هذا الوقت أن الأفضل كتم الموضوع وعدم إثارته. كما كنت قد قرّرت على أيّ حال - إذا ما طُرح - أن أتعامل مع الأمر برمته باستخفاف، أن أحوله إلى مزحة عائلية وأوجد لنفسي مهرباً. لذلك، وبعد المفاجأة الأولى لهجومهم

المباغت، رسمتُ على وجهي ابتسامة تسلية واثكأت لأستمع، غير محتجّ كثيرًا، معتمدًا على لا مبالاتي وافتقاري للحماس لأوضح لهم بشكلٍ لا يقبل الشك ألا جدوى من جهودهم.

من بينهم جميعًا، كانت والدتي الأكثر جدية وعزمًا على الإقناع. كان المشروع مهمًا لها بمكان. ساهمت رقية بكلمات الدعم الواجبة (في تلك المراحل المبكرة)، ملؤها ابتسامات مشجعة. فيما كان أكبر يتسلّى، وهو يبدو تارةً ساخرًا وتارةً أخرى ساخطًا، مستهترًا بوضعي السخيف، لكنّه غير قادر في الوقت نفسه على مقاومة تمثيل دور الرجل صاحب الخبرة في الحياة، رجل الأسرة المسؤول الذي كان بصدد إعادة الأخ العريد إلى جادة الصواب. قال: «لا يمكنك الاستمرار في فعل تلك الأشياء القذرة التي تفعلها هناك إلى الأبد».

«أكبر، لا تكن مقرفًا»، حذّرت رقية وهي تنظر إلى والدتي.

وتابع دون أن ينتبه لزوجته: «قريبًا، ستكبر على الزواج، وتصنع من نفسك أضحوكة، وستجد نفسك تطارد الفتيات الصغيرات اللاتي سيحتقرنك ويستهنّن بك حين تدير لهنّ ظهرك».

عليّ القول أنّي كنت على وشك التخلّي عن ابتسامتي المتعالية عند تلك النقطة، حتّى أتمكّن من قول بضع كلمات تضع حدًا لوعظه المتعجرف. لكن لم يكن بمقدوري فعل ذلك دون التحدّث عن أشياء لم أكن أرغب في التحدّث عنها، كما لم أكن أرغب في اختلاق الأكاذيب. لذلك بقيتُ في لامبالاتي، أضحك بوضوح، كما لو أنّ وصف أكبر لطريقة عيشي لم يكن بعيدًا عن الواقع. بلا، كنتُ كذلك، متسكّع شوارع المدينة القذرة. ثمّ رأيتُ الفرع في عيني أمي وتمنّيت

لو أنني احتججت. رأى أكبر بدوره نظرة الاشمئزاز تلك وقهقهه ضاحكًا.
فقال: «إنها مجرد مزحة يا أمي».

قالت وهي تحدّق في مطوّلاً بنظرة صادقة: «قريبًا، ستكبر على الزواج، ولن تقبل بك أي فتاة. «أعتقد أنّ عائلتها قفزت لانتهاز الفرصة عند سماع هذا الاقتراح؟ لقد تغرّبت لفترة طويلة جدًّا، ولم يكونوا يدرون ما أصبحت عليه. لا يملك أحدٌ منا أدنى فكرة. وبعدها، قلقوا على فقدان ابنتهم، خائفين من أنّك ستأخذها إلى هناك وأنهم لن يروها مجددًا. لكنهم كانوا قلقين أيضًا بخصوص سنّك».

«أنا لا ألومهم»، قلت، وأنا أكابد للحفاظ على الابتسامة الطّفيفة على وجهي. إيمان. «إنها مخاوف معقولة. لمَ لا نترك إذن الأشياء عند هذه النقطة ونضع حدًّا لمخاوفهم؟»
أكدت أمي: «لقد تحدّثنا معهم».

«لقد أقمناهم»، قالت رقية محاولة أن تكون أكثر دقّة، دون ابتسام هذه المرأة. «عليك أن تتركها تكمل دراستها».

سألته قائلاً: «بالله كم عمرها؟».

تلخّصت الصّفقة في تلك الشّروط، في أنّها إن قبلت الزّواج مني بعد مقابلتنا، عليّ أن أرافقها طيلة دراستها للطّب حتّى تتحصّل على شهادتها. كانت قد أتمّت بالفعل سنّة في كلية الطّب بالجامعة على الصّفّة الرئيسيّة الأخرى، لذلك حظيت بجميع مؤهّلات القبول. (يمكنك تخيّل ما سيقوله المتعجرفون فائقو التّحصيل الذين يديرون كليات الطّب البريطانيّة عن مؤهّلات القبول تلك). بالمناسبة، كانت

في العشرين من عمرها. تذكرت إيماء وهي تسخر مني قائلة إنني لو بقيت في بلدي لكنت في سنتي هذه قد أخرجت طفلة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا من المدرسة لأجعل منها زوجتي الثالثة. تألمت لذكرى إيماء والتفكير فيها.

قال أكبر: «أخبرناهم أيضًا عن نجاحك الباهر الذي حققته في إنجلترا». منذرًا بضحكته العالية أنه على وشك السخرية مني. «عن مراسلتك للصحف والجرائد، وتنقلك في أرجاء لندن على متن عربة تجرها الخيول، وشربك الشاي برفقة الملكة».

قلت متجاهلاً أكبر ومخاطباً والدتي: «تمنيت لو أنكم لم تقدموا على هذا، لست بحاجة لزوجة. ولو كان الأمر كذلك، لوجدت واحدة بنفسى. وأنا بالفعل كبير جدًا. الأحرى بعائلتها أن تجد لها رجلاً شاباً، شخصاً في مثل سنّها».

«إنها ترغب في إكمال دراستها»، قالت رقية. وقد خيل لي سماع نوتة استنكار في نبرة صوتها. هل كان ذلك على جحودي لجميل ما بذلوا من جهد؟ «لقد رفضت بالفعل عرضي زواج من قبل شابين، لأنه لن يصبح بإمكانها متابعة دراستها لو تزوجت أيًا منهما. ما تريده هو أن تدرس لتصبح طبيبة في إنجلترا».

كان اسمها صفية. وكان من المقرر أن تأتي هي ووالدتها للزيارة عشية اليوم التالي. (فكرت في تحديد مواعيدي مع رئيس الوزراء في الوقت نفسه، قلت، لكنهم تجاهلوا ما قلت). كانتا ستأتيان في زيارة مجاملة ترحيباً بعودتي، لكن كان عليّ أن أستعد لمعاينة من الطرفين. وبعدها سنرى.

«ما رأيه في كلّ هذا؟ بآ؟» سألت. شعرتُ بالإحراج لمناداته بهذا الاسم وتفاديت أن تقع عينيّ في عينيّ أيّ كان، لكنّ اللَّحظة مرّت وشعرتُ بعدها بالفضيلة والتّضحية بالنّفس لقيامي بذلك.

قال أكبر: «يعتقد أنّ الأمر مضحكٌ للغاية، غير أنّ ضحكك هذا سيتحوّل إلى سخط عندما سيُضطرّ لتحمل نفقات الرّفاف».

قالت والدتي بابتسامة: «إنّه يعتقد أنّ الوقت حان». كان بإمكانني أن أرى أنّها كانت مسرورة بالطريقة التي جرت بها الأمور، ولأنّي لم أكن عنيداً للغاية.

لاحقاً، تساءلت عمّا منعني من أن أكون صعب المراس أكثر وأشدّ عناداً، وأكثر إصراراً على رفض مناقشة حتّى احتمالية أمر مماثل. لعلّي شعرتُ بالفضول لمعرفة شكلها، ما إذا كانت ستُنظر إليّ قبل أن تنفجر في ضحك مستهزئ، أو كانت ستكتّم ضحكات محرّجة، أم أنّها كانت ستبتسم لحظّها السّعيد. لكن السّبب الحقيقي لعدم عنادي كان تأكّدي من ألاّ رغبة لي في الانخراط بالأمر جملةً وتفصيلاً، وثقتي في أنّي سأجدُ طريقةً لإيصال الفكرة لوالدتي بشكلٍ لا لبس فيه، عندما يحين الوقت المناسب. كنت سأخبرها عن قلبي الممتلئ، وإن لم يكن ذلك كافياً، كنت سأختلق مرضاً سيجعلني عقيماً. سيفي ذلك بالغرض. وبينما كنت مستلقياً على السرير تلك الليلة، عبثت بذهني فكرة الزّواج بفتاة شابة، ووجدتها مرعبة. سأخذلها في شتّى النّواحي. وإذا استلزم الأمر، سيصبح من الضّروري إخبارهم عن إيما. إيما. لم أتمكّن من الاتّصال بها منذ وصولي لعدم وجود هاتف في المنزل، رغم أنّه كان باستطاعتي العثور على هاتف في أيّ مكان، أعتقد، إذا طرأ أيّ أمر

عاجل. كما لم أرسل لها حتى بطاقةً بريديةً بسبب تشّتي من كلّ ما كان يحدث من حولي، لكن أيضاً لأنّي كنت متشوّقاً جداً للرّجوع إليها، وما أمكنتني أن أتخيّل أنّ بطاقةً ستصل إلى هناك أسرع منّي. لكن كلّما فكّرت فيها، امتلأ جسدي قلقاً. هل أهملنا بعضنا لفترة طويلة جداً؟ هل ستشعر بالارتياح لغيابي؟

جاءت صفيّة ووالدتها بعد العصر، وهو الوقت المعتاد الذي تزور فيه النّسوة بعضهنّ مجاملةً: بحلول ذلك الوقت، يكتنّ قد أنهين أشغالهنّ اليومية (على الرّغم من أنّ تسخين العشاء مازال في انتظارهن)، ويكون رجال الدّار قد أنهوا قيلولتهم وخرجوا للتّنزه أو الجلوس في المقاهي؛ وخرج الأطفال للّعب في الشّوارع، لذلك يمكن للنّساء أن يسترحن بدورهنّ قليلاً لبضع ساعات. كان أكبر قد خرج في نزهته المعتادة، فذهبت للجلوس مع زوج أمّي حتّى وقت استدعائي لتحيّة الضّيفتين. عادةً، يمضي زوج أمّي فترة العصر في المتجر أيضاً، لكنّه وكتنازل منه للطّبيعة الباعثة على الاسترخاء لتلك الفترة، راح يجلس على مقعد بالخارج بدلاً من البقاء خلف مكتبه. كان مريضاً جداً، وأكبر من أن يتنّزه أو يجلس في المقهى، لكن توقّف بعض من زوّاره الصّباحيين عنده ليتابعوا خيوط المحادثات حيث تركوها في وقت أبكر. عندما كان بائع القهوة في الجهة المقابلة من الشّارع يرى وافداً جديداً، يقبل ويسكب له فنجاناً، وفي معظم الأحيان، يعيد ملء فنجان زوج أمّي. سوى فاتورته مع زوج أمّي بطريقة غامضة لم أشهدها مطلقاً. فقد استهلكوا كمّيات هائلة منها؛ وعندما لم يكن بائع القهوة في الجوار، كان هنالك دائماً التّرمس الضّخم الذي يرسل به إلى زوج أمّي عند الطّلب.

عندما جاءتني رقية، ابتسم زوج أمي غير أنه لم يقل شيئاً. احتفظت الزائرتان بالبويوي على رأسيهما، وجلستا جنباً إلى جنب على الأريكة. نهضت الأم ببطء حين دخلت وأنا أمشي الهوينى بثقة. مدت لي يدها وانحنيت نحوها كما لو كنتُ سأقبلها ثم أفلتتها. كان بإمكانها أن تكون أم أيّ كان، مربوعة القدّ، بصفات وقورة؛ ابتسمت بسرور. التفتُ إلى صفية التي أعطتني يدها دون أن تنهض. وفيما كنا نتصافح، نظرتُ إلى أعلى قبل أن تشيح من جديد بنظرها. جلستُ على الكرسيّ قبالة والدتي واستمعت لمجاملات محادثتهنّ وكأنّها كانت أكثر المقترحات تعقيداً. بعد لحظات قليلة، تولّت والدّة صفية زمام المحادثة، وشعرتُ بتوتر أقلّ عندما استمعتُ إلى المرأتين تتحدّثان عن أشياء سمعتها آلاف المرّات من قبل.

لم تبد في العشرين، بالأحرى في السّابع عشرة من عمرها. كان وجهها نحيفاً وساكن الملامح، كُتِم فيه كلّ شيء وأُبقي بعيداً عن الأنظار. عندما ابتسمت في الأخير، فعلتُ ذلك ببطء شديد، وكأنّها تتحكّم في نفسها. دخلت رقية إلى الغرفة تحمل صينية من الحلويات وبعض الشاي، ونظرت الاثنتان لبعضهما وابتسمتا. غير وجود رقية وتيرة المحادثة التي وضعتها المرأتان الأكبر سنّاً، وسرعان ما صرن يتحدّثن ويبتسمن فيما بينهما وكأنّهن نسين أمر وجودي بالكامل. صوتُ صفية بدوره كان منخفضاً ومدرّساً، كما لو كانت تزن ما تقول. ثمّ صارت عيناها تتحرّكان، وتضيئان إذا ما قيل شيء مسلّ قبل أن تتسلّل إليهما الجدّية والسّكون مع تقدّم المحادثة. شعرتُ بالسّخف لجلوسي بينهن في مهمّة مثل تلك التي دُعيت لتأديتها.

أدخلتني والدتي إلى المحادثة حين أعلنت أنّي كنت أدرّس في لندن. مَنْ كان باستطاعته ألاّ ينبهر بذلك؟ حتّى أنّه دفع صفية

للتكلم. ما الذي تُدرّسه؟ سألت. الإنجليزية، أجبته، ورأيتهما يتسم بتعاطف.

«ما تعنيه أنّ غريبًا يَعْلَم الإنجليزية للإنجليز»، قالت والدتها، وهي مزحة ظنّ كلّ من ألقاها أنّها أصلية. «ألا يمكنهم التّحدث بلغتهم؟»
«أين تدرّس؟» سألت صفيّة.

«في واندسوورث. هل تعرفين لندن؟»

أومأت بالتّقي، وابتسمت محرّجَةً، كما لو كنت قد أمسكتها وهي تحاول إظهار أنّها كانت مطلّعةً على خبايا العاصمة العظمى، على ما أعتقد. «لا، لا أعرفها»، أجابته. «هل تدرّس في جامعة؟»

فقلت لها: «بل في مدرسة». تمّنت لو كان بإمكانني القول إنّي كنت أدرّس طبّ الأعصاب في جامعة لندن، وإنّي في أوقات فراغي كنتُ أَسْتَقْبِل المرضى في مشفى جايز، وإنّي كنتُ أحيانًا أظهر على شاشة التّلفاز عندما تستحوذ إحدى الحالات التي كنت بصدد علاجها على مخيّلته الجمهور. لكنّني تفاديتُ حينئذ الحصولَ على الابتسامة المربّكة المخيّبة التي أعطتني إياها. كان من المفترض أن تكون تلك اللّحظة التي أقول فيها شيئًا عن نوع المدرسة التي درّستُ فيها، والبرابرة الذين كانوا تلامذتي بها. ثمّ لعلّه كان بإمكانني بعد انتهائي من هذا الوصف أن أضيف أنّ العمل كان مرهقًا لدرجة أنّي عانيت من ذبحة قلبية (لا قدّر الله). من المؤكّد أنّ هذا سيقضي على كلّ حديثٍ عن الزّواج. لكنّي لم أستطع. منعني الكبرياء عن ذلك، على ما أعتقد. ناهيك عن أنّي وجدّتي قد بدأت بالتّأكيد أستمع بفكرة جعل هذه الشّابة تستلطفني -بطريقة افتراضية بالطبع، لأنّي كنتُ

مضطراً للاعتراف بأن الأمر كان مستحيلاً في النهاية. وقد ساعد في ذلك أن لقاءنا هيناً بهذه الطريقة، وأفسح لنا المجال كي نستلطف بعضنا. وجعل الأمر أقل صعوبة في منحى معين، وأكثر تجريدية.

«المدارس في لندن أفضل بكثير من جامعاتنا»، قالت رقية، وهي تهبّ لنجدتي بإخلاص. «وجامعاتها هي الأفضل في العالم». تخيلي ما يعنيه الحصول على شهادة في الطب من لندن! كان هذا ما لم تقله. ابتسمتُ لصفية لتأكيد مدى اطلاع رقية وفطنتها. لدهشتي، ضحكت بسعادة. انتشرت الابتسامات في الغرفة وتبادلن النظرات. إيما، كم اشتقت إليها.

بعد مغادرتهما، قلت إنني بحاجة للمزيد من الوقت. «لماذا؟» سألت والدتي ساخطة. «ألم تعجبك؟»

«بدت محبوبة وجذابة، لكن...»، قلت، «... حسناً، أنا بالكاد أعرفها».

«تعرفها! ما الذي تريد معرفته عنها؟ بالكاد تحدثتُ مع والدك عندما تزوجته».

نعم، لكن انظري كيف انتهى بك الأمر، أردت أن أقول، لكنني لم أفعل. لرفع هذا الأمر برمته إلى مستوى مختلف تماماً من الجدية. على أيّ، أعتقد أن الفكرة نفسها خطرت ببالها، لأنها تراجعت، وصمتت. هزّ أكبر كتفيه، وبدت رقية محبطة. لماذا كلّ هذا الاهتمام من قبلها؟ لعلّ مشروع تزويج شخصين هو ما جذبها بكلّ بساطة. ولعلّ كلّ ما أرادته هو أن يكون الجميع سعداء كما كانت، أو كما بدت.

«ما الذي تقصده بالوقت؟» سألت. «كم من الوقت؟»

«لستُ أدري. ما يكفيني لأعرف ما سأفعل. وعلى أيّ حال، أتوقّع أنها سترسل غداً لتقول إنّها غير مهتمة».

قالت رقية بغضب لأول مرة: «هذه ليست مشكلتك».

طلب المزيد من الوقت كان خطأ منّي. إذ كان المفترض عليّ أن أقول إنّني لم أكن مهتمّاً بالزواج منها أو من أيّ فتاة أخرى. هلاًّ توقّفوا فضلاً عن البحث عن فتاة لي؟ لكن حتّى قبل أن تنهض صفية ووالدتها لتغادرا، بدأتُ أفكّر فيها كامرأة قد أنجذب إليها، وبعد مغادرتهما، لم أستطع التوقف عن ذلك. أحببتُ الثقة التي أبقت بها أجزاء منها بعيدة عن الأنظار، في منأى عن الأذى. في سلوكها، وجدت طريقة أوحّت بأنّ الخطر كان على مقربة. لم يكن ذلك أنّها بدت خائفة، بل كأنّها كانت مدركة لكونها في خطر وأرادت أن تتصرّف بهدوء في اللحظة التي سيميط فيها المهاجم اللثام عن وجهه. نعم، نوعٌ من العجز في مواجهة الظروف. من الثالث الذي يسير دائماً بجانبك؟⁽³⁴⁾ ربّما تمنيتُ هذا لها لأنّي كثيراً ما شعرتُ به شخصياً، لكن أن تجلس في تلك الغرفة بتلك الطريقة، وأن تُقاس حياتك لكلّ تلك الرداءة مثلي، لا بدّ وأنّه مشابه تماماً لمواجهة مباشرة مع السارق الذي كان يطارد حياتك. ومع ذلك، لم أستطع مقاومة اللّعب بتلك الفكرة عنها، رغم أنّ التفكير في شبابها كان مرعباً. كنتُ سأخذلها من شتى النواحي. ومع ذلك، استلقيتُ على سريري في تلك الليلة أتخيّل ما سيكون عليه عدم الشّعور بكلّ تلك الغربة كما في إنجلترا، والتمكّن أخيراً من العيش مع شخصٍ يمكنني التحدّث معه بشكلٍ عرضي عن الأشياء دون الحاجة إلى تقديم تفسيرات طويلة، كيف سيكون الحال

(34) إحدى أبيات قصيدة «أرض الياب»، من الفصل الخامس، ما قاله الرّعد.

إن لم أعش في إنجلترا على الإطلاق، بل هنا، وسط حشدٍ من الناس، بدلاً من الشعور بأنّي دائماً معزول عن كلّ شيء وتجريبه.

كنت فقط أتلاعب بالفكرة، لكن ما أن بدأت، وجدت نفسي أتخيّل المزيد: أين سأعيش إذا عدت، ماذا سأعمل - ربّما كان مشروع الترجمة يستحقّ التفكير بجديّة بعد كلّ شيء. سيكون ذلك لمدّة قصيرة، حتّى يتحدّث رئيس الوزراء مع أحدهم ويجعلني أترقى لأنجز مهمة أكثر تطلّباً. لأنّي إذا عدتُ فسيكون للقيام بشيء متطلّب، وإلاّ فما فائدة الرّجوع؟ وزوجتي ستكون طيبة شابّة مكرّسة لمهنتها كما هو حال جميع الأطباء، غير مهتمة بالأجر الضئيل الذي تتقاضاه، يكافئها امتنان ناسها وعاطفتهم.

في صباح اليوم التّالي، بدا زوج أمّي عندما ذهبت للجلوس معه مكتئباً، صامتاً. افترضتُ أنّه كان قد سمع عن مراوغتي فغضب منّي، لكنّي كنتُ مخطئاً. «هل سمعتَ ما يُقال؟ لقد اعتُقل رئيس الوزراء؛ وسيشرعون الآن في حبس الناس من جديد».

فسألت: «لماذا؟ ماذا عن موعدِي، فخامتكَ؟» أو أيّاً كانت طريقة مخاطبة رؤساء الوزراء. «ماذا فعل؟»

«لا شيء، على الأرجح. هم لا يفعلون هذه الأشياء لسبب وجيه. الأمر مجرد تسلية بالنسبة لهم. يحبسون الأشخاص أو يقتلونهم حسب هواهم. كان هذا الأخير قد بدأ يبدو عقلاً نياً».

وردت تقارير أخرى طوال الصّبيحة. وكان لدى كلّ واحد من زوّار زوج أمّي شيءٌ ليضيفه عند وصوله، وكذا شيئاً ليأخذه معه. لم تكن التّقارير تُسلّم فقط، بل تُفحص مع مصادرها مصداقيّتها أيضاً،

حديثي صحيحي أو سي صحيحي⁽³⁵⁾. كان تحمّس وإثارة زوّار زوج أمي، ومعظمهم شيوخ في مثل سنّه، في تناقض جذري مع هدوئه غير الطّبيعي. بعض القصص كانت جديرة بأن توقظ حيوان الرّطراط الشّبعان من نومه. قيل إنّ رئيس الوزراء كان يخطّط لانقلاب مع بعض من عناصر الجيش. (انقلاب على مَنْ؟ فقد كان رئيس الوزراء). أو أنّه كان يبيع أسرار الدّولة لأعدائنا. (أيّ أسرار؟ أيّ أعداء؟ من كان يهتمّ بدولتنا بما يكفي لدفع المال لمعرفة شيء عنها؟) أو أنّه تورّط في عصابة اختلاس، ووقع في فخّ أن يُقبض عليه بالجرم المشهود. أو بشكل دراميّ أكثر، إنّهُ أهان عن غير قصد رئيس جمهوريتنا الفيدرالية المعروف بعدم تسامحه المطلق مع الإهانات، المقصودة منها أو غيرها.

اختلفت الرّوايات في تلك القصص الشّيقة، وقد استمع إليها زوج أمي ونقلها بهدوء، بينما ازداد حماس زوّاره مع انقضاء الصّباح. لم أعلم إلّا لاحقاً أنّه كان يتناول المهدّئات التي وصفها لنفسه، لسبب ما، والتي كان يتحصّل عليها بطرقه القديمة. عندما عدتُ من صلاة الظهر ذهبتُ إلى غرفته حيث جلس متكئاً على الترانزستور، يستمع إلى الأخبار.

سألته وأنا أجلس على جانبه الآخر: «هل أعلنوا عن أيّ شيء؟».

أجاب: «لا»، وهو يدنو من الرّاديو أكثر. ثمّ أضاف: «اذهب وتناول غداءك». كان باستطاعته أن يكون ساحراً إذا ما أراد، زوج أمي.

أثناء الغداء، أتى أكبر بمخزونه الخاصّ من القصص. وبدأت قصصه أكثر قابلية للتّصديق، وأكثر تفصيلاً من الحكايات السّخيفة

(35) [إن كان خبراً صحيحاً أم غير صحيح]. بالسّواحيلية في النص.

التي تناقلها الشيوخ من متجر إلى مقهى إلى مكتب. حسب أكبر، باعتباره تكنوقراطيًا، حاول رئيس الوزراء التسرع في إصدار قانون يُشرع تشكيل أحزاب سياسية، غير حزب الفداء الثوري بالطبع. ولم ترق الفكرة لرئيس جمهوريتنا الفيدرالية. فهي تعارض في جوهرها كلّ شيء عملنا من أجله لجيل كامل، قيل إنه قال. وتخون كلّ مبادئنا. لذلك أمر رئيسنا الصغير بوضع رئيس وزرائه رهن الإقامة الجبرية بأيّ تُهم كلف نفسه عناء تليفيقها. «كان الأمر متوقعًا منذ مدة. وقد جاهد كثيرًا من أجل سنّ هذا القانون. حين جلس كلّ الوزراء وأعضاء هذا المجلس الثوري أو ذاك على مؤخراتهم الممتلئة ولم يعجبهم هذا مطلقًا، وهم يفكرون في جميع المتع الرخيصة التي سيُحرّمون منها وكلّ الأموال التي لن يتمكنوا من سرقتها بعد الآن. ما كانوا سيتركونه ينجح في تحقيق ذلك ويفلت بسهولة من العقاب. هذا ما كان ينتظره. وكان الجميع على علم بذلك».

غاضبة من نبرة أكبر المتعجرفة، قالت رقية: «حسنًا، أنا لم أكن على علم بهذا، ما الهدف من تشريع تعددية الأحزاب السياسية؟ سنشهد فقط كلّ تلك المشاحنات البغيضة من جديد، وبعد ذلك ستُستفزّ تلك الوحوش مرّة أخرى وسيعيدون ما فعلوه من قبل». ثمّ أضافت مخاطبة إيّاي، والقسوة ما تزال في نبرتها: «على كلّ، صفية قادمة بعد ظهر اليوم».

جاءت بمفردها، وبدأت أنيقة وهادئة كما من قبل. تساءلت عما إذا كانت والدتها على علم بمكانها. عندما تصافحنا، ابتسمت. انشغلت رقية من حولنا لوهلة قبل أن تنصرف. وها هي ذي تنادي والدتي من المطبخ، تأمرتا إذن لتركنا بمفردنا لبضع دقائق. تحدّثنا في المعظم عن

الدّراسة في إنجلترا: رسوم الالتحاق، متطلّبات القبول، هذا النوع من الأشياء. كان حديثاً يبعث على الاكتئاب، لكنني أفترض أنّه دلّ على مدى انجراف تفكيرها، والاتّجاه الذي مالت إليه. أعجبتني، ولأنّي شعرتُ بإثارة شوق إليها، شعرتُ أيضًا بالخجل من خيانتني لإيما. بحلول الوقت الذي كانت مستعدّة فيه للانصراف، صرت متأكّداً ممّا سيكون ردّها على طلب الزواج. هذا لا يعني أنّي أعرف شيئاً عن هذه الأشياء، عن النّساء. فقد كانت إيما المرأة الوحيدة التي عرفت. ولا تزال. ما الذي بإمكانه دفع شابّة جميلة مثل صفية -نعم، كانت جميلة - لأن تربطها أيّ علاقة برجل مثلي؟ ألمجرد الظّفر بتعليم لائق؟ لستُ أقول هذا بسبب عمري لوحده، على الرّغم من أنّه متقدّم بما يكفي مقارنةً بعمرها، بل لأنّي كنتُ أعتقد أنّه سيبدو من الجليّ لأيّ كان أيّ نوع من الهيكل الخالي من الرّوح كنت. كان بإمكان إيما وحدها تحريك مشاعري، حتّى أنّها مرّةً أبكتني.

ربّما كانت عادةً من الخضوع ما جعل صفية توافق، أو تبدو أنّها توافق على ترتيب كان بكلّ وضوح ترتيباً غير عادل. ولربّما أيضًا كانت تلك العادة نفسها التي تعلّمْتُها في طفولتي وحملْتُها معي إلى إنجلترا قبل أن تتاح لي فرصة تعلّم قوّة الذّكر الكاملة في سنّ الرّشد، وهي ما جعلني أراجع في عديد مواجهاتي مع إيما. في كلّ الأحوال، صار من الجليّ أنّي سأضطر لإيقاف كلّ شيء من التّمادي أبعد من ذلك. لا لأنّي كنت خائفاً من أن أنسى نفسي وأجدني عاجزاً عن مقاومة الإغواء الذي نظّمه لي، بل لأنّي خفت أن يشعروا بخيانة أعظم لو تركتُ الأمور تتفاقم أكثر. فكّرت ببساطة في التّصريح بأنّها لم تعجبني، لكن أمكنني رؤية نظرة التّكذيب في عينيّ رقية على الفور. رأيتها تنظر لي بابتسامة سرّية راضية حين كنت أحدّق في صفية دون انتباه.

ترك هذا إذن إخبارهم بالحقيقة عن إيما كخيار وحيد. بطريقة ما، اعتقدت طوال الوقت أنني سأفعل، ولعلي أردت ذلك. كنت سأغادر نهاية الأسبوع، وفضلت تأجيل قول الحقيقة إلى أقرب وقت ممكن من المغادرة، لكنني لم أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك بعد أن تطورت الأمور مع صفية إلى هذا الحد. «أنا ذاهب في نزهة»، قلت قبل أن تتمكن أُمِّي أو رقية من سؤالني أي شيء. تمنيت لو كنت بعيدًا عن هناك، لو عدت إلى باترسي مع إيما، إلى الوطن. لم تكن إنجلترا الوطن (يمكنك إذن طي السجادة الحمراء، أو لوم المواطن المغترب إن كنت تهتم)، بل الحياة التي عرفتتها مع إيما. كانت جزئي الأكثر سرية، الأكثر اكتمالاً، والأكثر واقعية. صرت أعلم ذلك الآن، وأردت أن أفرغ مما يجب عليّ قوله وفعله للعودة إليها، العودة من هذا المكان الذي لم يعد الوطن.

ظهر رئيس الوزراء على التلفاز في ذلك المساء سليماً معافى، بل ومتحمساً، إن لم يكن ساخطاً بعض الشيء. لم يقل شيئاً عن شائعات اعتقاله، ولا عن الحكايات المتنامية بخصوص تقصيره وأخطائه التقديرية، لكن تخلّلت عدّة وقفات خطابيه، وكان التركيز العام فيه على تبرئة الذمة المجروحة. كانت خطة التنمية الجديدة لحكومته ستوضع حيّز التنفيذ كما كان مقرّراً لها. فقد اكتملت جميع الإجراءات الرسمية: وافق عليها المجلس الثوري لخلاص الأمة، ووقعها الرئيس، وصادق عليها رئيس الجمهورية الاتحادية. في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، كان قد استقبل العديد من ممثلي السلك الدبلوماسي الذين قدموا للتعبير عن دعمهم وعرض مساعدتهم. كان الشعب وممثلو الشعب وزعماء الشعب ووفود الممولين يؤيدون جميعاً الخطة الجديدة. وكل ما تبقى كان أن يكرّس الشعب نفسه للمهمة المنوطة به بالحماسة والتضحية اللازمين، وأن يلتزم دونما تحفّظ بواجبه الوطني؛ حينها فقط سيصبح الازدهار والتقدم حتميين. لم يكن ما وعد به بالشيء الهين، بل تحقيقاً لكلّ أحلامنا: مدارس أفضل لأطفالنا، ومستشفيات ورعاية صحية أفضل، طعام كافٍ للجميع، مأوى لائق، كهرباء ومياه شروب لكلّ منزل على الجزيرة، ونهاية التّبعية. إذا كنّا سنوحّد قوانا ونعمل عليه سوياً، فلن يصبح ذلك حلمًا مستحيلًا. ويعون الله، والتمويل الذي وعد به ممثل المانح، كان حلمًا من المرجّح أن يتحقق في المستقبل القريب.

بينما استمعتُ إليه يتحدث، صادقًا، بتلك النبرة المزدوجة لقائل الحق، شعرتُ بأنَّ المحبَّ للتسلية مني يتضاءل ويتلاشى. هي قدرة محدودة القيمة، ولا أملك منها إلا شحنة ضئيلة في الظروف العادية تتلاشى سريعًا، غير أنَّ مشاهدة الرجل على الشاشة وهو يخاطب العالم بغطرسة، وذلك فقط لكي ينقذ حياته التافهة، جعلتها تنقلص وتحوّل إلى شيء خانع ومحتقر للذات. جعلني أكره نفسي لدرجة أنني أستطيع الجلوس والاستماع إليه، والشعور بعدم الارتياح لأنني سأخذل رؤيته الكاذبة، ولأنني لم أنهض وأغادر المكان أو أبصق في الاتجاه العام الذي تعكسه صورته الناجبة.

تذكرته من أيام المدرسة الآن بعد أن رأيتُ وجهه. لا بدّ وأنه كان في المستويات المتقدّمة حين التحقت بها، فتى طويل ونحيف (فيما كنتُ ثخينًا قصيرًا)، بدا لطيفًا ومهذبًا مقارنة بأعضاء اللجان التأديبية المتعجرفين، والمراقبين، ورؤساء الأقسام في المستوى نفسه. ربّما ينبغي عليّ الذهاب لزيارته لأخبره إلى أيّ مدى كنتُ أفضل عضو اللجنة التأديبية المدني ذاك على رئيس الوزراء المتغطرس الذي أصبح. أليس الطقس جافًا جدًا مقارنةً بالموسم؟ متى ستحلّ مشكل المراحلض المسدودة؟ اختتم خطابه بدعاء قصير: بارك الله في جهودنا. وبدوري، دعيتُ دعاءً قصيرًا: فليقدّم المتبرع تمويلًا كافيًا لجعل أعباء المكتب محتملة.

تبع رئيس الوزراء كظله رجلٌ يرتدي زيّ شيخ الإسلام، يرتدي جوبا طويلة ذات بطانة فضية وعمامة رفيعة لُفّت حول قبة صلبة. أضاءت الاستوديو من الخلف صورةً للكعبة الشريفة، في حين خرج الشيخ

من ذلك الحجر المقدّس مثل انبثاق. بإمكانك أن تعرف بمجرد النّظر إليه أنّه كان يحفظ ما عليه قوله عن ظهر قلب. كانت شفتاه لئيمتين، أو على أيّ حال بدتا توظّفان للتّفوّه بكلمات قاسية، كما كانت لديه اللّحية المعتادة حول ذقنه. استطعتُ من حجم أذنيه أن أجزم أنّه لم يكن شخصاً مستمعاً. كان ذلك النّوع من الرّجال المسرفين في الصّرامة؛ وبمجرّد أن يفتح فمه، عليك التّراجع للخلف حين ينسفك الانفجار المتسلّط الذي يخرج منه. أمّا ما كان لديه ليقوله فكان بسيطاً وعنيفاً، مثل التّنفّس العسير لتينٍ يحتضر. (ليس لأنّي رأيتُ العديد من التّنانين تحتضر، ما أعنيه هو أنّها كانت شهقات أنفاس تلهث متشبّهةً بذكرى السّلطة ولا تشبه في الأخير غير الرّعب). لقد اختار الله حكّامنا لنا. ولهذا هم حكّامنا. واجبنا أمام الله هو أن نطيعهم.

«ما الذي سنقول لوالديّ صفية؟» سألتُ والدتي.

دُعيتُ إذن بهذه العفوية لوضع جبل المشنقة حول عنق صفية وسحبها إلى خراب حياتي. في الواقع، كان سؤال والدتي يدفع بالمسألة إلى مستوى الأزمة، أزمتي أنا، لا الحلّ الذي اعتقدتُ أنّها تتوصّل إليه بخصوص إصراري حازم. لا مفرّ. انتظرَ جمهوري: رقية، أكبر، أمي. ألا يجدر بنا إحضار زوج أمي؟ ألا يجدر به أن يكون هنا عند تنفيذ الإعدام، ليسمعني أطلب الغفران قبل الاستسلام؟ انتظروا، وكلماتُ الاستحسان ملقاةً جنباً إلى جنب مع كلمات اللّوم اللاذعة.

استجمعت شتات نفسي وأعطيته لهم، مستمتعاً بالصّدمة الذي كنت أعلم أنني سأحدثها. إليكم الحقيقة، الأمر هكذا حقاً، أسوأ ممّا كنتم تتخيّلون بكثير، ولا يمكن فعل شيء حيال ذلك.

«أنا أعيش مع امرأة في إنجلترا»، قلت. بدا ذلك غريبًا عندما قلته، شديد القسوة. «اسمُها إيما. نعيش معًا منذ عشرين عامًا، ولدينا ابنةٌ في السابعة عشرة من عمرها، أميليا».

صمت الرجل على التلّغاز لوهلة، ونظرتُ إليه لأرى إن كان لديه رأيٌ بالمسألة، لكنّه اكتفى بابتلاع ريقه بمشقة قبل أن يتابع كلامه. «أحبُّها كثيرًا»، قلت. «وأنا متشوّقٌ كثيرًا للعودة إليها».

ضحك أكبر كما كنت أتوقّع، ضحكة قبيحة تليق برجل خبر دروب الدنيا. تجهّم وجه رقية، في تكشيرة بين الخيبة والاشمئزاز. سامحتُ كليهما. أمّا أمّي فنظرت أرضًا.

«لماذا لم تخبرنا بهذا؟» سأل أكبر وغضبه يتصاعد مع حديثه. «كان بإمكانك أن توفّر علينا الكثير من العناء. ما الذي قصدته بالتزامك الصّمت فيما كان كلّ هذا يحدث من حولك؟ ماذا سنقول لأهلها الآن؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

الجزء الثالث

«نرتدي ملابس الأبهة لعله يُنظر لنا على أننا رجالٌ أفضل ممّا نحن عليه في الحقيقة؛ نستخدم الكثير من البطانات والخدع لنبدو بشكل أفضل، أعظم منكبًا، أنحف خصرًا، وأثخن فخذًا ممّا نحن عليه؛ نُكثّر من الحلاقة والتّحسين لنبدو أصغر سنًا، ونرشّ العطر باطنًا وظاهرًا لنبدو ألطف ممّا نحن عليه، نضيف الكعب الفلّيني لنبدو أطول؛ ونلقّي تحيّات لبقة لنبدو ألطف ممّا نحن عليه؛ نتحدّث بتواضع لنبدو أكثر تواضعًا ممّا نحن عليه؛ وأحيانًا بجديّة وورع لنبدو أكثر حكمَةً أو تديّنًا ممّا نحن عليه».

السّير جون هارينغتون، «عن التّمثيل» (حوالي العام 1597)،

ضمن كتاب «رسائل وحكم السّير جون هارينغتون،

مع ترنيمة للحياة الخاصّة»،

حرّره وقَدّم له نورمان إيغبرت مكلور (1930)

رحلتي من الوطن كانت محمولة. تأخرت سيارة الأجرة المتداعية التي بدت أنها ستلفظ آخر أنفاسها عند كل حاجز تفتيش، والتي قاومت رغم ذلك بطريقة ما، وجرت هيكلها المتداعي إلى غاية المطار. كان عنبر تسجيل الدخول مزدحمًا وفوضويًا، تدافع عنده الجميع في كل اتجاه وتصادموا، متعثرين على الأمتعة من أجل الوصول إلى المسؤول الوحيد الذي جلس بهدوء خلف منصته، يفحص على مهله الوثائق التي قُدمت له، وهو يبدو راضيًا تمام الرضا بعمله. كان أعوان الجمارك غير منطقيين بالمرّة، إذ اشترطوا أن تُفتح الأمتعة. (تمكّنتُ من المرور بعد استجواب موجز اكتفيتُ بابتسامات مبتهجة ردًا عليه). ثم درس ضباط مصلحة الهجرة شهادتي الصحيّة بعناية فائقة، ولربّما كان ذلك بدافع من القلق بشأن معرفة ما إذا كنتُ محميًا بما يكفي من الأرض الموبوءة بالآفات التي كنتُ متوجّها إليها. بعدها، أصرّ ضباط الأمن كي أسلم كلّ العملة المحلية التي كانت بحوزتي، نظرًا لأنّه من غير القانوني أخذها معي، وقد صار من غير الممكن الخروج مرّة أخرى لشباك البنك وتغييرها. بينما كنّا ننتظر في صالة المغادرة المزدحمة، جلس الناس في صمت أو ساروا على أطراف تجمّع القطيع، يدخّنون وينظرون من التوافد. شابه الأمر انتظارنا للطائرة الأخيرة التي ستحملنا بعيدًا عن كارثة وشيكة تقترب.

على متن الطائرة، المزيد من الهيجان الفوضى، مع خلافات شبتّ بخصوص المقاعد ورفوف الأمتعة. أظهرت بطاقات الصعود حجز مقعد كلّ مسافر، لذلك ما أمكن إلّا أن يعود ذلك إلى الخوف

المعتاد من أن يظهر نقص في الأماكن، أو ربّما أثار قلقهم توجّسهم من خداع المسؤولين، رغم أنّ بعض المتسابقين الأكثر تعتّبًا انخرطوا في ذلك لمجرّد حبّهم للمشاحنة. لم يتدخل موظفو رحلة الخطوط الجوية الكينية في كلّ ذلك لفترة من الوقت، ثمّ تدخلوا بأدب لا يعرف الرّحمة وتمكّنوا من إجلاس الجميع في ظرف لا يتجاوز نصف السّاعة. وجدت نفسي في المقعد الوسط، بين هندية حسنة على جانبي من جهة النّافذة، ورجل ممتلئ الجسم في السّتينيات من عمره (حسب تخميني) من جهة الممرّ. عندما جلستُ بمحاذاة الرّجل، نظر إليّ مطوّلاً بنظرة لم يكن بها أدنى ترحيب، وعاقبني طوال الرّحلة بسلسلة من الضّراط. بعد فترة، صرت أعرف متى سيطلقها. فقد كان يتحرّك قليلاً، وكانت تلك الإشارة بأنّ شيئاً ما قادمٌ في الطّريق. بدا أنّ كلّ تعديل صغير أحدثه على وضعية جسده يطلق غازات سامّة. كما يمكنك أن تتخيّل، زادت الحياة تعقيداً بعد أن تناول وجبة أكله. تعلّمتُ احترام وثوق هذا الرّجل الهادئ من نفسه خلال السّاعات السّبع التالية.

كانت المرأة الهندية أكثر إثارة للاهتمام منه بكثير، رغم أنّي خفتُ، حين بدأ الضّراط، أن تعتقد أنّي منقذ الجريمة الشّنعاء. عليّ الاعتراف أنّي قبل أن أحدّد مصدر التّلوث بشكل لا لبس فيه، تساءلتُ إن لم تكن هي الجانية، لذلك لا بدّ وأنها تساءلتُ بالمثل فيما يخصّني. كان اسمها إيرا، وكما اكتشفتُ بمجرّد أن بدأنا تبادل بعض الملاحظات، كانت تعيش في إيلينغ، وتعمل كمصمّمة أنظمة لصالح شركة اتّصالات دولية. أخبرتها إذن أنّي عشتُ في باترسي وعملتُ كادحاً في مدرسة في واندسوورث طوال حياتي كشخصٍ بالغ. شعرتُ في حديثنا بأنّا كنّا غريبين التقيا بعيداً جدّاً عن الوطن.

«هل كنت هنا في زيارة عمل؟» سألتها لمجرد الحديث، لأنه لم يكن باستطاعتي تخيل أن باستطاعة أي شخص أن يفكر في صنع نظام تطلب مثل هذا التصميم المتطور على جزيرتنا الصغيرة. أعتقد أن العرف كان إنشاء أي مشروع يأتي على شكل مجموعة خردوات، وتموله مؤسسة ثقافية إسكندنافية.

أجابت: «لا، بل في زيارة عائلية».

«عائلية! هل أصلك من هنا؟» كانت قصة شعرها قصيرة ومواكبة، رغم أنني غير قادر على إخبارك إلى أي مودة انتمت تصفيفتها تلك، لست على دراية بمثل هذه الأشياء. تحدثت بحزم ودون تسرع، وعلى وجهها ملامح الشخص المثقف الواثق من نفسه، ذلك النوع من الوجوه الذي تتوقع منه أن يحسن التصرف بلباقة في المسرح، أو المطار، أو المطعم.

«لا، ولدت في نيروبي، لكن لدي خالة ما تزال تعيش هنا»، أجابت. علقت كلمة ظلت في الهواء بضع ثوان، حملتها ثم تابعت. «غادر جميع أفراد العائلة إفريقيا الآن، باستثناءها هي، هاجروا إلى إنجلترا وكندا. هي تقول إنها أكبر من أن تبدأ كل شيء من جديد، ولا تحب أن تفكر مطلقاً في البرد».

كان وجهها شهد شيئاً من تجارب الحياة، ما أعنيه ببساطة هو أنني خمنت تجريبها لبعض الألم. لا بدّ وأنّي حدقتُ في ملامحها دون أن تنتبه لي، كونها بعد أن قالت إنّ خالتها لم تكن تحبّ البرد، نظرتُ إليّ مرةً أخرى لثانية طويلة جداً ثمّ قطبتُ حاجبيها بحركة دقيقة، وكان ذلك التعبير أكثر العروض أناقةً في طرح السؤال: ما الذي تحدّق به؟ فانسحبتُ مرتبكاً.

عندما أتيت لي الفرصة من جديد لإعادة فتح المحادثة، سألتها:
«متى غادرت عائلتك نيروبي؟»

«بضع سنوات بعد الاستقلال، حين كنتُ تقريبًا في العاشرة من عمري». جعلتها إجابتها في حوالي الثامنة والثلاثين من عمرها الآن، على الرغم من أنها حازت على ذلك النوع من الوجوه الذي قد يبدو أكبر أو أصغر بخمس سنوات على حدٍّ سواء. «درس والدي الجيولوجيا. في إنجلترا. أعتقد أنه كان يأمل في العمل لدى شركة تعدين أو شيءٍ من هذا القبيل، لكن عندما عاد إلى نيروبي، احتاجه والده في التجارة؛ بيع الآلات الزراعية والمحركات وغيرها. كان عملاً مهماً، لكنه لم يكن ما أراده والدي. وشعر بأن ذلك كان واجبه تجاه الأسرة. بعدها، عند وفاة جدِّي، استمرّ في إدارة الشركة حتّى الاستقلال. بعد أن أصبح الأمر أكثر صعوبةً عندئذ».

استرقتُ نظرةً تجاهي لترى إن كان عليها الاستمرار. كانت قد تحدّثت بسهولة، وكأنّها تدرّش عن أمور يومية عادية، عن زيارة لمرآب تصليح السيّارات، أو عن مزايا الخطوط الجوية السويسرية مقارنة بالخطوط الجوية البريطانية، لا عن تاريخ العائلة الحميم. ليست لديّ تجربة كبيرة في السّفر، لكنني تساءلتُ عمّا إذا كان للجلوس معاً على متن طائرة مجهولة هذا التأثير على الناس. فقد فعلتُ الشيء نفسه مع الرّجل المبتسم على متن الرّحلة القادمة من لندن. «تقصّدين بسبب كلّ الاضطهاد السّخيف للتجارة الهندية؟» سألتها.

أومات موافقةً. «سُنّت الكثير من التشريعات المقيّدة آنذاك، هذا صحيح. لكن كان أيضاً من الصّعب جدّاً الحصول على البضاعة، وقد أراد كلّ مسؤول حصّته، انطلاقاً من القاعدة وصولاً إلى القمّة. أصيب

والذي بعد ثلاث سنوات من الاستقلال بمشكلة في قلبه بسبب كل ذلك التوتر. وهو لم يتجاوز بعد الثالثة والأربعين من عمره. وأنت حينها اللحظة التي أدرك فيها هو وأمي أنّ الوقت حان للرحيل».

أردت أن أقول لها، أنا في الثانية والأربعين فقط وقد أصبت بمشكلة في القلب. قلبٌ معتل، والأمر جدّي، مع عواقبٍ لم يُصرَّح عنها والتي سأسمع عنها في الوقت المناسب عند عودتي إلى الحضارة. هل سمعتني أشتكي؟ هل سمعتني أخطط للرحيل؟

«كيف تأقلمت أوّل ما وصلتِ إلى إنجلترا؟» سألتها وأنا أقاوم تهيجي السّخيف لمتعة سماع صوت إيرّا العفوي ورؤية وجهها الفتان. امتلأ رأسي بالكثير في انتظار أن ينفجر؛ وكنت سعيداً بالتحكّم بزمان الأمور طالما استطعت.

ابتسمت عند تذكّرها ذلك. ثمّ قالت: «لقد حصل في الأخير على وظيفة في شركة تعدين. لا أتذكّر عدد الوظائف التي تقدّم لها. لم يلعب سنّه المتقدّم في صالحه، كما لم تكن لديه أدنى خبرة، إلّا أنّه تحصّل على وظيفة في النهاية. كانت شركة هندية تستخرج الفوسفات في غرب إفريقيا، ومقرّها الرئيسي في لندن. لم يكن والذي مسؤولاً إلّا على طلبات المعدات والإمدادات؛ عملٌ إداري بحت. لم يتمكّن أبداً من العمل كجيولوجي إذن، لكنّها كانت شركة تعدين. كانت تلك الفترة التي انتقلنا فيها إلى إيلينغ».

فسألتها: «أوه، هل تعيشين مع والديك إذن؟».

بطريقة عفوية أجابت: «لا، أنا أعيش بمفردي»، غير أنني قلتُ لنفسِي إنّ الألم الذي رأيتُ يكمن في هذه النقطة بالذات، حادّ البصيرة

كما كنت. «توفيّ والدي منذ حوالي عشر سنوات، لكنّ والدتي ما تزال تعيش في المنزل الذي اشترياه منذ كلّ تلك السنين الماضية. وفيه يعيش أيضًا أخي الأكبر وعائلته. لكن ها أنتَ ذا تتركني أستمِر في الثرثرة عن نفسي دون أن تقول شيئًا عن نفسك».

«لستُ مثيرًا للاهتمام»، قلت. يا إلهي، أليس لديّ ما يكفي من المتاعب هكذا دون أن أكون بالإضافة إلى ذلك مثيرًا للاهتمام؟ «أعني، كيف تأقلمت أول ما وصلتِ إلى إنجلترا؟ لستِ تثرثرين على الإطلاق. أودّ سماع المزيد».

لا بدّ وأتّه كان للرجل السمين الجالس بجواري رأيٌ في كلّ هذا، ذلك أنّه أطلق صعقةً في صمت. لا بدّ وأنّ شيئًا ما بداخله كان بصدد التّعفن. علّقت المحادثة، لعلنا أغلقنا فاهينا غريزيًا لمنع الأبخرة السامة من التغلغل إلى حلقينا. جلسنا مغلوبين على أمرنا نختنق ونلهث في ذلك المستنقع التّن لفترة، حتّى تكفّلت بنا جميعًا خدمة تقديم الأكل للخطوط الجوية: صينية أكل صغيرة مليئة بأطباق بلاستيكية صغيرة تحتوي على حصص من الطّعام أسماؤها طنانة ولكّتها خبيثة المظهر، نبيذٌ لاذع رديء النّوعية، لم يمنعه هذا من أن يكون مُرحّبًا به كثيرًا، تلاه تعتيّمُ الأضواء وبثٌ فيلم الرّحلة. بالكاد لمست إيرا صينيّتها، واتخذتُ الموقفَ نفسه، كنّا لحظتها ساكنين راقبين من سكّان المدن الكبرى يرفضان معًا القمامة الخام والمُعَدّة خصّصًا لعامة الغوغاء التي لا تفقه شيئًا في الذّوق الرّقيق. كنْتُ سأندم على مقاطعتي للأكل مع تقدّم الليل، خاصّةً عندما اكتشفتُ أن إيرا نباتية، وأنها لم تكن جائعة بما يكفي لإثارة ضجّة عندما قدّمت لها صينية من الأكل غير النباتي. أمّا جاري الآخر فقد قام بإعادة التّزود بالوقود بشكلٍ منهجيّ لمزيد من الإنجازات مع أولى ساعات الصّباح.

على أيّ حال، بعد أن خفت الأضواء وشغل الفيلم، التفت إيرا حول نفسها وأغمضت عينيها. حاولت تقليدها، لكن بمجرد أن فعلت، بدأت كلّ ذكريات الأيام القليلة الماضية التي سكنت بصبر في دماغي المظلم في التحرك.

لَمْ ألقِ بالآ لغضب أكبر أو نظرات رقية المتّقدة احتقارًا. لَمْ عساي أهتم؟ استمعتُ إلى فوران إهانة أكبر ببعض من الدهشة، وشاهدته يتوغّل في حالة من الغضب المتأجّج. لقد ضلّلتهم جميعًا. ضلّلت الفتاة الشّابة، وجلبت العار على العائلتين، وعلى أمي وأبي بالخصوص. هل كان ذاك الشّخص الذي حولتني إليه إنجلترا؟ بربري وقح، لا يرحم، عديم الشّرف؟ عدوّ، هذا ما كنت عليه. عدوّ⁽³⁶⁾. والآن بعد كلّ هذا، أفصح عن الوضع الغريب السّائن. امرأة إنجليزية! لم تقل والدتي شيئًا في البداية، لكنّي تخيلتها تفكّر في أنّه سبق لي وأن تركتها من قبل، ثم بدا الأمر وكأنّي عدت، وها أنا ذا الآن أتركها من جديد، كما فعل والدي. عندما تحدّثت أخيرًا، كان ذلك لتقول أنّي كنتُ مخطئًا لعدم إخبارهم منذ البداية عن هذه المرأة الإنجليزية التي تزوّجت. لم تكن تعرف رأيها عن المسألة. شيءٌ ما بداخلها شعر بالاشمئزاز، بالقرف. كيف أمكنني فعل ذلك؟ ما كنتُ سأذنّب ذنبًا أسوأ من هذا لو تزوّجتُ يهوديّة. لكن يبقى أنّه كان يجب عليّ إخبارهم منذ البداية. ربّما كانوا سيرسلون تبريكاتهم بعد أن يسأموا من الخيبة والشّعور بالاشمئزاز، أو على الأقلّ يرسلونني ليعبروا عن شعورهم. الآن، صار السّؤال الأهمّ عن رأي المرأة المسكينة فيهم، وفي صمتهم عليها طيلة كلّ هذه السّنوات؟ أنا أناسٌ غير متحضّرين لا نعرف اللّباقة وأصول الآداب؟

(36) بالعربية في النص.

أنّي متشرّدٌ مثيرٌ للشفقة، لا دار له ولا أهل؟ وماذا عن الطفلة التي لم تعرف أهلها والتي لم تكن أمّي قادرة على التحدث معها باللغة نفسها؟ ما رأيها في صمتهم عنها وتجاهلهم لها؟ طيلة كلّ هذه السّنوات كانوا قلقين، أو على الأقلّ كانت قلقّة من أنّي كنت أعيش وحيداً ومكتئباً في أرضٍ غريبة لأنّ وطني تحوّل إلى كابوس يُرثى له. لكنني وجدتُ بالفعل وطنًا آخرًا، ولربّما حتّى نسيْتُ أمرهم لصالح امرأة إنجليزية. وأثناء سماعي لكلّ ذلك اللّوم والكلمات الجارحة، كان اسمها يصرخ في صمت بداخلي. إيما. إيما.

أردتُ أن أخبر والدتي أنّي وإيما لم نكن متزوجين، وأنّي كنتُ أكذب عليها بخصوصهم منذ سنوات، وأنّي كنتُ بالفعل متشرّدًا حقيرًا مثيرًا للشفقة، أعيشُ حياة العبودية وخيبة الدّات، حياة غريب، أجنبي، لا يميّزه شيء، لا يعرفه أحد ولا يخدم غرضًا معيّنًا في ذلك المكان؛ وأنّه لم يبق أمامي أيّ خيار. فقد صارت الحياة الوحيدة التي أعرف كيف أعيش، وأنّي أودّ أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم العودة إليها لإصلاح ما لا يزال بالإمكان إصلاحه. لكنّ كلمات أمّي، كلمات الغضب والألم تلك أخرستني. فقد كان هنالك المزيد، وبدا أنّه لم تكن لكلمات اللّوم نهاية، رغم أنّي، علمتُ بعدها أنها لم تكن قادرة على التّحدث طوال تلك فترة. في النّهاية، قالت والدتي إنّ عليها أن تتعلّم نسياني، بما أنّي تمكّنتُ من نسيانها كلّ هذه الفترة الطّويلة. كان عليها أن تتعلّم كيف تفكّر بي باعتباري لم أعد ابنها. كنت في الثّانية والأربعين من عمري وكانت تبرأ منّي، بحقّ الله!

بعد ذلك، انصرف ثلاثتهم وذهبوا إلى غرفة زوج أمّي. سمعتُ الترانزستور يُطفأ، والباب يُغلق بإحكام. لكانَ ذاك وقتًا مناسبًا للنّزّهة،

والابتعاد عن الدراما المقيّنة التي كانت تختمر، والتّفكير في كلّ ما قيل، وللشّعور الذي لا مفرّ منه بصدمة وابل ما قيل وسُمع. الكلمات هكذا. حتّى وإن أخذت جملةً، فهي تعشّش في زوايا الذاكرة اللّانهائية، ثمّ تعود في شكلها المكتمل فرادى ومثنى وثلاث، كلّ مجموعة صغيرة منها تتقدّم لتتسبّب في تآكل القلب بالسّم مرارًا وتكرارًا.

غير أنّ الوقت تأخّر، وصار اللّيل في الخارج مظلمًا خاليًا. كنت قد خرجت بمفردي في ليلة سابقة، عندما كانت تُعرّض حلقةً أخرى من مسلسل دالاس، واستسلم كلّ شخص في الغرفة إلى قصصه الغرامية غير محتمّلة التصديق. لا بدّ وأنّ الساعة لم تتجاوز التاسعة؛ مشيتُ في الطّرق المفتوحة الكبرى، لا الأزقة الملتقّة والمتعرّجة، ورغم ذلك، عمّ الأرجاء صمتٌ متوتّر ومتربّص، وكأنّ اللّصوص والمرترقة المحتشدين في طريق وجودنا التّافه والمعتم يتربّصون في ظلام تلك الشّوارع القاتمة. بين الفينة والأخرى يندفع أحدهم إلى الخارج يلتصق به ظلٌّ خفيّ يتبعه على طول الجدار، وقد عرفتُ دون يقين أنّ تلك الشّخوص المطاردة كانت من متذوّقي الألم البشري الذين لا يعرفون الرّحمة، متسلّلون يلهثون خلف أجساد الفقراء والذين دمّرتهم الحياة. ترنّح رجلٌ مقلّبًا نحوي، وحتّى في ذلك الضّوء الخافت بدا لي شابًا ومألوفًا، ربّما كان أحدًا عرفته ذات يوم، غير أنّ وجهه بدا متورّمًا بكدمات قديمة وجسده متّسخًا ونتاجًا. عندما فتح فمه ليتحدّث، رأيتُ أنّه فقد أسنانه الأمامية. قال وهو يمدّ يده لمسك بيدي: «الحبيب». الحبيب، حبيبي، لا تمرّ أمامي هكذا. تبيّستُ ثمّ حدّقت فيه، وجسدي يرتعد من الإهانة والاشمئزاز، وبعض من القلق. قلتُ وأنا أسرع مبتعدًا: «أرجوك»، ثمّ سمعته من خلفي ينفجر في شهقات بكاء عال.

عدتُ إلى المنزل لأجد أنّ غيابي لم يُلاحظ. لم أحمل المفتاح معي، واضطرت لطرق الباب حتّى يُسمح لي بالدخول، ما تسبّب في ذعر كبير. إذ لم يكن أحدٌ يأتي للزيارة في مثل ذلك الوقت من الليل. عندما أذن لي بالدخول، توجّب عليّ الاستماع لتأنيبٍ حول مخاطر الشوارع في ذلك الوقت المتأخّر. وزارني صور كابوسية ليلتها. لم تكن أشكالا مشوّهة أو مرعبة، بل غالبًا وجوه ظهرت فجأةً ولوحت في الأفق ما إن أغمضت عيني. لم تكن مألوفة، أو مهدّدة أو ساخرةً بشكلٍ خاص، بل متوتّرةً متشنّجةً الملامح، لا تعرف الرحمة، تعد بالآلم.

ريثما تناقشوا جُنحي وخطاياي مع زوج أمي، لم أفكر إلّا في إمكانية الخروج للتمشّي كخيار يائس. قد لا يأذنون لي بالدخول هذه المرّة، وقد يتعيّن عليّ السّير مجدّدًا في شوارع ناهبي الإنسانية أولئك. على التلفزيون، عُرض مسلسلٌ أمريكي آخر، لكنني كنتُ أجهل الكثير عن هذه الأشياء لدرجة أنّي لم أستطع التّعرف عليه، ولهنيهة، بدت فخامة الديكور والمشاهد السّخيفة بغیضةً بل وساخرةً عمدًا. لكنّ ذلك لم يدم إلّا للحظة. ولم يكن للأمر علاقة بي. لعلّ ما جعل ذلك العالم الخيالي يبدو حقيقيًا وجذابًا للجميع هو أنّ كلّ ناحية من نواحي الحرمان والبؤس العامّ في ذلك المكان انتزعت منه. أو لأنّه ببساطة انتزعَ ذلك الوجودَ من الإدراك وحوّله إلى شيء مستحيلٍ وعبثي.

تركت التّلفاز مشغلاً وعدت إلى غرفتي لأنتظر فيها مصيري. كانت إيما بانتظاري كما هي العادة كلّما عدت إلى الغرفة. كلّما عدتُ إليها بعد خروج، بدا الأمر وكأنّها ظلّت هناك طوال الوقت، تنتظر عودتي. وعندها، تعود أجزاء كاملة من حياتنا معًا وتملأني خوفًا ورهبةً وشوقًا. أحيانًا، يخيّل لي أنّي سمعتها تنسج في عزّ الليل، لم تكن تبكي

بصوت مسموع، بل تناجي ببحة منكسرة والدموع تنهمر من مقلتيها. لا أتذكرها امرأة كثيرة البكاء. من بيننا نحن الاثنان، كنتُ البكاء، وفي الآونة الأخيرة، صارت إيما تنزعج من فقداني للسيطرة على نفسي. كم هذا مشيراً!

كنت أتوقع أنّ العمّ هاشم، بعد الجلسة المريرة التي خصّوا بها المرأة الإنجليزية الشريرة، سيعرّج على غرفتي ويلوّح بعصاه في وجهي لاحقاً. لكن كان ينبغي عليّ أن أعرفه أفضل من هذا. كان ينبغي عليّ أن أعرف أنّه لا يمكن للعمّ هاشم أن يسهو ويتصرّف دون أسلوبه المعتاد، أو أن يدنس شرفه بسبب خطايا ربيب ضالّ مع امرأة إنجليزية، وذلك رغم سنّه المتقدّم وإفراطه في تناول عقار الفاليوم. حلمت في تلك الليلة أنّ فرن الغاز انفجر في شقّة باترسي، وأنّ موادّاً عضوية لأشلاء الجسد تناثرت في كتل كبيرة على الجدران والأرضية. حلمت أنّ المشهد اختفى عندما أغمضت عينيّ، وعندما أعدت فتحتهما تراءى أمامي المعدن المشوّء والأجزاء والأشلاء. لا بدّ إذن وأنّي كنتُ هناك في مكانٍ ما بين تلك الكتل، غير أنّي لم أر نفسي.

أرسلوني إلى كوفنتري⁽³⁷⁾، بهذه العبارة الجذابة القديمة. لم يتحدثوا معي. عندما ذهبْتُ لتحيّة والدتي في الصّباح، مدّت لي يدها بتردد بطيء ولم ترفع عينيها نحوي. عادةً، كانت تجلس معي أثناء تناولي الإفطار (لم تكن تفطر، وتلك عادة قديمة لها)، غير أنّها ظلّت هذه المرّة جالسة على كرسيّها في الرّدهة، من حيثُ أمكنها رؤية كلّ شاردة وواردة إلى الشقّة. بقيت رقية في المطبخ أثناء ذلك، قبل أن تغادر دون

(37) أيّ نبدوني. إرسال شخص ما إلى كوفنتري تعبيراً اصطلاحياً إنجليزيّ يعني التّبذ والإقصاء من خلال عدم مخاطبته؛ ويبقى أصل الاصطلاح مجهولاً.

أن تنبس بينت شفة ما إن دخلتُ إلى هناك حاملاً أطباقي المتسخة. لم تنتظرنني هناك لا التّحية ولا المشاحنة المعتادة بخصوص مَنْ عليه غسل الأطباق. ثمّ آن وقت الخروج للمشي. لم أعتقد أنّ بإمكانني مواجهة لقاءٍ مع جلالته في متجره المتداعي. لذلك ذهبت إلى مكتب الخطوط الجوية الكينية لتأكيد رحلتي؛ هُمت في المحلّات لأشتري بعض الهدايا، وفكرت في زيارة رئيس الوزراء لتهنئته. غير أنّي لم أكن لأهتم.

مشيتُ حتّى ملعب الجولف القديم المحاذي لشاطئ البحر، حيثُ اعتاد اللَّعبُ المسؤولون البريطانيون الذين تقطّعت بهم السّبل في الجزيرة عند تليبيتهم لنداء الواجب الوطني، قبل أن ينسحبوا للتّرفيه والاستراحة إلى النّادي، ليُخطّطوا من أجل تحسين ظروف رعاياهم، وليتأمروا لمتابعة أعمالهم المهدّبة. كان النّادي مبنى خشبيّاً وُضع على ركائز متينة، أحاطت به من جميع أنحائه شرفة أرضية ممتدة، وستائرٌ من القشّ الأخضر كانت تُنزّل في المساء لحجب أنظار الفضوليين. أثناء فترة النّهار، بدا مثل منزل خشبي متواضع، غير أنّه في المساء كان يتألّق ويتوهّج بسحر الإمبراطورية، بسحر الغموض الاستعماري المتفرد، بالطّرد الفضّ والنظرات الصّارمة، بالطّقوس السّرية والأطعمة الغريبة، وبصدى محادثة صاخبة بعيدة وضحك جامع مفاجئ. احترق النّادي بأكمله في ظروف غامضة بعد الانتفاضة، وظلّت كومة الرّماد والكثبان المسوّدة متناثرة على الأرض لعدّة أسابيع، حتّى نسفتها الرّياح أو أتى النّاس لجمع ما تبقى من حطب ليستفيدوا به. أصبح ملعب الجولف الآن عبارة عن عدّة ملاعب لكرة القدم، وهو تحوّل غير رسمي لم يتطلّب إذنًا من أحد ولا تمويلًا، كما أمكن رؤية ذلك

من مجموعة متنوعة من أعمدة المرمى المتداعية وأعلام الزوايا. على الشاطئ، سُحِبَت تحت أشجار السرو زوارق الصيادين التي حامت عليها أسراب غربان وتدحرجت وتشاجرت وتأرجحت لتتقات بحثًا عن فضلات الأسماك التي كان يتخلص منها الصيادون برميها على الشاطئ الرملي. في عهد الإنجليز، كان الشاطئ متنزهًا أنيقًا قاد فيه الأثرياء سياراتهم وتمشوا على طول البحر ليتقربوا من أسيادهم. وفي الليل، كانت سياراتٌ أخرى تأتي، تطفئ أضواءها وتبقى هناك في صمت لساعات.

أما الآن فقد صار يهيمن على الموقع مسقفٌ مرتكزٌ على عشرات الأعمدة، أسندته من تحت دعامةٌ قيد البناء. بناءٌ دعامة هي تقنيةٌ بدائية وجلفة، إذا ما تجاهلتَ المنظور التاريخي اللازم لانتقاء الشجرة المناسبة الواجب قطعها، ونقلها، والطريقة الماهرة والذكية المتمثلة في إفراغها لجعلها تطفو وتستجيب ليد الحرفي الموجهة على الشطء. كنتُ مستعدًا لتجاهل كل هذا وأنا أنظر من حولي للمكان الغامض للمواعيد الغرامية الذي كنا نحبّ التسلل إليه منتظرين وقوع الفضيحة القادمة، وتحسّرتُ على تحوّلِهِ إلى حفرة تقايضت فيها الغربان وأحشاء السمك بشكل غير عادل. غير أنّ هذا كان واقعًا ما بعد استعماري، استعاد فيه الشعب مساحة العيش من النخبة المهمّشة التي خصّصته لمآسيها الحسية - واقعٌ اصطاد فيه الناس السمك وأكلت فيه الغربان الأحشاء.

لا تسعُ فهمي أرجوك. فقد أكلتُ السمك، وكان للغربان عاداتها، حتّى وإن كنتُ وأنا أصغر سنًا أرى كوايسًا عن عيونها الثاقبة. أسفتُ أنّه كان لا بدّ عليها أن تستحوذ على ذلك الشاطئ القديم بذكرياته

المعقّدة والمتشعّبة ليصبح الأمر حقيقة. فهناك، على متن سيّارة صامته يتبيّن لكّ عندما تقترب منها أنّها لم تكن بالفعل صامته، سمعتُ فرقة الرولينجستونز تؤدّي أغنية «ساتيسفاكشن» لأوّل مرّة، ورأيتُ مدرّس الكيمياء في وضعية غير لائقة مع امرأة مجهولة (أو على الأقل، مجهولة بالنسبة لي)، والتي كانت ستصبح زوجته الخامسة. لهذه الأشياء أهمّيتها، غير أنّه لا يمكن إنكار الواقع ما بعد الاستعماري. لم تكن الشواطئ القذرة وحدها ما جعلني أشعر بالأسى، ولا التذكّر الملتبس لما بدا طريقة أكثر تنظيماً في تسيير شؤوننا في عصر البلاغة، عصرنا هذا الذي أمكننا أن نتحدّث فيه عن كلّ اضطهاد وكلّ تقصير في أداء الواجب، لا الاكتفاء بمجرد الحنين للنظام الاستبدادي للإمبراطورية، وهو الشّيء الذي بإمكانه التقليل من شأن التناقضات عن طريق إصدار أوامر إلزامية ومراسيم صحيّة، بل كان السّبب أنّي شعرت أثناء تجوالي حول أنقاض المدينة المدمّرة، وكأنني لاجئٌ فارٌّ من حياتي. بدت تحولات الأشياء التي عرفتُ والأماكن التي عشت معها في ذهني بشكلٍ مختلف طيلة سنوات، وكأنّها طرْدٌ وصلني من ماضٍ.

عدتُ إلى المنزل وذهبتُ للبحث عن العمّ هاشم. كان جالساً في المتجر كعادته في ذلك الوقت من اليوم، وعلى غير عادة، لم يكن لديه زوّار غير الشاب الذي كان يدير المتجر نيابةً عنه، والذي بالكاد سمعته يتحدّث يوماً. تقبّل العمّ هاشم تحيّاتي بشكل عرضي، ثمّ نظر إلى الطريق مطوّلاً، ووجهه متيّس وقاسي الملامح، في حين امتلأت عيناه بالآلم. تحدّث فجأةً، بحميمية، وكأنّه راجعٌ من مكان بعيد. قال وهو لا يزال مشيحاً بوجهه عني: «في أوقات مثل هذه، تعود الذكريات لتسبّب لي الآلم».

في أوقات مثل ماذا؟ كان هذا ما قاله لأكبر، ولا بدّ وأنّ وقع هذه الفكرة أعجبه. لكنّ بؤسه كان صادمًا فعلاً. كنتُ قد اعتدتُ على رؤيته جامد الشّعور، دقيق الحساب، يدير أعماله دائماً باقتدار كبير، حتّى تحت تأثير الفاليوم وخلال أيام أفوله الجوفاء. انظرُ إلى يومه كم هو مرتّب، كيف تُتبع صباحاته في المتجر بصلاة وغداء ثمّ تعويذة أخرى أمام الترانزستور، تليها قيلولة ثمّ تعويذة أخرى أمام الترانزستور، ثمّ العودة إلى المتجر حتّى أواخر المساء قبل العودة إلى الترانزستور مجدّداً. كانت حياته مليئة بالدردشات والمخاوف الدنيوية، مليئةً بالتكهّنات الكونية وشائعات المؤامرات وخيانة البلد. بالكاد كان يحظى بما يكفي من الوقت في خضمّ هذا الانخراط الصّارم في عالم الأعمال لتكون له أحاديث تافهة مع أفراد أسرته. والآن، ها هو ذا جالسٌ هنا، مكروبٌ وهرم، مُعذّب. كان ذلك صادمًا. ألقي من فوق كتفي نظرة خاطفة إلى الشاب الذي لا بدّ وأنّه كان متكئًا على المنضد بمظهره المعتاد من التكتّم المتباهي، وقال: القهوة، بالفاظظة التي خصّ بها الموظّفين والمتسوّلين الذين كثيرًا ما كانوا ينحبون عند باب المتجر للحصول على بضعة قروش.

قال وهو ينظر إليّ للمرة الأولى: «أنت تذكّرني بوالدك».

فأجبت: «لقد أخبرتني والدتي أنّي لا أشبهه البتّة».

«لست تذكّرني بمظهره. بل بطريقة خوفكما كليكما»، أجاب وهو ينظر سريعًا في عينيّ ليتأكّد من أنّه أصاب مرماه وأوضح ما عني. «عندما غادرَ والدك هذا المكان، ما أقدم عليه كان شيئًا غير مفهوم. فليرحمه الله. ما الذي كان يهرب منه؟ مثل لصٍّ أو قاتل. لم أستطع فهمه فعلاً. لا أعتقد بوجود شيءٍ أراده هناك، حيثما انتهى به المطاف.

أعتقد أنه أراد فقط الهروب من حياته، منّا، من هذا المكان. ما كان بإمكانه تخيل الأذى والعار الذي خلفه وراءه. وها أنت ذا الآن قد فعلت الشيء نفسه. لسنوات ظلمت صامتاً، ما ظننتني يوماً سأراك من جديد. غبت نصفَ عمرٍ بحاله. جعلتُ عودتك والدتك سعيدة. جعلتها تعتقد أنك ستزوج وتصبح من جديد واحداً منّا. لكنك الآن تخبرنا أنك كنت تعيش طوال هذا الوقت هذه الحياة التي لم نخبرنا عنها بشيء. ثمّ ها أنتَ ذا الآن تستعدّ للهروب مجدداً، تاركاً إيّانا في الخزي والنّبذ الذي سينتج عن حساباتنا الخاطئة.

لم أتمالك نفسي، ورحت أبكي، الأب الذي لم أعرف قطّ، وهروبه اليائس الذي ملأ جميع الآخرين بالألم. لكنني بكيتُ نفسي بالأساس، والفوضى التي سبّبتُ في حياتي. بكيتُ ما سبق لي فقدانه، وما خشيتُ أنني كنتُ على وشك خسارانه.

ابتسم العمّ هاشم ابتسامةً عريضةً، سرعان ما تحولت في لحظةٍ إلى قهقهة هزّت جسده المضعف وجعلته يكافح كي يلتقط نفسه، أضحكته فرحةُ الازدراء المُطلقة لرؤيتي مذلاً حقيراً. وساعد ذلك على كبح الدموع على أيّ حال. قال بين ابتساماته: «شخصٌ في مثل سنّك، يا للعار». لطالما كنتُ سريع البكاء، منذ نعومة أظفاري. أوّل ما انتقلنا إلى الشقة بعد أن تزوّجت والدتي من جديد، كنت دائماً مستعداً لأجهش بسبب نظرةٍ مطوّلة من العمّ هاشم، أو أحياناً أنفجر باكياً من مجرد الوقوف أمامه وهو يتحدث معي بحكمته عن شيءٍ أو آخر. أفترضُ أنّ هذا ما عناه، ولعلّ الذكرى هي ما جعله يضحك كلّ هذا القدر، هذا إضافةً إلى متعته التي لا تقاوم في التسبب للآخرين بالألم. على مرّ السّنوات الأخيرة، تعلّمت أن أبكي، على الرّغم من أنني

لا أفعل ذلك عادةً وأنا جالسٌ في متجر نصف فارغ على جانب الطريق وأنا أتلقي التوبيخ على مدى جُبني، بل وأنا جالسٌ غالبًا في الشقة بينما تتدافع كلماتٌ وذكرياتٌ كلماتٍ وتهزّ دفاعاتي الضعيفة. على أيّ، كان من الجيّد رؤيته مبتهجًا، يحتسي قهوته بنوع من المتعة.

قال: «ضائعٌ أنت، لم تضع عنا فقط بل ضيّعت نفسك. تمامًا مثل والدك». بدا جليًّا أنّه أحبّ المقارنة، وربّما كان يتطلّع لها منذ البداية، ما همّه ما كنت سأقول أو أفعل. لم أكرث. يمكن لأشخاص من شاكلة العمّ هاشم أن يقولوا أشياء من هذا القبيل، حتّى وإن كانت صحيحة. يمكنهم تخزينها لسنوات، التّشبّث بها، وتركها تتقوّى وتتصلّب، حتّى تحين اللّحظة التي يمكنهم فيها تسليمها كما كان مقصودًا لها، لسحق عظم أو كسر قلب. لذلك انتظرتُ المزيد. هذا ما أفعله عادةً. أنا منتظرٌ. وأعلمُ جيّدًا أنّه ما إن تبدأ الكلمات الجارحة، يوجد دائمًا المزيد من الكلمات المزدحمة الأخرى التي ستلحقها.

ظهرَ أحد أصدقائه قبل أن يتمكّن من قول المزيد، عجوزٌ طويلٌ بطيء الحركة حملَ بطنه أمامه كما لو كان شيئًا منفصلًا تمامًا عن جسده. كان نصيرًا قويًا للحزب الآخر قبل الانتفاضة، كما كان أضحوكةً محلية بين المناضلين السياسيين في تلك الأيام. هتف الأطفال بالشتائم وهم يركضون أمام منزله، وفي إحدى المرّات، لطّخت ببراز البشر جدرانه التي كانت تغطّيها دائمًا الكتابات السّاخرة. لكنّه عيّن بعد الانتفاضة رئيسًا لفرع الحزب المحلي فيما أصبح الآن بلد الحزب الواحد، ليحكم منطقةً لطالما صوّت أفرادها بأعداد كبيرة لصالح الحكومة التي رفضوها بالقوة وعارضوها بشدّة. كان لديه خطّ هاتفٍ مباشر يصله بمقرّ الحزب، وبالعديد من الأماكن الأخرى غيره.

وقد ترددت الشائعات بخصوص أنه كان صديقاً شخصياً للرئيس،
الوحش المؤسس الذي وضع قضيه على الطاولة إرضاءً لأصحاب
اللحى الرمادية. وقعت على عاتقه مهمة ترجمة مراسيم الحكومة
وتنفيذها - إلى حد ما على أي حال، فقد كان لكل شخص كلمته في
كل مسألة آنذاك، ولكل سفاح سلاحه. فجأة إذن، صار يُدعى على
فنجان قهوة إذا مرّ أمام أحد المقاهي، وصمت الأطفال وهم يركضون
متجاوزين منزله. تزوّج مرة أخرى وانتقل للعيش في منزل أكبر، ونمت
له كرشٌ ليضيف فخامةً إلى التميز الجديد الذي طرأ على حياته. لكنّه
لم يعد في ريعان شبابه عندما حدث له كلّ هذا، ولم يستطع أبدًا
أن يتخلّص من كرشه. وبدلاً من ازدراء الدّعوات لتناول القهوة التي
بدت خادعةً وكاذبة بوضوح، بدا مسروراً بأن يُرحّب به. ولم يكن من
المفاجئ أن أجد عند عودتي أنّه أصبح أحد أقدم أصدقاء زوج أمي.
إذ كان ذلك بالضبط ما يمكنك توقعه من العمّ هاشم.

كان يعرّج بالمتجر كلّ يوم ليأتي بالأخبار من المستويات العليا.
ورغم كونه قد أصبح الآن أكبر من أن يشارك في الأعمال اليومية
لإدارة إقطاعته، إلّا أنّه يظلّ رئيس الفرع، ويمكنه إلغاء كلّ ما شاء.
لقد أصبحَ عينًا من أعيان المنطقة، وقصده الناس كما كانوا يقصدون
حاكمًا مستبدًا حكيمًا وسخيًا. عند رؤية جلالته مشيته وطريقة حديثه،
كان من المستحيل تخيل الأيام التي كان يتغوّط فيها الرجال البالغون
في دلاء ثمّ يحملونها في جناح الليل، ضاحكين وساخرين، ليلطّخوا
جدران منزله أثناء نومه.

جلس بثقل وبدأ يروي آخر الأخبار عن أزمة رئيس الوزراء. ثمّ قال
برضا: «سيُعلن عن هذا في نشرة أخبار الليلة، سيغادر بكل تأكيد».

بالنسبة لرئيس الفرع، كان رئيس الوزراء متطفلاً متعجرفاً. أراد أن يضع قواعداً بخصوص كل شيء، وأن يتدخل في شؤون الجميع، أما فيما يخصّ بالسّماح بالتعددية الحزبية، فما الغرض من ذلك؟ بما أنّ الجميع كانوا سعداء وراضين، وما لا يمكن تغييره لا يمكن تغييره، ومن الأفضل تركه لله. أخبرني، بوانا هاشم، أخبرني؛ ما الجديد الذي ستجلبه لنا أحزابٌ أخرى لسنا نملكه الآن بالفعل؟

قلت ولم أستطع كبح نفسي: «إنّه التمويل». كان الأحرى بي أن أجلس في صمت جدّي، غير أنني لم أستطع منع نفسي. «الديمقراطية مفهوم مهمّ في الوقت الحالي، وأنا متأكّد من أنّ التعددية ستجلب المزيد من التمويل».

أجاب رئيس الفرع بتمعّن: «هذا صحيح. هذا بالضبط ما يقوله رئيس الوزراء، ويمكنك أن ترى المنطق فيه. لكنّ تلك الأحزاب ستعيدنا إلى مشاحنات الأيام الخوالي وصراعاتها، فيما لم يعمّ علينا الآن ومنذ فترة سوى السّلام والازدهار».

صحيحٌ أنا اضطررنا لقتل بضعة آلاف من مثيري الشّغب، وسجن آلاف آخرين، واغتصاب وتشويه العشرات منهم، وإجبار عدد من النّساء على الزواج من بعض الشّواذ الشيوخ غريبي الأطوار، ولم نكن نسمح لأيّ كان بالإقدام على أتفه الأشياء كإطلاق الرّيح مثلاً دون إذن وإذلال وتنمّر، ناهيك عن أن نسمح لهم بالتصويت والسّفر والتّحدث علناً عمّا يدور في أذهانهم من تمرد. لكن وعلى عكس ما سبق، أصبح الجميع الآن في الوضع نفسه. يفتقر الجميع للطعام، ويفتقر الجميع للماء، وعلى الجميع أن يزحفوا وينبطحوا للحصول على أصغر الأشياء وأنفهمها، كما صارت تفتقر كلّ المدارس للكتب، ولا يملك أحدٌ بنسّين

يفركهما معاً بجيبه، وبالطبع، مراحيض الجميع مسدودة- باستثناء كبار المسؤولين في الحكومة الذين يتعين عليهم تسيير شؤون البلاد، ومن الواضح أنه لن يتسنى لهم فعل ذلك إن كانوا جائعين، عطشى، معدمين وغير قادرين على استخدام مرحاض نظيف.

نظر إليّ رئيس الفرع بعينين مستتين متفتختين مشتين، عينين كانتا قد شهدتا الازدراء يتحول إلى إذعان يرتعد خوفاً، وانتظر متي أن أصدر أصواتاً بالموافقة. شعرت بذلك الغياب، كما فعلتُ أيضاً. فقد احتاجتها عظمته، بل احتاجتها حتى اللحظة نفسها وفرضتها. بعد برهة من ذلك الصمت المرتعش، أدار رأسه وبصق بعنف مفاجئ في الطريق. ثم عاد إليّ ووجهه يتشنج عند بلعه، وسأل: هل تفهم؟ - وهو بعد ينتظر متي التملق والخضوع. بطريقة ما، تمكنتُ من منع نفسي من الإيماء بالموافقة، لكنني رأيتُ وهو يتمعن في صمتي أن شياطيناً مترهلة من أمثاله، والسفاحين المسلحين، والأمناء الدائمين، والأعضاء الفخريين في مجلس خلاص الأمة، ورئيس الوزراء وسكرتيه، وبقية حشد آكلي لحوم البشر هم الذين حولوا في الحقيقة حياتنا إلى فوضى، وأفقروا مجتمعاتنا دون أدنى تفكير أو هدف. لماذا أقول مجتمعاتنا، ونحن جميعاً مختلفون تمام الاختلاف، من تمبكتو إلى الجزائر العاصمة إلى هافانا إلى تيمور الشرقية؟ لأننا جميعنا نتشابه في هذه النقطة بالذات، كلنا نلتزم الصمت ونومئ بالإيجاب -خوفاً على حياتنا - بينما يضطر الطغاة متفخو الكروش علينا ويدوسون علينا لرضاهم التافه. (كنتُ أعلم أنني سأستقل طائرة في غضون أيام قليلة. لذلك لم أكثرث. لكن لم يعني ذلك أن بإمكانني استنباط صيغة الجمع تلك من سيرتي الذاتية.) في غضون ذلك، يمكن لأصحاب الثراء الذين

يحكمون العالم أن يتابعوا مهمتهم الأليمة المتمثلة في مشاهدة أعمالنا الغريبة على التفاز والقراءة للاطلاع عن فشلنا وجرائم القتل عندنا في صحفهم، أن يؤكدوا فكرة أن تبرعاً صغيراً لتمويل مشروع ترجمة هنا، وشحنات متواضعة من الأسلحة هناك، سيبقي حاملي وباء الطاعون ضمن حدود عالمهم العطشى، وبعيداً عن أبوابهم.

عاد العمّ هاشم وصديقه إلى حديثهما حول الأحداث العالمية: أزمة رئيس الوزراء، حمولة جديدة من الأرز وصلت للتو، جريمة قتل غريبة وقعت في تجمع سكني في مشانجانبي، انحراف قطار سريع عن مساره في الهند، القذافي. وفي اللحظة التي اعتقدتُ فيها أن الوقت حان للانسحاب من هذا النقاش بالغ الأهمية، وربما الذهاب لزيارة رئيس الوزراء لأقدم تعازي، التفت إليّ رئيس الفرع سائلاً: «كم من الوقت ستبقى هنا معنا؟ لقد غبت وقتاً طويلاً». أخبرته أنني سأغادر في غضون أيام قليلة.

قال الخال هاشم لرئيس الفرع: «أنا بالأمس ببعض الأخبار». ما اعتقدته قادراً على الإقدام على شيء مماثل، فلطالما كان رجلاً مهذباً وكتوماً لدرجة أنني لم أعتقد أبداً أنه سيتحدث عن إيما. لعلّ للفايوم تأثيرٌ عليه بعد كل شيء. «اتضح أنه كان طوال كل هذه السنوات متزوجاً من امرأة إنجليزية».

قال رئيس الفرع دون أدنى تردد «إذن فأنت ضائع»، ما جعل الخال هاشم يتسم لذلك الاعتراف. «لقد أضعت نفسك، وضيعت أهلك. والرجل دون أهله لا شيء».

بدا المشهد وكأنهما تدرّبا عليه. فكّرتُ في إخبارهما بأنني لم أكن متزوجاً من إيما، لكنني لم أفعل. لم أكثرث. في تلك اللحظة، لم أعتقد

أني كنت قلقًا للغاية بشأن تضييع أهلي، إذا كان ذلك يعني ذينك
الرجلين المسنين القاسيين. أو مات بإذعان واستدرت هامًا بالخروج
عندما بدأ رئيس الفرع يخوض في مأساة اختلاط الأعراق. فكّرت في
أميليا وشعرت بالخجل من لؤم طريقة تفكيرهما بها، حتى ولو تفكيرًا
مجردًا. فكّرت في إيما فغرق قلبي في إحساس بالضعف اللامتناهي،
وتصدّع رأسي بغضبٍ ساخطٍ مُنهك. أدركتُ أنني كنتُ أكنم الأشياء
الصغيرة التي حدثت لي لأخبرها بها لاحقًا، أشياء صغيرة تافهة لا
يمكن التحدّث عنها إلّا في سرّ الحميمة. ولم تكن تلك الأشياء
اللعنات والانتهاكات، أنت ضائع، أنت ضائع، بل محادثة سخيّة
دارت بيني وبين موظّف شركة الطيران في وقتٍ سابق من ذلك اليوم؛
أو المرّة الأولى التي تمشيتُ فيها من جديد على طول الواجهة البحرية
في صباحي الأوّل هناك، حين شعرتُ بالنسيم الدافئ القويّ يهبّ من
البحر، أو صدفة الالتقاء بأحد معلّميّ القدامى الذي تذكّرني والذي
لم أتذكّر إطلاقًا من يكون.

تحركتُ إيرا عندما انتهى عرض الفيلم وخفّفت الأضواء أكثر،
لكنّها لم تفعل إلّا لتعيد ترتيب وضعيتها قبل العودة إلى النوم. نام
الرجل البدين الجالس على جانبي الآخر بفم مفتوح، وبالضبط كما
أمكن توقّعه من شخصٍ تعفّنت أحشاؤه، خرج المزيد من تلك الروائح
الكريهة من تلك الفتحة. مرّة، انحنتُ إيرا برفق نحوي أثناء نومها
وكاد رأسها يسقط كليًا على كتفي. شعرتُ عندها بدفنها على ذراعي
واعتقدتُ أنني شعرتُ بشعرها يداعب رقبتني. أردتُ الانحاء جهتها
أيضًا، أن أسمع لنفسي بالاسترخاء بجانبها، لكنني خشيتُ أن يجعلها

ذلك تقفزُ بعيداً، فاكتفيت بلحظة الراحة الطفيفة تلك. حلقت الطائرة في سماء مظلمة، وعلى الرغم من أن جسدي توجّع وارتعش من شدة الإرهاق، إلا أنني لم أتمكن من النوم. لذلك حاولتُ الجلوس ساكناً مغمض العينين، وإبقاء ذهني فارغاً (لكن فرصة إحداث ذلك كانت ضئيلة جداً!).

وقد أتبوني أكثر قليلاً عند عودتي، قائلين إنه ليس عليّ أن أكتب وأتعامل مع الأمور بشكل سيّء. أو على الأقل ذاك ما قاله أكبر، فيما جلستُ والدتي في توبيخ صامت، وانشغلت رقية هنا وهناك طوال الظهيرة. كان من الصعب عليهم الاستماع إلى مثل هذه الأخبار المحزنة، ومعرفة الإحراج الذي سيعقب ذلك مع عائلة صفية. ألا يمكنني تفهّم هذا؟ في المقابل، قلتُ بعض الأشياء التصالحية بهدف التهدئة، وهو الشيء الذي بدا أن كلّ ما فعله هو تشجيع والدتي على العودة إلى تأنيسي من جديد. ألم أفكر بأحد غيري؟ ما الذي راود خلدي لأقدم على مثل هذا الشيء الجلل؟ الزّواج من انجليزية بعد كلّ الذي حدث! تساءلتُ عمّا يمكن أن يعنيه هذا، لكنني لم أكرث. عنت بذلك والدي، على ما أعتقد. ثمّ لماذا لم أخبرهم؟ ألم أفكر في أنّ الطفلة ستشعر أنّهم تخلّوا عنها وهجروها؟

أن تشعر أميليا بالهجر والتخلي؟ لأنّها حرّمت من معرفة وجودهم المتلائي؟ اسمعي يا أمّي، إنّ لديها التّلفاز، ومشغل الأقراص المدمجة خاصتها، وجيشاً من الصّبية الذين بإمكانها، إن هي اختارت ذلك، أن ترضي معهم أعتى خيالاتها. الفتاة في عنصرها الطّبيعي، إنّها تنتمي. لكنني لم أقل أيّاً من ذلك. أردتُ فقط الابتعاد عن كلّ تلك الدراما، والعودة، بينما كان لا يزال هناك وقتٌ لذلك؛ لم أستطع أن أتخيّل كيف سيمكنني أن أجتاز اليومين الباقيين اللذين فصلاني عن رحلتي.

لم يرد أيّ إعلان في نشرة أخبار ذلك المساء، كما أنّ الشائعات التي ردّدها رئيس الفرع بخصوص سقوط رئيس الوزراء كانت بشكل واضح مبالغاً فيها، ذلك أنّ القائد الرجولي بشخصه ظهر بعد النشرة بخطاب آخر ملأته الكلمات النبيلة والسّخط المصطنع. وكما حدث من قبل، لم يقل شيئاً عن أزمته، عدّاً عن غموض وازدواجية عرضية في المعنى سحب ذلك بنظرة يصعب فهمها، ووقفه شفقة على الذات بشفّة سفلى متدلّية. بدأتُ أحبه وأحبّ قدرته على إرباك التنبؤات عن أقوله، وجعل ظهوره الليلي في الغرفة الأمر يبدو وكأنّنا في وسط نزاع عائليّ حميم. حاولتُ تذكير نفسي بأنّ هؤلاء كانوا أشخاصاً حكموا على معارضيتهم بمائة وخمسين عاماً سجناً، وجعلوهم يمشون حفاةً على شظايا الزجاج، وأنّهم كانوا الأشخاص أنفسهم الذين أولجوا خراطيم رشّ الحرائق في مؤخراتهم قبل أن يفتحوا الصّنبور. لكن لم يسعني إلّا الإعجاب بصدقه الذي لا يعرف الابتسام، والفظاظة المطلقة التي قدّم بها بقلق شديد ابتداءً بعد ابتداء، كما لو أنّ ما أخبرنا به تطلّب تفكيراً أو قناعةً أو كشفًا عن الذات لا يتزعزع.

أحبّ النّاجين العنيدون الماكرين، وأتمنّى شخصياً أن أكون واحداً منهم. توجّهتُ إذن في اليوم التّالي إلى مكتبه لأعرب عن تقديري وإعجابي بإصراره ولأتمنّى له أن يقضي وقتاً ممتعاً به. لم أتوقّع أن يُسمَح لي بالدخول إليه، بمجرد الذهاب هكذا لزيارة رئيس الأمانة (وكان الرّجل شديد الانشغال، بحقّ الله)، لكن بالطّبع سُمح لي. كان مكتبه في فوجا، قريباً من الفندق الذي به حامل مظلة على شكل قدم فيل مفقودة، والذي أمضى أكبر ساعات عمله في التّخطيط لترميمه كي يستعيد كامل إمكاناته السّياحية حين يرد التّمويل من المانحين.

كان هنالك كشكٌ مقابل الفندق يبيع بطاقات بريدية مال لونها إلى البني من القدم، أبرزت المواقع الجميلة في جزيرتنا، بعضها مبان وحدائق تحولت منذ ذلك الحين إلى أنقاض ويقع غزاها النبات وعاث فيها. مكثتُ هناك، أتنفّس وسط رائحة الركود والتعلّق، ركودٌ وتعلّقٌ زمنٌ أبقيَ عليه بعناد كاملاً مثل حشرات وقعت في جرة زيت وحفوظ عليها، مثل أعصاب ترتعش في عنبرٍ يبرد ببطء.

كان المكتب فيلا واسعة بمعزل عن الطريق، طوقها سورٌ خفيض أبيض اللون. بين السور والفلا بستانٌ من أشجار الفاكهة كاملة النمو: أشجار برتقال، وتّفاح⁽³⁸⁾ ورمّان. كانت قد صودرت من ملاكها الحقيقيين منذ سنوات. نسيْتُ الآن من كانوا، لا بدّ وأنهم بعض الطّفيليين الأثرياء الذين بنوها من نهب النّاس؛ على الرّغم من أنّي أتذكّر جيّدًا إغراء تلك الأشجار المثمرة الرّهيّب عندما كنت طفلاً، والكلب القلق الذي كان يجول تحت تلك الأشجار على الجانب الآخر من السور. حتى وإن توقّفت لتشتّم فقط رائحة الفاكهة والزهور، كان يعتري ذلك الكلب الجنون، حارسًا أمينًا للأقلية الحاكمة. لكن لم يبق هناك الآن أيّ كلب، وحده رجلٌ يحمل سلاحًا، وعلى وجهه ندوبٌ تشير بطريقة واضحة إلى أنّه لم يكن من مواليد فوضانا، بل من مواليد البرّ الرئيسي على الضّفة المقابلة. نحن نتحدّث هكذا، أو هكذا كنّا نفعل. إنّهُ ليس واحدًا منّا، مثل اللّورد جيم⁽³⁹⁾، غير أنّ اللّورد جيم كان واحدًا منّا بالطّبع، وفي هذا جوهر القصّة بأكملها، ومآلها. كيف يمكن لشخصٍ كان بشدّة واحدًا منّا، ابنُ قسّ في هامبشاير، بحق

(38) بالعربية في النّص.

(39) بطل الرواية التي تحمل العنوان نفسه، للأديب الإنجليزي، بولندي الأصل، جوزيف كونراد.

المسيح، أن ينقلب علينا إلى حدّ التخلي عن سفينة محمّلة بالحجّاج فقط لإنقاذ حياته البائسة؟ صحيحٌ أن سبب الذّعر النّاجم عن التّخلي عن السفينة كان القبطان الألماني الصّახب، لكنّ هذا لا يبرّر ذلك التّصرّف، من كان ليصدّق يوماً أنّا نملك الحقّ في حكم العالم إذا كنّا قادرين على الاهتمام بهذا القدر من الاحتقار بحياتنا التّافهة؟ هذا ولم يكلف أحدٌ نفسه عناء إخبار الحجّاج بأنّ السّفينة كانت تفرّق، حين تركوا على متنها لمصيرهم. وبعدها، لم تفرّق السّفينة حتّى؛ بل أنقذتها البحرية الملكية وسحبها إلى خليج عدن. العار على عبء الرّجل الأبيض!

لكنّ الجنديّ في فيلا رئيس الوزراء لم يكن واحداً متّاً، وقد انتزع بندقيته الأوتوماتيكية من على كتفه بلا مبالاة عرضية لدرجة بدا واضحاً أنّه لم يعتقد نفسه سيضطر لاستخدامها. اعتقدتُ أنّ من واجبي إبلاغ رئيس الوزراء عن ذلك. قد يهمّه الأمر ذات يوم. على أيّ حال، أخبرته أنّ لدي موعداً لمقابلة رئيس الوزراء، وابتسمتُ له ابتسامة عريضة. ردّ لي بمثلها وسألني من أين أتيت. أجبتُ لندن، الشّيء الذي جعله يتسم ابتسامةً أوسع. بعدها، أعاد بندقيته الأوتوماتيكية على كتفه وأوماً بالإيجاب. بالنّسبة لرئيس وزراء في خطر، كانت بالتأكيد الترتيبات الأمنية مخفّفة من حوله. قال: «لا تكتب عنا الأكاذيب». فسألته: من سيصدّقها؟ وهو ما جعله يعبس ويشدّ حزام بندقيته. سألني: لأيّ صحيفة تكتب؟ أجبتُه «الرّائد الأفريقي» ثمّ مضيتُ قدماً. لم يثر الحارس أيّ ضجة، وتخيلتُه يهزّ كتفيه وحده؛ فقد تجاوزته، وأصبحتُ مسؤوليّة شخصٍ آخر الآن.

عند بوابة الفيلا وقف حارسٌ آخر، وكان أكثر صرامةً في استجوابه من سابقه، ما جعلني أشعر بالارتياح على سلامة رئيس الوزراء الأمنية. بدا رجلاً قويّ البنية في أواخر الثلاثينيات من عمره، بوجه حازم عليه آثار التّعمة وشارب لامع: رجلٌ ذو خبرة، ولا شك، مع عائلة وأقارب يعتمدون عليه. عندما قلتُ إنّ لديّ موعدًا لمقابلة الرئيس، هاتف سكرتيره الذي أكّد بالطّبع أنّي كنتُ ألّق الأكاذيب. قال الحارس إنّّه لم يكن لرئيس الوزراء أيّ مواعيد ذاك الصّباح، وازداد صرامةً، كما بدا غير متأثر البتّة بسحر ابتسامتي العريضة. وظلّ غير متأثر حتّى بعد أن أخبرته أنّي أتيتُ مباشرة من لندن خصيصًا لأجل هذا الموعد. حسنًا، لم يبق غير متأثر تمامًا، ربّما ارتعش حاجباه بحركة طفيفة، لكنّه ظلّ مصمّمًا تمامًا كما كان من قبل، وإن حدث أيّ تغيير فقد تشنّجت عضلات فكّه واكتسب صوته حدّةً عصبية وازداد قساوة. لا بدّ وأنّ هنالك خطأ ما أيّها الضابط، أصررتُ.

ما الذي قد يفعله إن أغضبته؟ يطلق النّار عليّ؟ يجعلهم يرمون بي في عرض البحر لتلتهمني أسماك القرش؟ يرحّلني من البلد؟ كشخصٍ غير مرحّب به⁽⁴⁰⁾. أتذكر أنّنا تعلّمنا هذه العبارة الجديدة بعد الاستقلال عندما اكتشف الأجانب مدى حساسية إهانة حكومتنا: طُرد مهرّج أوروبي بسبب ذهابه إلى حفلة تنكرية مرتديًا تنورة من العشب وفي أنفه عظم، وأعيد مدرّسٌ أمريكي ضمن مهمّة فيلق السّلام إلى بلده لأنّ صبيًا بائع هوى كان يعيش معه؛ كما اكتُشف شخصٌ ما في المفوضية العليا البريطانية يستخدم الأوراق النّقديّة في تزيين فيلا وزير التجارة الجديدة، ما كان أمرًا مبالغًا فيه بعض الشيء، على ما اعتقد.

(40) Persona non grata، باللاتينية في النّص.

وبعيدًا طُردوا جميعًا، أشخاصًا غير مرغوب فيهم. لذلك تساءلتُ ما إذا كنتُ سأصبح من خلال سلوكي المصمّر معرضًا لتنفيذ ما يترتب عن هذه العبارة. من شأن ذلك أن يجعل منّي منفياً بدلاً من كوني مهاجرًا، وسيمنحني المصادقية لاعتلاء المنصّات ومناشدة الناس للتخلي عن راحتهم الصّغيرة والانضمام إلى النضال السياسي. هذا إنْ كلّفتُ نفسي أصلًا عناء الاهتمام.

«هل لي بكلمة مع السّكرتير؟» سألت، محاولاً للمرة الأخيرة، إن كان هنالك شيء يُرجى. إذا كان تغيّر شيء فذلك أنّ الحارس بدا وكأنّه هدأ، وبدا أنّه صار في الاستبسال خطرٌ ضئيل. علاوة على ذلك، وإلى غاية تلك اللّحظة، خاطبتُ الحارس بالإنجليزية، أملًا في أن يجعلني ذلك أبذو أكثر إثارة لاهتمام رئيس الوزراء في عينيه. لكنّي الآن تحدّثتُ بالسّواحيلية، في مجرد تجربة صغيرة. نظرَ إليّ بنظرة ثاقبة ثمّ ابتسم ابتسامة عريضة، ولم أستطع إلّا أن أبتسم بالمثل. «هل يمكنني مقابلته؟ ربّما يمكنني أن أشرح».

قال: «ألا، متو ويتو، أنتَ واحدٌ منّا. ظننتك من الهنود الغربيين، أو أمريكيّا، واحدًا من أولئك الأوروبيين الدّاكنين. أعطني اسمك، وسأحدّث مع السّكرتير مرّة أخرى».

عندما أخبرته عن اسمي، تمعّن فيه ثمّ نظرَ إليّ مدّة طويلة. كنتُ أعلم ما سيّلي ذلك. قال، ووجهه يتوهّج من البهجة: «لقد درسنا سويًا في ابتدائية دراجاني، ألا تتذكّرني، محمّد خميس، كنتُ أصغرُك بأربع سنوات. لقد مرّ وقتٌ طويل، أخي، لكن بما أنّك قلت اسمك الآن، أستطيع أن أرى جيّدًا أنّه أنت. ماذا كانت إذن مخاطبتك لي بالإنجليزية، نوعًا من التّنكر والتمويه؟ قرّبو، بوانا، أهلاً وسهلاً».

لم أسمع أنك عدت، لكنك جئت لأحييك. الحمد لله، تسعدني رؤيتك من جديد».

الآن وقد ذكر ذلك، اعتقدت أنني تعرقت عليه بدوري، لكنّ الشعور نفسه راودني بخصوص العديد من الأوجه التي لم أستطع وضع أيّ أسماء عليها، حتّى بدأت أعتقد أنني كنت فقط أبالغ في تعويض الطريقة التي خدعني بها مرور الوقت وسلبني ذاكرتي، وشوش ماضيّ بعد غياب بهذا الطول. على أي حال، ما لبثت أن وجدْتُني بين يدي السكرتير، والذي كان صغيراً جداً يكاد يكون صبيّاً، جرفته حماسة محمّد خميس لاجتماعه بزميله القديم في الدّراسة، والذي لم يبق أمامه خيارٌ سوى الاتّصال برئيسه وسؤاله عمّا إذا كان لديه الوقت لرؤيتي.

في آخر المطاف تمكّنتُ إذن من مقابلة الرّجل الذي كنتُ أشاهد (لأنّه كان شديد الشفافية) سلوكه الوقح للبقاء على قيد الحياة والتّشبث كلّ ليلة على التّلفاز، بإعجاب ما انفكّ يزداد رغماً عني. خرج من مكتبه بيد ممدودة للمصافحة وابتسامة عريضة واثقة مستقرّة بثبات على محيّا، وتقدّم جسده الرّياضي الممشوق بأريحية نحوي. صدمني مدى شبهه في هذا السّياق برائد الفصل الذي عرفته سنوات من قبل، أكثر من شبهه بذلك الخطيب النّاري في صندوق التّلفاز الذي اكتشفته مؤخّراً. تذكّرتُ في تلك اللّحظة بالذّات يومَ لقاء رياضي أقيم في المدرسة منذ سنوات عديدة. حظيتُ بشرف الانتماء إلى جمعية التّصوير الفوتوغرافي. آنذاك، كنتُ أحلم بأن أصبح مصوِّراً إعلاميّاً عالمي الشّهرة، غير أنني لم أكن حينها أمانع من التقاط صور جوازات السّفر لزملائي في المدرسة مقابل بضعة شلنات،

أو من تطوير أفلامهم وطباعتها بسعر مخفض. بغض النظر عن كل هذا، أجرت جمعية التصوير الفوتوغرافي مسابقة لمعرفة من يمكنه التقاط أفضل صورة حركية ضمن اللقاء الرياضي. كان ذلك مشروعًا مثاليًا للاستعراض وانتصار الإرادة، لذلك قرّرت المشاركة كمزحة. كنتُ سأركّز على الخاسرين والمكافحين، وألتقط معاناتهم، آلامهم ويأسهم لحظة تخذلهم قواهم، وهم يتوقعون السخرية التي ستلاقيهم عند خطّ النهاية حين يصلون إليها لاهثين ومتعثّرين. أو ما كان أفضل من ذلك بكثير، وهو أن ألتقط صورةً تفضح خادعًا أو اثنين من أولئك الذين لا يحاولون (ولكنّني سأكون واحدًا منهم إن لم أُعَفَ بسبب مسابقة التصوير الفوتوغرافي)، بل يكتفون بالعدو يلهثون ويتأوّهون على بعد نصف ميل خلف الجميع. عندما حان وقت معالجة فيلمي، أدركتُ أنّي استسلمت للروح الرياضية لرئيس الوزراء القادم وأدائه، والتقطتُ صورةً فوزه بسباق 1500 متر مثير، ذراعه ممدودتان في وضعية نصر، ورأسه مائلٌ إلى الخلف، وابتسامةٌ رائعةٌ على وجهه المقلوب. وضعتُ تلك الصّورة كإحدى مشاركاتي المفضّلة، لكنّه لم يكن لها بالطّبع أدنى فرصة. لم يكن لدى أحدٍ منّا أدنى فرصة، فقد فاز بالجائزة رئيس الجمعية الذي كان في الصّفّ السّادس، رئيس نادٍ، وابن عمّ مدير المدرسة (الذي كان حكم المسابقة الوحيد).

وفيما تقدّمته إلى مكتبه الواسع الفسيح، والذي تكدّست فيه أوراقٌ بدت مهمةٌ وضعت على مكتبه الكبير، ذكّرتُ نفسي بذلك الشاب الذي قبل نسخةً رديئةً من تلك الصّورة بسرورٍ محرّج، وحاول أن ينسى مساعيه السّاخرة ليبقى رئيسًا على مخازن مؤن البلاد الفارغة، والمراحيض المحظورة، من خلال إقناعنا بأنّ أسيادنا الأفضل منّا كانوا

على وشك إغراقنا بتمويل محظوظ طالما ظلّ هو في منصبه لاستلامه شخصيًا. وحينها، سيصبح بإمكاننا ترميم فنادقنا، وجلب السيّاح، والدّخول في فترة رخاء وعدالة للجميع، والعيش في سعادة وهناء دائمين.

عندما جلسنا متقابلين على كراسٍ ضخمة، قال: «أخبرني عمر مالك عن عودتك. يشرفني أنّك تمكّنت من تخصيص وقتٍ لزيارتي». أجبته: «بل كلّ الشّرف لي».

فأردف بابتسامةٍ طيبةٍ تمرّس عليها: «يتشرف إذن كلّ منّا بالآخر. هل تعرف أوّل شيءٍ تبادر إلى ذهني عندما أخبرني أنّك هنا؟ من دواعي سروري أن تعود أفضلُ عقول بلدنا إلى الوطن. هذا ما فكّرت به. هنالك الكثيرُ ينتظر إنجازَه هنا، وأتذكّر كم كنتَ تلميذًا لامعًا وذكيا عندما كنّا في المدرسة معًا، ومقدار كلّ ما حقّقه منذ ذلك الوقت. لكننا نحتاج كلّ هذا الذّكاء هنا، لا أن يُضيّع على الإنجليز. طلبتُ من عمر أن يخبرك بهذا، وأن يقترح عليك شيئًا يستحيل عليك مقاومته. وأتمنى أن يكون قد نجح في مهمّته».

ابتسمتُ ردًّا على ابتسامته وانتظرت. حقًّا، لم أتمكّن من فهم ما كانا يخطّطان له. قول إنّي كنتُ تلميذًا لامعًا كان مبالغة في التقدير، لكنني كنتُ مستعدًّا لتقبّله، خاصّة في ظلّ الظروف الأليمة الحالية التي أصبحت فيها اللّعنات والإساءة والشّائم ووجع القلب نصيبي؛ غير أنّ قوله كلّ ما حقّقه منذ ذلك الوقت، لا بدّ وأنّه استهزاء، أو مجاملة، أو مجرد هراء، شيءٌ يُقال هكذا عرضيًا لقتل الوقت. قلت في نفسي: «لماذا لا تعمل على إصلاح المراحض بدلًا من الدّردشة معي؟ لماذا

وافقت أصلاً على مقابليتي؟ أليس لديك عملٌ تقوم به، بلدٌ تديره، خطاب الليلة لتفكر فيه؟

مخففاً بلباقة في إخفاء خيبة أمله، قال: «أستطيع أن أرى إذن أنه لم ينجح تمامًا في مهمته. وسأضيفُ لو سمحتَ توسلاتي لتوسلاته. نحن لا نحتاج فقط عودتك، بل توجد فرصٌ هنا لكوادر متفانية. لا تتخلّوا عنا».

«أنا أشاهدك على التلفاز في الليالي القليلة الماضية» قلتُ متسائلاً إن لم أكن سأقدم على فعل غبيّ ومتهور، شيء قد تترتب عنه رحلة طيران عسيرة من وطني الأم. لم أكن متأكدًا، لكنني ظننت أن عينيه بدأتا تتحركان على الجانبين قبل أن يوقفهما، وكأنه توقع أن يكون أحدهم واقفاً على كتفه يسترق السمع على محادثتنا. «لقد كانت خطاباً ملهمة. هل ستلقي خطبةً أخرى الليلة؟ تبدو آفاق التمويل جيّدة».

تفادى الموضوع بلطف، غير أن عينيه ظلّتا قاسيتين، مترقبتين. لم يفاجئني ذلك. كنتُ سأصرخ في وجه الوقاحة لو كنتُ مكانه، وكنتُ أعلم أن بإمكانه أن يجيد الصّراخ بسخط. فقد كان بعد كلّ شيء القائد، حتّى وإن كان على رأسه قادةٌ أكبر منه، الرئيس والرئيس الفيدرالي، بإمكانهم إيقافه بين الاجتماعات أو مجالس العريضة أو ما همّ ما كانوا يفعلون عندما لم يكونوا يلقون الخطب في مجلس الأمم المتحدة، أو في المؤتمرات الدولية المخصّصة لمستقبل إفريقيا.

قال، وهو يبذل قصارى جهده ل يبدو صادقاً: «دعني أخبرك. أحياناً تكون هذه مهمّةٌ وسُمها الجحود. نحن نبذل ما في وسعنا لدفع الأمة للأمام والنّهوض بالبلد نحو التّقدّم، ولتغيير الأمور إلى الأفضل. نفعل

هذا بأفضل ما أوتينا من جهد وأقصى تفانينا. هل تعتقد أن جهودنا تُقدَّر في الأخير؟ حسنًا، معظم المواطنين يقدّرونها، على ما أعتقد. أنا أو من بصدق بهذا- لكن هنالك دومًا المتهربون، أشخاصٌ يفضلون تدمير مستقبلنا بأكمله من أجل مكاسبهم التافهة. أنا فقط أحاول تجديد هذا الحماس للتقدم الذي هو سمة شعبنا المميّزة، إقناعهم بالتشبث، وعدم الاستسلام، بل الجِدّ لتحقيق المستقبل الذي نعرف أننا نستحقّه.

«إذن سيكون لك ظهور آخر الليلة»، قلت مبتسمًا لعينه الحازمتين.

فاستبعد الموضوع بابتسامة مصطنعة. قال: «سمعتُ أنك تزوجت من امرأة إنجليزية»، وهو يتسم بتلك الطريقة الوقحة الساخرة التي يتسم بها الرجال عند حديثهم عند انفرادهم عن النساء. ثم استطرد قائلاً: «سمعتُ أيضًا أنك رفضت الزواج من صفية هلالِي. إنها امرأة جميلةٌ جدًّا، ويريدها كثيرون. الخيار خيارك طبعًا، لكن لا يسعني القول إنّي أعتقد أنه خيارٌ حكيم. أتفهّم أن يكون أهلك مستائِن للغاية، ولست متفاجئًا على الإطلاق. يبقى أن لكلّ حياته الخاصة».

فهمتُ في تلك اللحظة بالذات (ولا يعني هذا أنني لم أفهم من قبل؛ لكن هناك بعض الدروس علينا أن نتعلّمها مرارًا وتكرارًا، ومع ذلك ننساها بسهولة، وننقع أنفسنا بالخوض في شيء مُحسّن ومفعم بالأمل) أن مخازن الطعام ستظلّ فارغة، والمدارس دون كتب، وأنّ عودًا قاسية ومضلّلة ستملأ الجو، وأنّ العدالة ستظلّ مجرد كلمة أخرى تنهقها أفواه الحمير التي تحكمنّا، وبالطّبع، أنّ المراحض ستبقى مسدودة لفترة طويلة قادمة. إنّ أوجد رئيسنا، مع كلّ ما كان

يُنْتَظَرُ منه أن يفعل، الوقت للاهتمام بقضايا وجودي الحميمة المثيرة للشفقة، وبلووم عائلتي الذي لا يوصف، فقد عني ذلك أنه لم يبق الكثير ليُرْجَا غير الأمل أن التمويل من المعهد الثقافي الاسكندنافي سيأتي ليبقي سفينة الدولة المتداعية طافيةً. إذا لم يمكن لرئيسنا -الذي عُرِفَ بأنه الأفضل من بينهم جميعاً- إلا الانشغال بمثل هذه الثروة عن حياة الآخرين، فلا يمكن توقع شيء من البقية. لقد تحوّلوا منذ أمد إلى أعضاءٍ للاستهلاك والولوج، أدوات إمساكِ همّها الوحيد إشباع الذات.

كانت السماء قد أضاءت لتوها عندما بدأ الطّاقم في الانشغال الحفيف من حولنا، معيدين إنارة الإضاءة، توزيع مناشف الوجه، ومعلنين عن وجبة الإفطار. لسوء الحظ، أيقظوا في حركتهم العجوز السمين الذي أغلق فمه وشنّ هجوماً جديداً من الأبخرة السامة من نهايته السفلية. لعلّ وصفها «بالطّازجة» سيكون خاطئاً، لكنّها كانت قويّة وحيوية على أيّ حال. ارحمني، همستُ، لكنّ كلّ ما فعله كان أن ألقي بنظرة من حوله باشمئزاز، فاتحاً شفّتيه من جديد للحظة ليطلق المزيد من العطور الفاسدة. لا شكّ في أنّ الرّجل كان جاداً في مهمّته. خطر لي فجأة أنّ الرّجل لم يكن ربّما يضطرّ على الإطلاق، بل كان حاملاً لكيس فغر القولون على مستوى بطنه، وأنّه من المحتمل أن أكون قد قضيتُ اللّيل بطوله جالساً وكيسٌ من البراز بجانب يمناي. هرعتُ إلى المرحاض لأنقياً وأفرش أسناني وأنتعش بشكلٍ عامّ في الجوّ المختمر لمرحاض طائرة بعد عدّة ساعات من التّحليق. لمحتُ نفسي بنظرة خاطفة في المرأة، ما شاء الله، ما ظننتني رأيتُ أقبح من تلك صورةً منذ سنوات.

«لقد سألتني شيئاً ما من قبل لم يتسنّ لي أبداً الإجابة عليه، لكنني فكرتُ فيه خلال الليل»، قالت إيرا عندما عادت من المرحاض وتسَلّقت لتجتاز الرّجل التّنّ العجوز الذي رفض أن يحرك ساكناً كي يترك أيّاً منّا يخرج أو يدخل، ما كان في الأخير سواء. ربّما لم يكن الأمر كيسَ فغر القولون، بل خسة ومرارة طبع تسبّبتا في تآكل جسده وتعقّنه. «سألتني كيف كانت الأمور بالنسبة لي أوّل ما وصلت إلى إنجلترا. اعتقدُ أنّه لا يمكن أن يكون لهذا السّؤال إلّا إجابة واحدة. كيف يمكن لفتاة هندية في العاشرة من عمرها نشأت في نيروبي أن تشعر حيال وصولها إلى إنجلترا في أواخر الستينيات؟»

«هذا سؤال، لا إجابة»، قلتُ بدهاء، حين لم يتمكّن المدرّس بداخلي من مقاومة مثل هذه الفرصة الواضحة، لكنني قلت ذلك بلطف، وابتسامة مبالغ فيها، وبريق في عيني.

قالت: «سؤال أنا على وشك الإجابة عليه إن منحتني الفرصة. رغم أنّ الأجدد بي ربّما هو أن أعيد النّظر إن كنت ستتحذلق كثيراً هكذا». كانت تبتسم بدورها، وعيناها تقدحان. عادةً ما أكون بطيئاً في التقاط التّلميحات، لأنّي كريمٌ بطبعي، لكنني فهمتُ هذه النّقطة التي أصابت الصّميم. والمتحذلق هو من جعل ذلك ممكناً، غير أنّ الكلمة إهانةٌ مرعبةٌ لشخصٍ في مهنتي، والتي يُفترض عموماً أنّها عرضةٌ للميل إلى هذه الصّفة، ناهيك عن الشّعور بانعدام القيمة الشّخصية الذي يصاحبها.

تابعت: «كلّ شيء كان غريباً، بالطبع. لم يكن مرعباً أو أيّ شيء من هذا القبيل، لكن هادئاً بشكل غريب، وفعّالاً. بدا الجميع يعرفون تماماً ما كانوا يفعلون، وأنجزوا أعمالهم بكلّ هدوء. كان هذا انطباعي

الأول، حتّى ذهبْتُ إلى المدرسة. في نيروبي، كنتُ أرتاد مدرسةً خاصّة بالفتيات الهنديات، درسنا فيها باللّغة الإنجليزيّة، وجعلونا نعتقد أنفسنا أفضل ممّن كانوا حولنا من التّاس، الأفارقة. أنت تعلم، أنّهم كانوا أغبياء وأقوياء وخطيرين، لكن لم تكن لديهم أدمغة. قضبان كبيرة حسنًا، لكن لا أدمغة. فكّر آباؤنا بهذه الطّريقة على أيّ حال، لكنّ المدرسة جعلتنا نشعر بأنّنا متميّزون، موهوبون، جملاء. كنّا نعتبر أنفسنا من درجة الأوروبيين نفسها ومقامهم. حسنًا، حسنًا، ليس من الدّرجة نفسها، لكن أنا كنّا نشبههم أكثر ممّا كنّا نختلف عنهم. ما كان باستطاعتي التّعبير عن هذه الفكرة باستعمال هذه الكلمات بالذّات وأنا في العاشرة من عمري، لكنّي أعلم أنّ ذلك كان شعوري، وأنّ والديّ أو أشخاصًا آخرين ممّن عرفت قالوا على الأرجح شيئًا من هذا القبيل. حتّى أنا كنّا نتحدّث باللّغة الإنجليزيّة نصف الوقت في المنزل. لذلك -لا تضحك - اعتقدت أنّي بطريقة ما بذهابي إلى إنجلترا كنت عائدةً إلى الدّيار.

عابتني بابتسام: «أنت لم تضحك، كان الأخرى بك أن تفعل. عندما بدأتُ المدرسة... كان الأمر فظيعةً. لم أستطع فهم ولا كلمة قالها لي أيّ كان. كان هناك الكثير من الضّوضاء والارتباك والروائح. نضحت من الجميع رائحة التّعرق والطّعام المطهوّ على البخار. أعناق متّسخة في كلّ مكان، ثنيات من الأوساخ، أعناقٌ خطّطتها حلقاتٌ من العرق المتبيّس. هل يمكنك تخيل ذلك؟ بدا جميع الأطفال الآخرين مفعمين بالطّاقة ثمّ... ثمّ جاء التّناوب بالألقاب بالطّبع. لم أسمع بمعظمها من قبل: «أجنبيّة»، «زنجيّة»، راكون، «كلبة - bitch» (باكستانيّة). لم أسمع أبدًا كلمة «bitch» تُستخدم بهذه الطّريقة أبدًا

من قبل. كانت الدّناءة صادمة، حالها حال العنف العرضي والتنمر. هي قصّة مألوفة، على ما أعتقد، لكنّي كنتُ أنفجر باكية ما إن أصل إلى المنزل، وأصرخ في وجه والديّ بأنّي لن أتوقّف حتّى يوافقا على العودة إلى نيروبي. عاد أخي الأكبر إلى المنزل بقصص مماثلة، ولا بدّ وأنا شغلناهما بهذه الطّريقة لعدّة أمسيات، ونحن نفرغ شجون بؤسنا ونطالبهم بتعاطفهما وحضنهما. لم يخطر ببالي أبدًا أنّهما قد يتألّمان بسبب الشّعور بالذّنب، لا، ليس إلّا بعد ذلك بوقت طويل. من الواضح أنّي اعتدتُ على المدرسة في الأخير، وعندما حصل والدي في النّهاية على وظيفة، انتقلنا إلى إيلينغ وذهبْتُ إلى مدرسة شاملة، ما كان أفضل بكثير.

«رغم ذلك، لا أعتقد أنّي تجاوزتُ تلك الأيام الأولى على الإطلاق. حتّى بعد مرور كلّ هذه السنوات، لا يمكنني التّغلب على الشّعور بكوني غريبة في إنجلترا، بكوني أجنبية. أحيانًا، أعتقد أنّ ما أشعر به تجاه إنجلترا هو حبّ مخيّب».

ابتسمت مرّة أخرى، معذرة، وكأنّ لسانها زلّ بشيء حميميّ ومغزٍ. بدت يائسة لدرجة أنّي قمعت الكلمات الساخرة التي كانت على شفّتي. حبّ مُخيّب لتلك العاهرة العجوز التي تحترم نفسها، القدرة والجاهلة التي ليست لديها أدنى فكرة بعد حياة كاملة من الخطيئة! ثمّ فجأة أدركتُ أنّي أفهم تمامًا ما عنته. وسألتها: «هل كنتِ متزوجة من إنجليزي؟»

حدّقت بي وعيناها واسعتان من الدهشة. ثمّ لحظة بعدها نذاهما الألم. لم يدم ذلك إلّا ومضة خاطفة، قبل أن تنظر إليّ من جديد بابتسامة تشكيك. «يا لذكائك. كيف استطعت أن تخمّن؟»

«كان بسبب الطريقة التي تحدّثت بها عن إنجلترا باعتبارها حبًا مخيِّبًا. بدا الأمر وكأنك قصدت أكثر من مجرد المكان».

أردفت: «أفترض أنّه صارَ يعني إنجلترا بالنسبة لي في السّنوات التي كنّا فيها معًا، رغم أنّي لم أعتقد ذلك حينها»، قالت ذلك وهي تنحني للخلف، وتميل رأسها كما لو كانت تعاود النّظر إلى مسافة بعيدة، وهي تسألني عن اقتراحي حول الحياة التي عاشتها. «لا يبدو أنّي أفكّر كثيرًا في الأشياء وقتَ حدوثها لي، أليس كذلك؟»

سألت: «ما الذي حدث؟» وتساءلت إن لم أكن قد تماديت. تاهت أيضًا، لكنّها بعد لحظة تكلمت.

«لقد تركني. قبل نحو السّنة. التقى بامرأة أخرى».

منحتني ما كان من المفترض لها أن تكون ابتسامة شجاعة، لكنّي رأيتُ شفّتها ترتجف وعينيها تدمعان من جديد. قلت متداركًا: «أنا آسف». بيد أنّها لم تستطع منع العبرات من الانهمار من مقلتيها. مدّت يدها لحقيبتها ومسحت وجهها برفق، وبعد لحظة، استعادت ما يكفي من السيطرة لإيقاف الدّموع.

ثمّ استطردت بالقول: «أنا آسفة. حدث كلّ هذا منذ وقت طويل جدًّا، لكنّه يعود إلى السّطح أحيانًا، ويؤلم بشدّة. من الأفضل ألاّ أتحدّث، وإلاّ فسأبكي من جديد».

انشغل موظفو شركة الطّيران بخدمتنا، استعادوا الصّواني وقدموا لنا المزيد من الشّاي والقهوة. أمكنني الشّعور بإيقاع محرّكات الطّائرة يتغيّر وخمّنت أنّنا بدأنّا في الهبوط. اعتقدتُ أنّ من واجبي أن أقول لها شيئًا عن إيما، أن أعطيها شيئًا مقابل اعترافها وبوحها، أن أقول لها

إنِّي شعرتُ بصدى ذلك الحبِّ المخيّبِ في قلبي المعتلِّ، لكنِّي لم أعرف من أين أبدأ.

أكملتُ: «عارض والدي الزّواج بشدّة. أخبرته إنني في السّابعة والعشرين من عمري، وإنّ بإمكانني أن آخذ قرارات مثل هذه بنفسِي. وإنّ ما شعرت به تجاه ذلك الرّجل كان شيئاً ذا قيمة، وإنّه لم تكن لديّ نيّة التخلّي عنه. لم يحضر الزّفاف، ومنع والدتي من القدوم، ثم بعدها رفض رؤيتي. علمتُ من والدتي أنّه أصيب بالاكْتئاب لدرجة أنّه أهمل نفسه، وبعد خمسة أشهر أصيب بذبحة قلبية أخرى. رأيته في المستشفى أيّاماً قليلة قبل وفاته. في تلك الأشهر القصيرة، تحوّل إلى رجل عجوز وهنّ وضعيف. لم يقل أحدٌ ذلك صراحةً، لكنِّي كنتُ المسؤولة عمّا لحق به».

«لقد فعل ذلك بنفسه» قلت بصوت خفيض، خوفاً من اقتحام حزنها عنوةً، خشية أن أبدو ناقداً في أمور كانت بالنسبة لي حميمة جداً لدرجة أنّه يستحيل عليّ إبداء رأي فيها. لكن لا أعتقد أنّها سمعتني.

أضافت: «ثمّ بعد عشر سنوات، تركني». أشاحت مخفيةً ذقنها في راحة يدها، ونظرت من النّافذة.

لا تظنّ أنّ جاري السّمين ظلّ ساكناً طوال كلّ هذا. فأنا فقط لم أبلغ عن أفعاله الشّجاعة لأنّي اعتقدتُ أنّ ذلك سيقلّل من تأثير كلمات إيرا؛ ولكي أكون صريحاً، فقد صرتُ منيعاً من تلك الرّوائح، فيما ظللتُ معجباً بحجم وتنوّع وكفاءة إنتاجه. عندما صمتت إيرا، تنهّد تنهيدة ثقيلةً علقت فوق رؤوسنا في سحابة كثيفة لبضع لحظات، قبل أن تبدأ في التّزول. مدّ ذراعه وتجاوزني ولمس ذراع إيرا. «أرميني».

قال لها وهو يضرب بيده على صدره. «أسافر حول العالم. من أجل التجارة. جنوب إفريقيا، السعودية، البرازيل وسويسرا. إلى كل مكان أسافر بالطائرة لكن لا أكل لحم. ليس على الطائرة. صداع، بطن، لا نوم. لا لحم، ليس على الطائرة. ابتي تعيش في كندا. أذهب إلى هناك الآن. صلي إلى الرب، سيساعد. لا تصلي لبقرة أو قرد، بل إلى الرب أبانا، سيساعد».

ابتسمت إيرا لتعبّر عن شكرها ثم أشاحت بنظرها من جديد. إذن فقط كان هذا الرجل-الفوّارة الساخنة حاضراً طوال الوقت، جالساً في مستنقع روائح الكريهة، مسترقاً السمع، يدوّن الملاحظات ويحضّر لعظته الصغيرة عن أبينا الذي في السماء. وفيما انسحب وسط ضباب الأبخرة، نظر إليّ بنظرة متجهمة أخرى، ووجهه الممتلئ يتمتم كلمات متقطعة. ابتسمتُ معبراً عن شكري بدوري.

قالت إيرا وهي تميل نحوي أقرب، متحدثة بصوت خفيض: «أنا آسفة على كلّ هذه الميلودراما. لست أدري ما الذي جعلني أتحدّث هكذا... أن... حسناً... أبوح بكلّ هذا... لشخص غريب كلياً. أكره عندما يفعل الناس ذلك لي. لا بدّ وأنّ تخمينك الذي كان في محله هو السبب، فقد فاجأني تماماً».

هزرتُ رأسي بالتقي. «السبب كان وجهي الصّريح والصّادق والمتعاطف. لا تأسفي على ذلك».

استعادت رباطة جأشها وتحكّمت في تعبيرات وجهها للحظة، وعيناها متقدّتان بالمعرفة. كانت الطائرة على وشك الهبوط؛ اتكأت على مقعدي، وأنا أنظر إلى الأمام وأهين نفسي. سألت: «هل كنت متزوّجاً من امرأة إنجليزية؟»

«وما زلت»، أجبتها. ولم أكلّف نفسي عناء الشّرح. «وأثناء تغيّبي، بدأتُ أفهم أنّ هذه هي الطّريقة التي أرى بها إنجلترا. حياتي معها. وبدأتُ أخاف أن نكون قد سمحنا للأشياء بأن تتعقّد كثيرًا بيننا، وأخشى ألاّ أجدها عند عودتي، أن تكون قد رحلت آخذةً معها ما أعرفه من حياتي هنا معها. الأمر أكثر تعقيدًا من هذا، لكنّ ما قلته عن الحبّ المُخيّب بدا لي مألوفًا».

لم يعد هنالك وقتٌ للحديث، إذ كان عليّ أن أركّز على منع روحي من الانفصال عن جسدي في حين صرّت الطّائرة وتأوّهت متقدّمةً نحو الأرض المندفعة. تبادلنا أرقام هواتفنا وسط فوضى رفوف الأمتعة المفتوحة وتدافع الركاب، والذين تجاهلوا جميعًا الطّلبات المتكرّرة بالتزام مقاعدهم حتّى تتوقّف الطّائرة تمامًا. افترقنا مع اقترابنا من بوابة تسجيل الوصول. مددتُ يدي داخل حقّيتي ولم أتمكن من إيجاد المحفظة التي أضع فيها جواز سفري ووثائق السّفر. وضعتُ حقّيتي على الأرض وجثوتُ بجانبها لإجراء بحث شامل، ولم أرفع بصري إلّا لأرى إيرا وهي تخطو بعيدًا لا تعلم، لا تكثرث، عابرةً قاعة الوصول الكبيرة.

قلتُ لشابّة بدت من أصول هندية ارتدت الزي الرّسمي ووقفت في مكان قريب، ترشد الركاب لأيّ طابور كان عليهم الانضمام: «لقد فقدتُ جواز سفري».

كانت هادئةً وعقلانية، غير مهتمةً بمشاركتي رعيي أو التعاطف معه. بإمكانهم إعادتي إلى الطّائرة، حبسي، أو رمي في بحر الشّمال، ما همّها. شخصٌ غير مرغوب فيه. مهاجرٌ غير شرعي. طالب لجوء. لاجئ. سلّمتني إلى حارس أمن بدا بدوره من أصل هندي، اصطحبني

إلى آخر واجهة في رواق مراقبة الجوازات. بدا من الواضح أنه المكان الذي تُساق إليه كلّ الحالات المشبوهة وحالات الاحتيال. ريثما انتظرنا أن يفرغ ضابط الهجرة مع الراكب الذي كان أمامي (والذي بدا فلبينيًا)، ابتسم لي حارس الأمن وقال إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. أنا له أن يعلم؟ فوجهي كان بُنيًا، وكنتُ على متن رحلة قادمة من جنوب خطّ الاستواء، وأردتُ دخول إنجلترا دون الحيازة على جواز سفر. أنا له أن يعلم أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؟

كانت إيما قد وعدت بالحضور لأخذي من المطار، وفكرتُ في أنه سينبغي ربّما عليّ استدعاءها حتّى تتمكّن من إخبارهم بأنني واحدٌ من الأصليين الصّالحين، لا مروجًا للمخدرات أو تاجر أسلحة أو تاجر رقيق بيض. ضابط الهجرة رجلٌ في الثلاثين من عمره تقريبًا، حليق الذّقن، ارتدى نظارة معدنية الإطار وقميصًا أزرق فاتح اللّون. ظلّ وجهه الممتلئ البضاوي هادئًا، ولم تكشف عيناه عن شيء حين استمع لي. قلت متوقّعا منه أن يبتسم: «لقد أضعتُ جواز سفري». ولا بدّ أنّه فكّر في قرارته: ها هو ذا جردٌ مسكين آخرٌ يحاول التسلّل إلى جزيرتنا الملكيّة ذات الصّولجان. «كان معي في الطّائرة، بما أنّهم تحقّقوا منه عندما صعدتُ على متنها، لكنّه الآن اختفى».

وكانني لم أقل شيئًا. سألني: «هل سافرت بجواز سفر؟» متحدّثًا بهدوء وبشكلٍ مباشر، كرجلٍ لم يكن في عجلة من أمره، ليس لديه ما يخفيه، مرتاح مع نفسه.

«نعم».

ثمّ: «على متن أيّ رحلة كنتَ؟» متكلّنا على مرفقيه، مميلًا رأسه قليلاً، وكأنّ بإمكان هذه معلومة أن تكون ذات أهمية بالغة.

«رحلة الخطوط الجوية الكينية.»

سأل: «بأي جواز سفر سافرت؟»

«جواز سفر بريطاني.»

سأل: «جواز سفر بريطاني؟» أومات برأسي بالإيجاب، فرفع حاجبيه في حركة يمكن أن تفسّر بأكثر من معنى. هل كذّبتني أم أنّه كان يقول لنفسه ببساطة: آه عزيزي؟ «ماذا حدث له؟»

«لقد أضعته، أو لعلّ أحدهم سرقه. لست أدري. اسمع، زوجتي بالخارج في انتظاري. هل توجد طريقة لإعلامها حتّى لا تقلق؟»

«هل تحمل معك أيّ وثائق لإثبات الهوية؟» بطاقة انخراط في مكتبة، بطاقة فيزا البنكية، بطاقة استعمال الطّابعة في المدرسة؛ كلّها كانت مع جواز السّفر. «اجلس من فضلك يا سيّدي. سيتعيّن علينا التّحقّق ممّا إذا كان لمكتب الجوازات أيّ أثر بإصداره لجواز سفر يحمل اسمك.»

سألته: «كم سيستغرق هذا الأمر؟»

هزّ كتفيه ثمّ دخل المكتب الواقع خلفه. جلستُ إذن، وأنا أستبق الإذلال والتأخير، تعذّبتني أفكار الطّرد أو ما كان أسوأ، قلقًا بشأن إيما التي كانت تنتظرني في الخارج، متسائلًا عمّا سيحدث لأمتعتي، لحياتي. التقطتُ صحيفة، وكانت مليئةً بأخبار الفتوى التي أصدرها آية الله الخميني للتّو لإراقة دم الرّوائي سلمان رشدي. كان مُعجَبًا آخرًا بالصّمت، ذلك الإمام.

أتت الشّابة التي كانت أوّل من تحدّثت معه لتكلّمني. دوّنت اسمي ونزلت لتأكّد من أنّ أمتعتي ستوضع جانبًا. كانت قد وجدت

طريقةً للاتّصال بطاقم الطائرة، وعرفت أنّهم عثروا على جواز سفر وسلّموه إلى مكتب الأمن. وأسرعت إلى المكتب وعادت وهي تحمل محفظتي. في مأمّنٍ أخيراً، ولستُ مهاجرًا غير شرعي، ولا لاجئًا، أو متشرّدًا بلا مأوى.

خرجتُ بعدَ مرور ساعة من تسريح جميع من كانوا على متن الطائرة، لكنّ إيما ظلّت تنتظرني. بحلول تلك اللحظة، كانت قلقةً للغاية من أنّي قد فوّت رحلتي لدرجة أنّها سارعت نحوي وعانقتني بقوةٍ مدّة طويلة. كان ذلك رائعًا. في السيّارة، لم أستطع التّوقف عن التحدّث، عن لمسها، مداعبة ذراعها، التّربيت على فخذهما، ولمس شعرها. انتظرتُ بفارغ الصّبر أن ينتهي اليوم حتّى نتمكّن من ممارسة الحب. عندما عدنا إلى الشّقة، جلستُ معها برفقة أميليا في المطبخ بينما أعدّت عشاءً احتفاليًا، شربنا وتحدّثنا عن كلّ الأشياء التي حدثت لنا جميعًا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.

كنّا ثملين بعض الشّيء عندما أوينا إلى الفراش، فقط قدر ما يسمح بالاستمتاع، غير أنّ إيما قالت إنّها كانت متعبّة جدًّا لممارسة الحب. بعد لحظة سألتُها إذا كان هناك شخصٌ آخر في حياتها، فقالت نعم، إنّهُ كان هناك شخصٌ آخر. بعدها استلقينا هناك في الظلام، وبدأت تتحدّث عنه وعن كلّ الأشياء التي حدثت لها خلال الأشهر القليلة الماضية. أخبرتني أنّ حياتها سرّديّ رفض أن ينتهي، وأنّها أضحت الآن على مشارف بداية قصّة أخرى، قصّة كانت تختارها لنفسها، لا حكايةٍ تعثّرت فيها ثمّ لم تجد لنفسها منها مخرجًا. كم هي ذكيّةٌ إيما. أتمنّى لو استطعت أن أمحو ما سمعت للتوّ، حتّى لا يمتلئ صمتي بكلماتها وصوتها. أخبرتني كيف تغيّر شعورها تجاهي في الآونة الأخيرة من

حبُّ لاذع جعلها ترغب في إسكاتي والإنقاص من قيمتي، إلى شيء أسوأ من ذلك بكثير، حتَّى أنَّها صارت تجد فكرة وجودها بالقرب منِّي أو لمسي لها أمراً لا يطاق، وأنَّها قضت أسابيع بائسة تخشى عودتي. تحدَّثْتُ لساعات، واستلقيتُ بجانبها غير مصدِّق لما كنت أسمع، خائفاً من التحرك. عندما حاولت أن أقنعها، أن أشرح وأبرِّر، أن أدافع عن نفسي، أوقفتني بوابل من الإساءات في لغة غير لغتها المعتادة، وتابعت صبَّ الكلمات المسمومة في أذني المحتجَّة.

مع نهاية الأسبوع غادرت. سدَّ الله شرَّجها بدم متخثر.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أنوي الالتحاق بدروس مسائية لتعلّم السّباكة. أوّد التّعّمّق في موضوع المراحلض المسدودة وفهمها على أكمل وجه. أريد أن أعرف ما الذي تسبّب في سدّ الأمور.

تُقَدِّم الدّروس التي أوّد الانضمام إليها في معهد المدينة للتّصميم الدّاخلي، وهو مؤسّسة مرموقة في مجال تعليم السّباكة، يأخذون فيها هذه المسألة على محمل الجدّ. أقول هذا حتّى لا تعتقد أنّه معهد على شاكلة مشاريع تدريب الشّباب⁽⁴¹⁾ تلك، أو واحدًا من برامج المراقبة المخصّصة للمسبوقين قضائيًا، والفائض من المعلّمين والأخصائيين الاجتماعيين الذين هم بحاجة إلى إعادة تأهيل ليقوموا بشيء مفيد للمجتمع بعد حياة من التّساهل مع الذات والوعي الزائف. في هذه الدّورة، يتعمّقون في التّاريخ التقني والاجتماعي للسّباكة، ويدرسون التّطورات التي طرأت في تقنيات التّصميم باستخدام أجهزة الكمبيوتر والبرامج الحديثة المواكبة، مع غرف محاكاة وإعادة بناء على شكل فيلم لأهمّ اللّحظات في عملية السّباكة. لست مضطرّاً للاقتراب من المياه أو أنابيب الرّصاص أو المصايد المائية أو أعمدة التّهوئة أو أيّ نوع من أنواع القذارة أو الانزعاج. إنّهُ التّزامٌ فكريٌّ بحثٌ وحقيقيٌّ مع الموضوع. على ما يبدو، التّهافت على الدّورة التدريبيّة كبير بشكل مذهل، هذا ما أخبرني به السّكرتير منظم الدّورة على الهاتف، وأنّه

(41) الاسم السّابق لدورات التّدريب للعمل للمتسربين من المدارس. YTS : Youth training program Scheme

ما من يقين من أنني سوف أبرز بما يكفي لأكون من بين المحظوظين الذين سيقع الاختيار عليهم. أعتقد أن الشيء الوحيد الذي لعب لصالحه هو أنني لا أمتلك أي خبرة عملية في مجال السبّاقة.

على الرّغم من انعدام اليقين الذي حام بشأن مستقبلي، إلا أنني كنت أقرأ قليلاً. قد تعتقد أنّ بإمكانك أن تذهب إلى أيّ مكتبة وتبحث في موضوع السبّاقة وتعثر على رفّ متكامل من الكتب التي تبدو عليها آثار الاستعمال من كثرة التّهافت عليها بخصوص هذا الموضوع الحيوي، والأمر الضّروري للغاية لحياة هادئة ومُرضية، أمر أساسي، كما قد تقول، للحياة المتحضّرة كما نعرفها. وإن غاب، فسنبعد عنها. ومع ذلك، وجدت أجزاءً وقطعاً هنا وهناك لبدء دراستي.

لم يكن من المفاجئ اكتشاف أنّ أوّل من صمّم مرحاضاً به مصيدة مائية كان رجلاً إنجليزياً في القرن السادس عشر. أحياناً، يبدو أنّ أيّ فكرة ذات قيمة مهما كانت، قد خطرت أوّل ما خطرت على رجل إنجليزي، خاصّةً (إن لم يكن ذلك حصرياً) في عصر الملكة الطيّبة بيس⁽⁴²⁾: الكريكييت، فطيرة اللحم والمزر، تجارة الرقيق، تنس الطاولة، الاستعمار، الكيجيري⁽⁴³⁾، الجاذبية، علم الاجتماع، وليس آخرًا ولا أقلّ شأنًا من البقية، المرحاض المزوّد بنظام الشطف. اسم الإنجليزي المعنيّ في هذه الحالة كان السير جون هارينغتون (والذي يُكتب أحياناً براءين)، والذي ألّف كتاباً كاملاً حول هذا الموضوع، تحولات آجاكس، بعنوان فرعي: خطابٌ حول موضوع قديم فاسد

(42) إليزابيث الأولى (1533-1603) آخر من حكم إنجلترا من سلالة آل تيودور.

(43) طبق هندي-بريطاني من السمك (الحدوق)، الأرز، البيض المسلوق، الكاري والزبدة والكريمة.

(ها ها ها)، بحثٌ فلسفي في الأبعاد الأخلاقية لإنتاج والتخلص مما نطلق عليه في ميدان السِّبَاكة اسمَ التَّفَايات المنقولة بالماء. إنها قطعة كتابة ذكية غير مضحكة بشكل مضحك، وتظلّ رغم ذلك غير قادر على انتزاع الفضل منه في حقيقة أنّه كان أوّل شخص منذ الرومان فكّر في الأمر بطريقة منهجية وخرج منها بما اتّضح أنّه الحلّ الصّحيح. لقد شكّل الأمرُ معضلةً طويلة قرون بالطّبع، ما الذي يمكن فعله بكلّ تلك التَّفَايات، لكن استلزم الأمرُ رجلاً إنجليزيًا ليأتي بفكرة جيّدة. صحيحٌ أنّه حاز على متّسع من الوقت، لكن كذلك كان لإنسان الغاب متّسع من الوقت، لكنك لا تتوقّع منه أن يبتكر تصميمًا لمرحاض به نَجَاج. امنَح الرجل بعض الفضل.

مثل بوكاهونتاس إذن، عاش السّير جون في عصر الملكة الطّيبة بيس وجيمبو ستيوارت. وعلى عكس بوكاهونتاس التي لم تكن إلّا أميرة جميلة ومتوحّشة تقاطع مصيرها مع مصير إنجلترا، والتي توفّيت بشكل مأساوي في أحد مستنقعاتها العديدة، كان السّير جون رجلاً إنجليزيًا حقيقيًا. كانت الملكة عرّابته. درس في إيتون وكامبريدج، وتسلى لبعض الوقت في المحكمة كقاضٍ قبل أن يعود إلى أراضيه في الغرب الإنجليزي. تلك الأراضي، بالمناسبة، مُنحت لوالد السّير جون من قبل والد الملكة الطّيبة بيس، والذي كان قد أخذها ببساطة من مُفسدٍ للنفوس مثير للمتعاب، رجل كاثوليكي أو شيء من هذا القبيل. هناك، ألّف السّير جون القصائد وترجم فيرجيل، بلوتارخ وأوفيد. لم يكن يذهب إلى المدينة (لندن) إلّا لحضور حفلة بين الفينة والأخرى. سافر إلى أيرلندا كأحد المتعهّدين لإعادة إعمار

مونستر بعد التطهير العرقي الصّغير الذي وقع هناك، ثمّ عاد بعد اثنتي عشرة سنة ليشارك في حرب استعمارية واسعة النّطاق. كما قلت، رجلٌ إنجليزي حقيقي باتّم معنى الكلمة. كان يعرف السّير جون هوكينز، السّير والتر رالي، وواحدًا أو اثنين من عشّاق كتف الضّان المشوي آنذ.

خلال وجوده في أيرلندا، حصل السّير جون على وسام فارس، تمامًا كما حصل عليه أيّ خرّيج آخر من خرّيجي جامعة إيتون، منحه إياه القائد الإنجليزي إيرل إسيكس والذي أثار بهذا الفعل المتغطرس غضبَ الملكة بيس الطّيبة وحفيظتها. لذلك، نُفي السّير جون إلى غرب إنجلترا مرّة أخرى، حيثُ أُلّف لاحقًا حين آن الوقت المناسب كتابه المملّ ببراعة عن المراحض. ظنّ أنّه سيسعد الجميع ويجعل الملكة تعتقد أنّه ذكي، لكنّه لم يفعل. ولم يعر أحدٌ أيّ أهمّية لتصميمه للتّجاج، كما لم يفكّر أحدٌ حتّى في المصايد المائيّة لأجيال. وظلّ الحال كذلك لمُدّة مئتي سنة أخرى، والعودة إلى الدّلاء وأواني الحجرة والقرفصة على أسرة القراص الكبير، حتّى أتى رجلٌ إنجليزي آخر بخطة محسّنة. أليس من المريح أن يكون قد صادف كونه رجلًا إنجليزيًا هو الآخر؟ كان ساعاتيًا يُدعى جينكينز، وقد عاش في ستييني التي كانت ضاحيّة صحيّة آنذاك. وهكذا، بزغ فجر الحضارة. بالطبع، لم يكن ذلك سوى البداية، وانتظرنا عددٌ كبير من المشكلات والتّحسينات قبل أن تصبح السّباكة على ما هي عليه اليوم. لم تكمن المعضلات في الأنابيب والتّسمم بالرّصاص اللّذين يشكّلان موضوعين منفصلين بحدّ ذاتهما، بل في كيفية نقل المياه،

والحفاظ عليها نظيفةً من الاختلاط بالمياه القذرة، ومنع مناسب المياه من الاختلاط، وما إلى ذلك.

لَمْ هذا الاهتمام بالسّباكة، قد تسأل؟ ينبغي أن يكون السّبب واضحًا حقًا، لكنني سأقوله على أيّ حال. لأنّي لا أريد أن أتحدّث عن إيما، ولن أفعل. عندما سأنهي دراستي للسّباكة، سأعرض خدماتي على وطني الأم، لكن فقط بأجر يعادل أجور الوافدين، حتّى نتمكن من حلّ مشكلة المراحيض المسدودة هناك. اعتقدتُ أنّي سأذهب وأقابل من جديد رئيس الوزراء وأقول، حسنًا، أنا مستعدّ، دعنا ننهي المسألة، فينهض ويعانقني قبل أن ننطلق إلى الفندق الاستعماري الذي يكون قد رُمّم لنحتفل بعودتي إلى الحظيرة، وأنّا سنضع شمسياتنا في الحامل على شكل قدم الفيل الذي يكون أكبر قد وجده مخبأً في متجر مهجور، أو سيكون نسخةً طبق الأصل رائعة أمر بصنعها في لندن. لكنّ رئيس الوزراء رحل في الأخير. حبسوه بتهمة إهانة العلم. رآه أحد حرّاسه يقف على شرفته مرتديًا علمًا كخرقة تستر العورة، وبذلك الطّريقة، ورغم دهائه وخطبه الحماسية، صُرف إلى المراحيض.

آي جاكس⁽⁴⁴⁾. التّقدّم في العمر يولّد الأوجاع. كان بإمكانني إخبارها منذ سنين - أنّ والدي كان عبّاس وأنّه تخلّى عن والدتي قبل ولادتي، أنّه على الأرجح قدم إلى إنجلترا، وأنّ العمّ هاشم كان في الحقيقة زوج أمي الذي رعاني، وأنّ أخت أبي كانت بالفعل بي نورو، وأنّي اختلقتُ حزمة الأكاذيب كلّها التي كانت حياتي معها لأنّه كان

(44) آي جاكس آي كس age aches: العمر يؤلم.

بإمكانني أن أفعل ذلك. لستُ حتّى أعرف إن كان هذا صحيحًا، أم إذا وُجدت أسبابٌ أكثر تعقيدًا تفسّر ما فعلت لستُ أمتلك لا الذكاء اللازم ولا الطّاقة لتحليلها. كان باستطاعة إيما أن تفهم كلّ شيء بشكل أكثر وضوحًا. إذا بدا هذا تهريبًا ومراوغة، فسيُتعيّن على الأمور البقاء على هذا النحو حتّى أتمكّن من استجماع ما يكفي من الطّاقة للعودة إليها. ما همّني.

أحاول أن أعتبر أنّها ماتت، رحلت، انتهت؛ لكنّ كلّ شيء أراه يهزمّني. يجعلّني أبسط عرضٍ للعاطفة بين شخصين أرغب في البكاء بمرارة على حياتي الخالية من الحبّ، على الطّريقة التي سلّبتني بها كلّ شيء تقريبًا، بكلّ ذلك الكمّ من القسوة. أجد نفسي أعيّد باستمرار عيش حياتنا في الآونة الأخيرة معًا، لأرى ما إذا كان سيقودني ذلك إلى ما ألتُ إليه الآن. لستُ أدري كيف سأتدبّر حالي حتّى أبلغ الضّفة الأخرى. يجب عليّ أن أقتل الشّخص الذي أعرف أنّّه أنا كي أجد ذلك الأنا الآخر الذي سأصبحه. لقد رحلت، وكم أتمنّى لو لم تفعل. كيف أمكنها أن تفعل؟ هل خذلتها حقًا إلى هذا الحدّ؟ أعتقد أنّ ذكاءها هو ما جعل صبرها ينفد معي. بينما ازدادت ثقتها في قواها، أصبحت أقلّ تسامحًا، وكلّ ما أمكنني منحه إيّاها هو عشقٌ بليد. الآن وقد رحلت، أجد نفسي أعيش في إنجلترا لأسباب لم أعد أفهمها. وأحيانًا، أتساءل ما إذا كان هذا بالضّبط ما حدث لوالدي عبّاس، وما إذا كان الأجدر بي محاولة العثور عليه بجهد أكبر. لا يمكن لذلك أن يكون بهذه الصّعوبة. وعندها، ما الذي سأقوله له؟ كيف كان حالك بعد كلّ هذا الوقت، أبي؟ هل كان الأمر يستحقّ العناية؟

الماء هدية للموتى. تجفّ روح الموتى عطشى للحياة وتتوق لرشفة من ماء الذاكرة، لكن لا يسعها إلا أن تشرب ماء النسيان. هذه استعارة غامضة. ومع ذلك، فما يهم فعلاً ليس أن يكون المرء ميتاً. وهذا موضع آخر تتدخل فيه السبّابة.

أريد أن أتوقّف الآن، لكن بقيت هناك مسألة أو اثنتان صغيرتان أخريان يجب التطرّق لهما. هذه ليست قصّة خرافية، أو اعترافاً، أو أطروحة دعاية من أجل الخلاص أو الوصول إلى تسوية، أو من أجل التسامي، ويسعدني أن أقرّ بأنّ ما أعتقد أنّي أفهمه يصبح مثيراً للجدل بمجرد صياغته في كلمات. الكلمات هكذا. حوامل، خبيثات، مراوغات، لا تعرف الانتقاص في قراءتها المتكرّرة أثناء خوضها لرحلتها الطقوسية في الذاكرة.

أتأمل في أمر أبي عباس. أحبّ التّطق باسمه لنفسى. أتأمل الألم، أو نوبة الذّعر، أو الغباء الذي يكون قد جعله يتصرّف بمثل تلك القسوة. هل يمكنه أن يعيش على بُعد شارعين متيّ؟ هل مررتُ به في الشارع، في السّوبر ماركت؟ أتخيّله في السّتينيات من عمره، جالساً وحيداً مع صمته.

غادرت أميليا ستّة أسابيع بعد رحيل إيما. لا أعرف ما توقّعه غير ذلك. أفترض أنّ ذلك كان متوقّعاً أيضاً. في البدء، كانت محطّمة مثلي تماماً، وجلسنا نبكي سوياً مساءً بعد مساءً مثل أرواح ضالّة. سهرنا حتّى ساعات متأخّرة، نشرب ونستمع للموسيقى، متحدّثين بقسوة متزايدة مع ازدياد مفعول الخمر علينا. ثمّ استعادت السيطرة على حياتها، بطريقة ما. أعتقد أنّ أصدقائها هم من ساعدوها

على ذلك. كما كانت لديها أشياء تنجزها، أشخاصًا تقابلهم، حياة تعيشها. بعد تلك الأسابيع القليلة الأولى، رأيتني أجلس بجوار قنينة النبيذ كلّ مساء (وما زلت جالسًا بجانبها) أبكي خسارتي وقلبي المعتلّ وحياتي المحطّمة، ولم تستطع إخفاء سخطها وسخريتها. في النهاية، أخبرتني عن مدى حقارتي، وكم كنت أشعرها بالاشمئزاز، وأنها ستنتقل للعيش مع صديق يملك شقة في كامبرويل. كانت أميليا القديمة، لا الابنة المتحمّسة التي أرادتني أن أصطحبها معي إلى زوايا العالم المظلمة لأنها انتمت لها من خلال والدها، لا تلك الوقفة الرومانسية في حياتها، بل ابنة المدينة الكبيرة، ذلك المخلوق القاسي الذي يمكنه أن يجرف كلّ شيء فيه مشيته، والذي احتقر أخطائي في الحياة بكراهية حقيقية. تتصل بي من وقت لآخر؛ وذات يوم، ستأتي لتزورني، هذا ما تقوله. سأسعد برؤيتها.

شيء واحد أضيفه. لم أَرِدْ صمًا آخرًا يدوم عشرين عامًا، لذلك كتبتُ لوالدتي بعد مغادرة إيما. كتبتُ بدناءة، متوقعًا تأنيبًا منتصرًا، لكن بدل ذلك تلقّيت ردًّا مفجعًا من أكبر، أملتّه عليه أمي، رافقه تعليقٌ منه على محنتها (كما عبّر على ذلك) ومحنة عائلتك بأكملها في الدمار الذي حلّ بي. لم يكن هذا ما اعتقدتُ أنّ أيًا منهم سيقوله، بعد كلّ الرّفْض، غير أنّي لا أعتقد أنّ الوهابيّ الكبير قد تحالف مع كلّ هذه النوايا الحسنة. فقد كان لديه العالم بأسره ليفكرّ فيه. في ختام رسالته طلب أكبر: عُدْ إلى الوطن. لكنّه لم يعد الوطن بعد الآن، ولم تعد لديّ أيّ طريقة لاستعادة تلك الفكرة المغرية إلّا من خلال اختلاق المزيد من الأكاذيب. وستدوّي حينها الانفجارات: يوم بوم.

أجلس إذن الآن هنا، والهاتف في حجري، أفكر في أن عليّ
الاتصال بإيرا وسؤالها ما إذا كانت ترغب في مشاهدة فيلم برفقتي.
لكنني خائفٌ جدًّا من إزعاج هذا الصّمت الهشّ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

فهرس المحتويات

الجزء الأول.....7

1.....9

2.....51

3.....76

4.....99

الجزء الثاني.....137

1.....139

2.....195

3.....225

الجزء الثالث.....229

1.....231

2.....276

إعجابٌ بالصَّمْتِ

إعجاب بالصمت قصة مبهرة عن الهوية الثقافية والنزوح ونظرة مريرة لا تخلو من كوميديا سوداء إلى النضال من أجل الانتماء إلى عالم غريب، تعرض مشكلة الهوية والانتماء التي انتقلت من جيلٍ إلى جيلٍ في سرد متعدد الطبقات عابر للحدود والجنسيات. يعاني فيها الراوي من مشاكل الانتماء على الرغم من استقراره في إنجلترا وتكوين عائلة. ومحاولته حل هذه المشكلة بالعودة إلى موطنه يُدرك أن المشكلة لا تقتصر على المكان أو الجغرافية، إلى جانب العقبات الروحية والأخلاقية التي يواجهها في وطنه.

«قصةٌ كُتبت ببراعة عن البحث المُضني عن وطنٍ للقلب والروح، في عصر المهاجرين والمنفيين. يقدم قرنح تعريفًا جديدًا للتجربة الاستعمارية بطريقة مؤثرة عندما يصف بالتفصيل «الحب المخيب للآمال» الذي يشعر به المنفي تجاه الأم الاستعمارية، إنجلترا، ووطنه المستقل الآن». Kirkus Review

"لا أعتقد أنني قرأت رواية تراثي فقدان الوطن بهذه الطريقة المقنعة والمؤثرة من قبل". Independent on Sunday

عبد الرزاق قرنح، من مواليد زنجبار (1948). روائي وأكاديمي تنزاني من أصول يمنية، يُقيم في المملكة المتحدة ويحمل الجنسية البريطانية. يعمل قرنح أستاذًا ومديرًا للدراسات العليا في جامعة كنت في قسم اللغة الإنكليزية. في رصيده عشر روايات والعديد من القصص القصيرة والمقالات. ترشحت أعماله لعدة جوائز مثل، البوكر، الكومنولث للكتاب. وفي أكتوبر 2021 حاز قرنح على جائزة نوبل في الأدب.



Credit Mark Pringle